صحابة رسول الله ﷺ
رهبان بالليل فرسان بالنهار

صحابة رسول الله ﷺ
رهبان بالليل فرسان بالنهار

صحابة رسول الله ﷺ هم الجيل القرآني الفريد الذي لا يجود الزمان بمثله أبدًا، وهم أفضل الناس بعد الأنبياء.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير أمتي القرن الذي بُعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يخلف قوم يحبون السَّمانة، يشهدون قبل أن يُستشهدوا»**(٢).

وقال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد(٣) أحدهم ولا نصيفه(٤)»**(٥).

وقال رسول الله ﷺ:

«يأتي على الناس زمان يغزو فئام(٦) من الناس فيُقال: فيكم من صاحَب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيُقال لهم: هل فيكم من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) هو مكيال؛ وهو: رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

(٤) نصيفه: أي: نصفه.

(٥) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن أبي سعيد، ومسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٦) الفئام: أي: الجماعة الكثيرة.

الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيُقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن اللَّه نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ»[٢]، هُم عباد اللَّه الذين اصطفى؛ كما قال سفيان: اختارهم اللَّه على الثقلين سوى النبيين والمرسلين، كانوا خير هذه الأمة: أبرها قلوبًا، أعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا.

عن عروة قال: «**لما تداني العسكران يوم اليرموك بعث القبقلار رجلًا عربيًّا... فذكر الحديث وفيه: فقال: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان**»[٣].

ولله در ابن القيم:

القانتون المخبتون لربهم	الناطقون بأصدق الأقوال
يحيون ليلهمُ بطاعة ربهم	بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم	مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبانٌ وعند جهادهم	لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علمُ الرِّهان رأيتهم	يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم	وبها أشعة نوره المتلالي
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم	في سورة الفتح المبين العالي
وبرابع السبع الطوِّال صفاتهم	قوم يحبهم ذو إدلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم	وبهل أتى وبسورة الأنفال[٤]

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي سعيد.
(٢) التبصرة، لابن الجوزي (٤٧٧/١).
(٣) تاريخ الطبري (٦١/٢).
(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم.

٥

الخليفة الأول

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الصديق الأكبر ثاني اثنين في الشجاعة والرجولة

وهو من الدين السمع والبصر

صديق هذه الأمة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **[الزمر: ٣٣].**

٥

الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الصديق الأكبر ثاني اثنين في الشجاعة والرجولة وهو من الدين السمع والبصر صديق هذه الأمة قال اللَّه ـ تَعالَى ـ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر: ٣٣].

«كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه **يحلف باللَّه أن اللَّه** عز وجل **أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق**»[(١)].

أنا مولاي إمامٌ ضحكت	من ثنايا فضله آي الزُّمَرْ
صدَّق المرسل إيمانًا به	ولحا في اللَّه من كان كفرْ
ثم بالغار له منقبةٌ	خصه اللَّه بها دون البشرْ
ثاني اثنين وقول المصطفى	معنا اللَّه فلا تُبدي الحذرْ

وهو الذي ذبَّ عُقبة شيطان قريش عن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، ودفعه عن النبي:

قال عروة بن الزبير ـ رحمه اللَّه ـ: سألت عبداللَّه بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن أشد ما صنع المشركون برسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته؟

فقال عبداللَّه: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر، فقام دونه، وهو يبكي، حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[(٢)] [غافر: ٢٨].

---

(١) التبصرة، لابن الجوزي (١/٣٩٨).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٨)، (٣٨٥٦)، وأحمد (٢/٢١٨)، وابن أبي شيبة (٨/٤٤١) في «مصنفه»، وابن حبان (٦٥٣٥)، والطبري (٢/٣٣٢، ٣٣٣)، وأبو نعيم في «الدلائل»، ص (٦٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٧٥، ٢٧٦)، وأبو يعلى، والطبراني.

وقيل لأسماء بنت أبي بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟

قالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول اللَّه ﷺ، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول اللَّه ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، فتشبثوا به، فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا، وإن له غدائر أربع، فدخل المسجد، وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

قال: فلهوا عن رسول اللَّه ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[1]، فأبو بكر هو الرجل الكامل في الرجولية حين يغضب لله ولرسوله ﷺ.

❑ وهو ثاني اثنين

سبقت للصديق من ربه الحسنى، واختاره الرسول ﷺ لصحبته في الهجرة،قال ـ تَعَالَى ـ:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشعبي: عاتب اللَّه أهل الأرض جميعًا في هذه الآية، غير أبي بكر.

قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر: **«إن اللَّه قد أذن لي في الخروج والهجرة»**. قالت عائشة: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: **«الصحبة»**، قالت: فوالله، ما شعرت قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٢٤)، وأبو يعلى، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣١، ٣٢).

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/١١٧): رواه أبو يعلى بإسناد حسن.

والغدائر: جمع غديرة، وهي الذوائب من الشعر.

غلب السرور عليَّ حتى إنني　　من فرط ما قد سرَّني أبكاني

هذا والله، بكاء الرجال. لقد كانت تحفة ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ مُدَّخرة للصديق، قال ابن حجر في «الفتح» (١٢/٧): «فُضِّل أبو بكر؛ لأنه انفرد بهذه المنقبة، حيث صاحب رسول الله ﷺ في تلك السَّفرة، ووقاه بنفسه».

«فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم، وأبو بكر مات، سُمَّ فمات، وقد كان الصديق رضي الله عنه، ثاني اثنين في يوم بدر.

وقد جمع الله بينهما في التربة؛ كما جمع بينهما في الحياة. فانظر إلى سر الاقتران: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] لفظًا وحُكمًا ومعنى، إذ يُقَال: رسول الله، وصاحب رسول الله، فلما مات قيل: خليفة رسول الله. ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين»[١].

تظهر جندية الصديق الرفيعة العالية في رفقته لرسول الله ﷺ، وحبه البالغ لرسول الله ﷺ، وشجاعته التي لا تدانيها شجاعة، وخوفه البالغ على الدعوة والإسلام ورسول الله ﷺ أن يراه المشركون وهو في الغار، وما كان الصديق ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك ما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم.

صاحب القائم المتوج بالفر　　قان، بوركت صاحبًا ووزيرا

أنت واليته وعاديت فيه　　من توخى الأذى وأبدى النفورا

أي رأس حملت يا حامل الإيمـ　　ـان سمحًا، والبِرَّ صَفْوًا طهورًا؟

لمزايا أبي بكر التي لا يشاركه فيها أحد من البشر كان هو أحب الناس إلى المسلمين بعد الرسول ﷺ.

---

(١) الفوائد، لابن القيم ص (٢٧٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٨/٤).

فإذا أحب اللَّه باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد إليه بالأرواح

طار واللَّه صديق الأمة بعنائها، وفاز بحبائها، وذهب بفضائلها، وأدرك سوابقها، كانت فضائله مستورة بنقاب: «**ما سبقكم أبو بكر بصوم، ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره**» فهي مجانسة لمنقبة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾، قال رسول اللَّه ﷺ: هذان السمع والبصر؛ يعني: أبا بكر وعمر[1].

وقال ﷺ: «**هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين لا تخبرهما يا علي**»؛ يعني: أبا بكر وعمر[2].

❑ جهاد الصديق:

قال ابن كثير: «لم يختلف أهل السير في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في مشهد من مشاهده كلها»[3].

وذكر أهل العلم بالتاريخ والسير أن أبا بكر شهد مع النبي ﷺ بدرًا والمشاهد كلها، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي ﷺ رايته العظمى يوم تبوك وكانت سوداء»[4].

أبو بكر في بدر الكبرى أشجع الناس بعد رسول اللَّه ﷺ

❑ مشورة الحرب

لما بلغ رسول اللَّه ﷺ نجاة القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبي ﷺ استشار

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن عبدالله بن حنطب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٠٤)، «والصحيحة» رقم (٨١٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أنس وعلي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٠٥)، «والصحيحة» رقم (٨٢٢).

(٣) أسد الغابة (٣/٣١٨)، والبداية والنهاية.

(٤) الطبقات الكبرى (١/١٢٤)، وصفة الصفوة (١/٢٤٢).

رسول اللَّه ﷺ أصحابه في الأمر[١]، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن[٢].

❑ دوره في الاستطلاع مع النبي ﷺ

كان للصديق لقربه البالغ من النبي الذي لم يشاركه أحد فيه دورًا هامًّا قبل نشوب القتال، فلقد قام بدور هام في الاستطلاع إذ قام مع النبي ﷺ يستكشف أحوال جيش المشركين، ولقياهما لشيخ من العرب أخبرهما بالمكان الذي فيه جيش المشركين[٣].

❑ ثاني اثنين في عريش بدر

عندما رتب النبي ﷺ الصفوف للقتال رجع إلى مقر القيادة، وكان عبارة عن عريش على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر.

«**قال علي بن أبي طالب: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول اللَّه** ﷺ عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول اللَّه ﷺ؛ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله، ما دنا منه أحد إلا أبا بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول اللَّه ﷺ لا يهوي إليه أحد من المشركين إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس»[٤].

وفي عريش بدر جعل النبي يدعو ربه ويستغيث به: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**»، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر وردَّه على منكبيه وهو يقول: يا

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٩٥٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٤٤٧).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٨).
(٤) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٢٧١، ٢٧٢).

رسول الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك»[١].

وقد خفق النبي ﷺ خفقة وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر اللَّه هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[٢]. ثم خرج رسول اللَّه إلى الناس فحرَّضهم[٣].

وقد قاتل ﷺ بنفسه قتالاً شديدًا وكان بجانبه الصديق[٤].

وقد ظهرت من الصديق شجاعة وبسالة منقطعة النظير، وكان على استعداد لقتل كل كافر عنيد ولو كان ابنه، وقد شارك ابنه عبدالرحمن في هذه المعركة مع المشركين، وكان من أشجع الشجعان بين العرب، ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش، فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت لي[٥] يوم بدر فملتُ عنك ولم أقتلك، فقال له أبو بكر: ولكنك لو أهدفت لي لم أمل عنك[٦].

❑ الصديق في يوم أحد وحمراء الأسد

في يوم أحد تلقى المسلمون درسًا صعبًا، فقد تفرقوا من حول النبي ﷺ، وتبعثر الصحابة في أرجاء الميدان، وشاع أن الرسول ﷺ قُتِل، وكان ردُّ الفعل على الصحابة متباينًا، وكان الميدان فسيحًا وكل مشغول بنفسه، وشق الصديق الصفوف، وكان أول من وصل إلى رسول اللَّه ﷺ، واجتمع إلى رسول اللَّه ﷺ أبو بكر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعلي، وطلحة، والزبير، وعمر بن الخطاب، والحارث بن الصِّمة، وأبو دجانة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وقصدوا مع رسول اللَّه ﷺ الشعب من جبل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر رقم (١٧٦٣) (٣/١٣٨٤).

(٢) النقع: الغبار.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٤٥٧).

(٤) البداية والنهاية (٣/٢٧٨).

(٥) أي ظهرت أمامي كهدف.

(٦) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص (٩٤).

أحد في محاولة لاسترداد قوتهم المادية والمعنوية(١).

وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدِّث، قال: كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل اللَّه دونه، قال: قلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول اللَّه ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول اللَّه ﷺ وقد كُسِرت رباعيته وشُجَّ وجهه، وقد دخل في وجنيْه حلقتان من حلق المغفر، قال رسول اللَّه ﷺ عليكما صاحبكما ـ يريد طلحة ـ وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، قال: ذهبت لأنزع من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكَرِه تناولها بيده فيؤذي رسول اللَّه ﷺ، فأرزم عليها بفيه، فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتمًا... فأصلحنا من شأن رسول اللَّه ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة، ورمية، وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه(٢).

وأمر الرسول ﷺ المسلمين مع ما بهم من جراحات أن يخرجوا في أثر المشركين في حمراء الأسد.

عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنها سُئِلت عن هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢]. فقالت لعروة بن الزبير: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب رسول اللَّه ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «**من يذهب في إثرهم**»، فانتدب منهم سبعون رجلًا، كان فيهم أبو

---

(١) مواقف الصديق مع النبي ﷺ في المدينة، للدكتور عاطف لماضة ص (٢٧).

(٢) منحة المعبود (١٩/٢)، نقلًا عن تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، لجميل عبدالله المصري ص (١٣٠). مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

بكر، والزبير[١].

❏ الصديق في غزوة بني المصطلق

أراد بنو المصطلق أن يغزوا المدينة، فخرج لهم رسول اللَّه ﷺ في أصحابه، فلما انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويُقال: إلى عمار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، ثم أمر عمر بن الخطاب، فنادى في الناس أن قولوا: لا إله إلا اللَّه تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوْا، فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول اللَّه ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقُتِل منهم عشرة وأُسِر سائرهم، ولم يُقتَل من المسلمين سوى رجل واحد[٢].

❏ في الخندق وبني قريظة

كان الصديق في الغزوتين مرافقًا للنبي ﷺ، وكان يوم الخندق يحمل التراب في ثيابه، وساهم مع الصحابة للإسراع في إنجاز حفر الخندق[٣].

❏ في الحديبية لله در الصديق... وماذا قال لعروة بن مسعود الثقفي:

وفي الحديبية في سنة ست من الهجرة لما جمعت قريش جموعها؛ لصد النبي ﷺ والصحابة عن البيت، فقال النبي ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد حربه أو قتل أحد، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. قال: «**امضوا على اسم الله**»، وقد ثارت ثائرة قريش، وحلفوا أن لا يدخل الرسول ﷺ مكة عنوة، ثم قامت المفاوضات بين أهل مكة ورسول اللَّه ﷺ وقبلها، قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).

(٢) البداية والنهاية (١٥٧/٤).

(٣) مواقف الصديق مع النبي ﷺ في المدينة ص (٣٢).

(٤) جزء من حديث عند البخاري رقم (٢٧٣٢)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

وانظر إلى غاية العزة الإيمانية والرد الصارم من البطل الصديق لما قال عروة بن مسعود لرسول اللَّه ﷺ حين أرسلته قريش إلى النبي ﷺ في الحديبية: «أيْ محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى، فإني والله، لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا [١] من الناس خليقًا [٢] أن يفِرُّوا ويَدَعوك [٣]. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات [٤]، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟ فقال: مَن ذا؟ قال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزِك بها لأجبتك» [٥].

كمال الصديقية عند صديق الأمة الأكبر يوم الحديبية وما قاله لعمر ابن الخطاب:

في يوم الحديبية عزَّ على عمر بن الخطاب أن يقبل رسول اللَّه ﷺ شروط قريش، وذلك لأنه قاس الأمر برأيه [٦]، وأتى عمر النبي ﷺ فقال: ألست نبي اللَّه حقًّا؟ قال:

---

(١) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى، والأوباش - وهي رواية في الحديث كما صرح القسطلاني -: الأخلاط من السفلة، فالأوباش أخصُّ من الأشواب.

(٢) خليقًا: أي: حقيقًا.

(٣) يدعوك: أي: يتركوك.

(٤) امصص بظر اللات: اللات: طاغية عروة الذي يعبد. والبظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة.
واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سبِّ عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.
وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك.
وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله - تَعَالَى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا -، بأنها لو كانت بنتًا لكان لها ما يكون للإناث.

(٥) جزء من حديث البخاري رقم (٢٧٣٢).

(٦) ولذا قال عمر رضي الله عنه بعد ذلك: «اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردُّ أمر رسول الله ﷺ برأي، وما ألوتُ عن الحق». وعند ابن إسحاق قال عمر: ما زلت أتصدق، وأصوم، وأصلي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به. وعند الواقدي: قال عمر: لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا وصمتُ دهرًا.

«**بلى**»، قلتُ: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدَّنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري**»، قلتُ: أوَ لَيسَ كنت تحدَّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أن نأتيه العام؟**»، قال: قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**»، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي اللَّه حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول اللَّه ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرره[1]، فوالله، إنه على الحق. قلتُ: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوَّف به»[2].

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٥/٤٠٨): «لم يذكر عمر أنه راجع أحدًا في ذلك بعد رسول اللَّه ﷺ غير أبي بكر الصديق: وذلك لجلالة قدره وسعة علمه عنده، وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما أجابه النبي ﷺ سواء دلالة على أنه كان أكمل الصحابة، وأعرفهم بأحوال رسول اللَّه ﷺ، وأعلمهم بأمور الدين، وأشدهم موافقة لأمر اللَّه ـ تَعَالَى ـ. وقد وقع التصريح في هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور، وكانوا على رأي عمر في ذلك، وظهر من هذا الفصل أن الصديق لم يكن في ذلك موافقًا لهم، بل كان قلبه على قلب رسول اللَّه ﷺ سواء. وسيأتي في الهجرة أن ابن الدغنة وصف أبا بكر بنظير ما وصفت به خديجة رسول اللَّه ﷺ من كونه يصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الحق، وغير ذلك، فلما كانت صفاتهما متشابهة من الابتداء استمر ذلك إلى الانتهاء».

كان جواب الصديق مثل جواب النبي ﷺ ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي

---

(١) الغرر للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد التمسك بأمره، وترك المخالفة له؛ كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه.

(٢) جزء من حديث البخاري رقم (٢٧٣٢).

ﷺ، فكان أبو بكر أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، مع أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحدَّث، ولكن مرتبة الصدِّيق فوق مرتبة المحدث؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله[1].

قال الصديق ـ فيما بعد ـ عن الحديبية: «ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد، ولقد نظرت إلى سهيل بن عمرو[2] في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يقرِّب إلى رسول اللَّه ﷺ بدنة، ورسول اللَّه ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلى سُهيل يلتقط من شعره، وأراه يضعه على عينه، وأذكر إباءه أن يُقِرَّ يوم الحديبية بأن يكتب: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، ويأبى أن يكتب: محمد رسول اللَّه ﷺ، فحمدتُ اللَّه الذي هداه للإسلام»[3].

❏ في غزوة خيبر:

ضرب رسول اللَّه ﷺ حصارًا على خيبر واستعدَّ لقتالهم، فكان أول قائد يرسله ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح، ثم فتح اللَّه على يد عليٍّ بن أبي طالب، وأشار الصديق على النبي بعدم قطع النخيل لما في ذلك من الخسارة للمسلمين سواء فُتِحت خيبر عُنوة أو صلحًا، فقبل النبي ﷺ مشورة الصديق، ونادى المسلمين بالكف عن قطع النخيل فرفعوا أيديهم[4].

❏ في نجد:

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بعث رسول اللَّه ﷺ أبا بكر إلى نجد وأمَّره علينا،

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (١١/١١٧).

(٢) هو الذي فاوض رسول الله ﷺ في الحديبية، واشتد في شرطه.

(٣) كنز العمال (٣٠١٣٦).

(٤) المغازي، للواقدي (٢/٦٤٤).

فبيَّتنا ناسًا من هوازن، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات، وكان شعارنا أمت أمت [(١)].

❑ سرية أبي بكر إلى بني كلاب بضُرِيَّة بنجد.

كانت هذه السرية بقيادة أبي بكر إلى بني كلاب بضُرِية بنجد في شعبان من السنة السابعة، وهرب المشركون، وسبي قسم منهم.

جرِّد السيف أبا بكر فما ... طُبِع[(٢)] السيف ليبقى مُغمدا
تلك نجدٌ خيَّم الكفر بها ... فاستعن باللَّه واذهب منجدا
جاهد القوم وزلزل دينهم ... أين دينُ الكفر من دين الهُدى؟
سرتَ في بأسٍ بعيد المرتقى ... ما له في اللَّه حدٌّ أو مَدَى
إنها الحرب فسر لا تتَّئِد ... ودَعِ السيف وأعناق العَدى
فازْمِ بابن الأكوع القوم فما ... خُلق المخْلَبُ للَّيث سُدَى
هَدَّهم أسرًا وسَبْيًا وسَقَى ... من سقى منهم أفاويق[(٣)] الرَّدَى
جال فيهم جولة عاصفة ... فهووا صرعى وأمسَوْا هُمَّدَا
صدفوا عن ربهم سبحانه ... وأبَوْا أن يُتَّقى أو يُعبَدا
فجزاهم من نكالٍ ما لقوْا ... وي كأن اللَّه يجزي المفسدا
كذب الجهَّال فيما زعموا ... ما المباتير[(٤)] المواضي كالمُدى

❑ سرية أبي بكر إلى بني فزارة:

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: خرجنا مع أبي بكر بن أبي قحافة، وأمَّره النبي ﷺ علينا، فغزونا بني فزارة، فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا، فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة، فقاتلنا على الماء من مَرَّ قبلنا.

قال سلمة: ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه الذرية والنساء نحو الجبل، فرميت

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (١٢٤/١)، وأبو داود في «سننه»، باب البيات (٤٣/٣).
(٢) طبع السيف: عمله وصاغه.
(٣) أفاويق: جمع فيقة؛ وهي: اللبن يجتمع بين الحلبتين.
(٤) المباتير: جمع مِبتار؛ وهي: صيغة مبالغة من الباتر؛ أي: القاطع.

بسهم فوقع بينهم وبين الجبل. قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء، وفيهم امرأة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلنى أبو بكر، فما كشفت لها ثوبًا حتى قدمت المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوبًا، فلقيني رسول اللَّه ﷺ في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة، قال: فقلت: واللَّه يا رسول الله، لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا، قال: فسكت رسول الله، وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول اللَّه ﷺ في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة، قال: فقلتُ: واللَّه يا رسول الله، واللَّه ما كشفت لها ثوبًا، وهي لك يا رسول الله، قال: فبعث بها رسول اللَّه ﷺ إلى أهل مكة، وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول اللَّه بتلك المرأة[١].

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزوتُ مع النبي ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات: مرة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة[٢].

قال ابن حجر في «الفتح» (٧/٥٩١): أما البعوث فسرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة كما ثبت من حديثه عند مسلم، وسريته إلى بني كلاب ذكرها ابن سعد، وبعثه إلى الحج سنة تسع.

❏ في سرية ذات السلاسل:

بعث رسول اللَّه عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر، وعمر، وسراة[٣] أصحابه.

عن عبداللَّه بن بريدة قال: «بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكر وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا يثوروا نارًا، فغضب عمر وهمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر، وأخبره أن

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤/٤٣٠)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/١٦٤).
(٢) رواه البخاري (٤٢٧٠)، كتاب المغازي، باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات.
(٣) سراة أصحابه: أي: شرفاء أصحابه.

الرسول ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، فهدأ عنه عمر»[١].

هنا تلوح جندية الصديق، وانضباطه، وطاعته لقائده، وتقديره واحترامه له.

❑ وقبل فتح مكة:

لما جاء أبو سفيان إلى رسول اللَّه ﷺ طالبًا تجديد العقد وزيادة المدة، وطلب ذلك من أبي بكر، قال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله، والله، لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم[٢].

❑ الصديق يوم فتح مكة:

لما دخل النبي ﷺ مكة كان بجانبه أبو بكر، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل، فابتسم إلى أبي بكر ﷺ، وقال: «**يا أبا بكر، كيف قال حسان؟**»

فأنشد أبو بكر:

عَدِمنا خيلنا إن لم ترَوْها ... تُثير النَّقْع موعدها كَدَاءُ

يبارِيْنَ الأسنَّة مُصغيات ... على أكتافها الأسَلُ الظماءُ

تظل جيادُنا متَمطِّرات ... تلطمهُنَّ بالخُمُرِ النساءُ

فقال النبي ﷺ: «**ادخلوها من حيث قال حسان**»[٣].

❑ في حنين:

لم يثبت مع النبي ﷺ إلّا قلة، ولم تكن الفئة التي صبرت مع النبي ﷺ إلا فئة من الصحابة يتقدمها الصديق رضي الله عنه، ثم نصرهم اللَّه بعد ذلك نصرًا، عزيزًا، مؤزرًا[٤].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك»، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح. كتاب المغازي (٣/٤٢).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية ص (١٤٥).

(٣) الحاكم في «المستدرك» (٣/٧٢) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، والطبري في «تاريخه» (٣/٤٢).

(٤) مواقف الصديق مع النبي في المدينة (٤٣).

❑ وفي تبوك.

تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول اللَّه ﷺ، واختار رسول اللَّه ﷺ الأمراءِ والقادة، وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه(١).

ولما حثَّ رسول اللَّه على الانفاق في تبوك «تصدق عمر بن الخطاب بنصف ماله، وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، ونترك الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك؛ حيث قال: أمرنا رسول اللَّه ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم اللَّه ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا»(٢).

كان فعل عمر فيما فعله من المنافسة والغبطة مباحًا، ولكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل؛ لأنه خال من المنافسة مطلقًا، ولا ينظر إلى غيره(٣).

❑ الصديق أمير الحج سنة ٩هـ:

في عام ٨هـ كلِّف بإمارة الحج عُتَّاب بن أسيد، ولم تكن تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين(٤).

فلما حل موسم الحج في السنة التاسعة أرسل النبي ﷺ الصديق أميرًا على الحج، فخرج أبو بكر بركب الحجيج، ونزلت سورة براءة، فدعا النبي ﷺ عليًا رضي الله عنه، وأمَره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول اللَّه ﷺ العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي حليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور،

---

(١) صفة الصفوة (١/٢٤٣).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب الزكاة (٢/٣١٢، ٣١٣)، (ح/١٦٧٨)، وحسنه الألباني.

(٣) الفتاوى، لابن تيمية (١٠/٧٢، ٧٣).

(٤) دراسات في عهد النبوة، لعماد الدين خليل، ص (٢٢٢).

ثم سار، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وعرف الناس مناسكهم في وقوفهم، وإفاضتهم، ونحرهم ونقرهم، ورميهم للجمرات.. إلخ، وعلي بن أبي طالب يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك[١].

وكانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع[٢]، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، فأخذت العرب ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد.

❏ الشجاعة في ذروتها العليا وقمتها السامقة شجاعة الصديق وثباته يوم موت الرسول ﷺ، فثبت الله به الأمة بأسرها:

«من شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أحفل ساعاته... من شاء أن يرى الإيمان العلوي الموصول بقيوم السماوات والأرض، فلير هذا الإيمان يوم دُعي الرسول إلى الرفيق الأعلى، يوم تلفَّت المسلمون فجأة، فلم يروا بينهم «**الأب**» الذي كان يملأ حياتهم حنانًا، والنور الذي كان يملأ وجودهم ضياء. يومئذ تكشف جوهر هذا الإيمان. إيمان رجل رباني، أعطى الله موثقه مع محمد ﷺ، فإذا اختفى محمد ﷺ بالموت، فإن هذا الإيمان لا يضعف، بل يتفوَّق... ولا يجزع، بل يحتشد.. ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض أيِّدًا، رشيدًا، ثابتًا؛ ليحمل مسئولياته وتبعاته..!!

وهكذا وقف «**أبو بكر**» أو بتعبير أحجى، وقف إيمان أبي بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه..!!

---

(١) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم صالح العلي ص (٦٢٥)، دار النفائس.
(٢) السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/٥٤٠).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما تُوفيّ رسول اللَّه ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول اللَّه ﷺ قد تُوفي، وإن رسول اللَّه ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه؛ كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل، واللَّه ليرجعن رسول الله؛ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!!

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول اللَّه ﷺ في بيت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، ورسول اللَّه ﷺ مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول اللَّه ﷺ، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال:

بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب اللَّه عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.

قال: ثم ردَّ البرد على وجه رسول اللَّه ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصِت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت، أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن اللَّه حي لا يموت، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فوالله، لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم، قال عمر: فوالله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت[١] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت

(١) عُقِرت: أي: ذُهلت وتحيرت.

أن رسول اللَّه ﷺ قد مات»[١].

وفي رواية عائشة قالت: «فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، ثم بكى، فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع اللَّه عليك موتتينْ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها»[٢] كُتب على الناس أن يسمعوا في لجج من الهول والأسى كلمة الموت مقترنة بالرسول، فطار منهم صوابهم، ولقد كان أبو بكر أحق الناس بأكبر قدر من الأسى والذهول. ولكن ثبات أبي بكر هو الثبات الذي ما بعده ثبات.

أفي هذه اللحظات الذاهلة، والفاجعة المزلزلة يكون مثل هذا الثبات؟

ولكن البديهة المؤمنة التي تشبه عين الصقر وقعت في أقل من لمح البصر على كلمة السر التي سترد الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وعي قدير يستقبل تبعاته الجسام، ويعبر أزمة الموت بسلام..!!!

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة: «**من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات.. ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت..**»

إذن يا خيل اللَّه اركبي.. ويا راية اللَّه ارتفعي، ويا حملة الراية قوموا.. انهضوا.. واصلوا رحلة الشمس المشرقة، والدين الجديد[٣].

وعن هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يقول القرطبي: «هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق، وجراءته، فإن الشجاعة والجراءة حدُّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من

---

(١) حديث صحيح: أخرجه ابن إسحاق (٢٠٩٥)، وأحمد (١/٢٣٤)، والطبري في «تاريخه» (٣/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤١)، (١٢٤٢)، وأحمد (٦/٢٢٠)، والنسائي (٤/١١)، وابن سعد (٢/ ٢٦٥).

(٣) خلفاء الرسول، لخالد محمد خالد ص (٦٤، ٦٥)، دار الجيل.

موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

قال عمر: فكأني لم أقرأها إلا يومئذ، ورجع عن مقالته التي قالها.

وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبي بكر، وتفوهه بهذه الآية، تنبَّه وتثبت، وقال: كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر، وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم»[1].

❑ الصديق الرجل الشاهق الباهر نسيج وحده في الشجاعة، وموقفه من بعث أسامة

لما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الخلافة، فكان أول أمر أصدره بعد أن تمت له البيعة بالخلافة: «**أنفذوا بعث أسامة**».

«ولكن أسامة رضي الله عنه طلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرجع إلى المدينة؛ ليستأذن أبا بكر في رجوع الناس قائلًا: «**ارجع إلى خليفة رسول الله، فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس وحدَّهم، ولا آمن على خليفة رسول الله، وثقل رسول الله يتخطفهم المشركون**»[2].

وأبلغ ابن الخطاب رضي الله عنه رسالة أسامة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائرة وقال: «**لو خطفتني الكلاب والذئاب، لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ**».

---

(١) تفسير القرطبي (٤/١٤٤).

(٢) حدُّ الناس: أصحاب النجدة والبأس منهم. وحدُّ الرجل: بأسه ونفاذه في نجدته.
التثقل: المتاع، والثقل: الشيء النفيس الخطير. ويريد: أمهات المؤمنين، وآل النبي ﷺ.

كما رفض أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفضًا قاطعًا أن يُؤمر على الجيش غير أسامة قائلًا لعمر بن الخطاب: «**استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟!**»[١].

وقال الناس لأبي بكر: «**إن هؤلاء جند المسلمين، والعرب على ما ترى، فقد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرّق جماعة المسلمين عنك**» فأجابهم أبو بكر: «**والذي نفسي بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذت جيش أسامة؛ كما أمر النبي ﷺ**»[٢].

لقد كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد أن يعلم المسلمين أهمية الطاعة وضرورة التحلي بالضبط المتين، فطبق ذلك على نفسه أولًا ملتزمًا بالطاعة إلى أقصى الحدود حتى يستطيع مطالبة غيره بالطاعة.

وكان بعث أسامة العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية، هي في ذلك الحين خير السياسات.

كان قوام تلك السياسة طاعة ما أمر به رسول اللَّه ﷺ، وكانت الطاعة ـ جد الطاعة ـ مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطإ الأكبر في ذلك الحين.

وحيث يكون التمرد الخطأ الأكبر، فالطاعة ـ بل الطاعة الصارمة ـ هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام.

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين بلا مراء!

كان النفاق يطلع رأسه، وكانت القبائل في البادية تتسابق إلى الردة في أنحاء الجزيرة العربية، وكان جند أسامة يودون لو استبدل به أميرًا غيره، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه، ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه.

طاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يُطاع، وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه، فيقول وقد خوفوه الخطر على المدينة المنورة، وجيش أسامة يفارقها: «والله، لا أحل عقدة عقدها رسول اللَّه ﷺ! ولو أن

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٢).
(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/١٢٧).

الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ لأجهزن جيش أسامة».

لقد رأى أبو بكر رضي الله عنه أن العصمة ـ حق العصمة ـ في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعده، وهو الطاعة في غير تردد، ولا هوادة، ولا إبطاء[1].

إن المسألة حين تُقاس بالرأي المجرد لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبناه عمر وأسامة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

ولكن أبا بكر يستمد منطقه من الاتباع الكامل.. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكمًا، أو أصدر الرسول فيها أمرًا.

ولقد أمر الرسول عليه السلام قُبيل وفاته أن يُنفذ بعث أسامة، فليكن ما أمر الرسول به، مهما تكن مستحدثات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة...!!.

وأبو بكر يُؤثر أن تتخطفه الذئاب على أن يرد للرسول ﷺ قضاء، أو يُعطِّل مشيئة.

إن بين الصديق وبين الله عهدًا وموثقًا يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد، والاتباع في أسمى مراتبه للنبي ﷺ.

وإنه لمصمم على أن يحمل حتى الموت كافة الالتزامات التي يفرضها هذا الاتباع الكامل، ولو تخطفته الذئاب!!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحق وإلى الصواب.

وفي قصة أسامة بالذات تجلى صدق هذا اليقين.

فإصرار أبي بكر على إنقاذ بعث أسامة لم يُفئ عليه مثوبة الطاعة فحسب، بل أفاء عليه الرشد والمنهج الصواب.

فهناك صوب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذِرُّ قرنيْها، ولكن لم تكد القبائل التي مر بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام.. لم تكد تبصر هذا الجيش اللجب

---

(١) بين العقيدة والقيادة، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٢٠٣- ٢٠٦).

حتى عاد إليها صوابها، وقال بعضهم لبعض: «**والله، لو كانت المدينة تئن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا، ما كان بِوُسعها أن تبعث هذا الجيش في هذه الأيام لتقاتل الروم...!!**».

وهكذا كان مجرد تحرك الجيش إلى غايته مثبِّطًا أي مثبط لكثير من القبائل التي كانت فتنة الردة تتسلل إليها..!!

لقد ضرب الصديق أروع مثال للجندية، والطاعة، ونبل القيادة، فشيع جيش أسامة وهو ماشٍ على قدميه، وعبدالرحمن بن عوف ﷺ يقود دابته بجواره، فقال أسامة: «**يا خليفة رسول الله؛ والله لتركبن أو لأنزلن**» فقال: «**والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة**». ثم يقول الفارس ذو المروءة أبو بكر الصديق لجنده وقد وقف فيهم خطيبًا: «**أيها الناس، أوصيكم بعشر، فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا[1]، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا[2]، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرِّقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقوامًا قد فحصوا[3] أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا... اندفعوا باسم الله**».

وقال لأسامة: «اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ: «ابدأ ببلاد قضاعة، ثم ائت آبل[4]»، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله، ولا تعجلن لما خلفت عن

---

(١) غلَّ: خان في المغنم.
(٢) مَثَّلَ بفلان: نَكَّل به بجدع أنفه، أو قطع أنفه، أو غيرها من الأعضاء.
(٣) فحصوا أوساط رءوسهم: كشفوها بحلق شعرها.
(٤) تُسمى آبل الزيت؛ وهي: مدينة بالأردن من مشارف الشام.

عهده»[١].

وسار أسامة في ثلاثة آلاف رجل يقطع البيد في أيام شديدة الحر من شهر حزيران «يونيو»، وبعد مسيرة عشرين يومًا نزل بجيشه، فأغار على «**آبل**» الواقعة شمال «**مؤتة**»، وبث خيوله في قبائل قضاعة وأحلافهم، تلك القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في غزوة «**مؤتة**»، فبث خيوله في تلك القبائل، وقضى على كل مقاومةٍ صادفها هناك، فما رُئي جيش كان أسلم من ذلك الجيش»[٢].

وعاد أسامة إلى المدينة بجيشه الظافر، فتلقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جماعة من الصحابة وتلقاه أهل المدينة، فدخل المدينة والناس حوله يرددون قول النبي ﷺ «**إنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**»[٣].

لقد كان أثر هذه الغزوة عظيمًا في المرتدين وغيرهم، فقد شاع في الجزيرة العربية خبرها، فكانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا، وقالوا فيما بينهم: «**لو لم يكن المسلمون على قوة، لما خرج من عندهم هؤلاء!**».

وكان أثرها في تأديب القبائل العربية القاطنة على الحدود الشمالية لجزيرة العرب واضحًا، فلم يحركوا ساكنًا بعدها أبدًا، حتى جاءتهم جيوش المسلمين في سنة ثلاث عشرة الهجرية، فدخلوا في الإسلام وأصبحوا من حماته.

ولكن أثرها في إبراز الطاعة والحرص على متطلباتها كان عظيمًا جدًّا، فما من جيش يُكتب له النصر، وما من أمة يُكتَب لها النصر، إلا إذا كانت الطاعة الحقة طبيعة من طبائعها وسجية من سجاياها».

وكان المثال الشخصي الذي ضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحرص على الطاعة من أعظم الدروس التي ضربها للمسلمين في بداية حياته العملية في الخلافة.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٣/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٦٨/٤).

(٣) بين العقيدة والقيادة ص (٣٠٦- ٣٠٨).

❏ الردة أعظم فتنة مرت بالمسلمين وتصدى الصديق لها

عن أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «تُوفِّيَ رسول الله ﷺ فنزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال لهاضها[١]، اشرأب[٢] النفاق بالمدينة، وارتدت العرب، فوالله، ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وفنائها في الإسلام»[٣].

❏ أعز اللَّه بالصديق الدين يوم الردة:

لقد كان قلب الصديق في تلك النازلة العظمى التي اهتزت لها الدنيا بأجمعها ـ وهي موت رسول اللَّه ﷺ لو وزِن بقلوب الأمة لرجحها.

وكان عزمه في قتال من ارتد لو فُرِّق على قلوب الجبناء من أهل الأرض لشجعهم إلى أن قام بمهمة قناة الإسلام بعد اعوجاجها، وجرت الملة الشهباء على سننها ومنهاجها.

وأذن مؤذن الإيمان: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وتولى حزب الشيطان وهم خاسرون، فتلك ـ لعمر اللَّه ـ الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تنازلت لها أعالي الهمم، فرضوان اللَّه عليه أبدًا ما شُهِرَ بارق، وقهر مارق، وعلى بقية الصحابة أجمعين»[٤].

ولنبدأ بالقصة من أولها لترى شجاعة الصديق شاخصة أمام عينيك:

عندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق

---

(١) هاضها: الهضُّ، والهضض: كسر دُون الهَدِّ، وفوق الرضِّ، وقيل: هو الكسر عامة، وقيل: الكسر للعظم.

(٢) اشرأب النفاق: أي: ارتفع وعلا، يُقال: اشرأب الرجل إلى الشيء اشرئبابًا: إذا مدَّ عنقه إليه، وارتفع إليه وعلا.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٥٧٤/٨) في «مصنفه»، وأخرجه أبو القاسم البغوي، وأبو بكر الشافعي في «فوائده»، وابن عساكر، كما في «تاريخ الخلفاء»، للسيوطي ص (١٢٠)، وأخرجه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» من طرق، ورجال أحدهما ثقات، كما في «المجمع» (٥٠/٩).

(٤) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، لابن النحاس (٩٦٥/٢، ٩٦٦).

حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو: أي مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذ هناك..؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبسِّط الحقيقة الكبرى في قولته: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر».

أجل، لقد كان «**أبو بكر**» يومئذ نعمة الله ومثوبته للدين، وللناس.

فقد تضرمت الأرض نارًا في الجهات النائية من المدينة والتي كان معظم أهلها حديثي العهد بإسلام، لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المهرة الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء.

لقد انشقت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربصين، وعن أنبياء كذبة قادوا ببراعة الإفك، جميع الذين كانت الغفلة ترشحهم لأن يكونوا ضحايا أكاذيبهم، لا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين في الإسلام من قريب.

وقف طليحة الأسدي يعلن نبوة كاذبة، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد، وغطفان وطيِّئ، وعبس، وذبيان.

ثم اشتعلت نيران الردة في بني عامر، وهوازن وسليم.

ثم شبت في بني تميم، وجاءتهم المرأة «**سجاح**» تزعق فيها بنبوتها الضالة المهرجة..!!

ثم تمرد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعي النبوة جميعًا مُسيْلمة الكذاب.

وهكذا، بعد أن كان أبو بكر يواجه فلولًا صغيرة أصبح أمام جيوش جرارة، قوامها عشرات الألوف من المقاتلين.

وسرت العدوى إلى أهل البحرين، وعُمان، والمهرة، وصار هؤلاء وأولئك يتغنون ببيت من الشعر أطلقه أحد شعرائهم.

أطعنا رسول الله ما دام بيننا ... فيا لِعبادِ الله مَا لأبي بكر؟؟

ولكنْ، لله من خَلْقِه رجال تتحول المحن بين أيديهم إلى مِنَح، والكوارث إلى ربيع تملؤه روح الحياة!! وأبو بكر سيد هؤلاء الرجال..!!

فخلال هذه المحنة الصاهرة التي ألمت بالإسلام، هب الرجل الحكيم القوي من فوره، فرأب الصَّدْع، وحول الصف إلى تماسك واقتدار.

وكانت حظوظ الإسلام وافية، ومقاديره عظيمة إذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية وقائد الأمة.

وبفضل من اللَّه ورحمة تفوق الرجل الكبير، والخليفة المؤمن على أخطار كانت حريَّةً بأن تُداعِي بناء إمبراطورية شامخة راسخة، فما البال ببناء غض جديد؟!

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول اللَّه وأخصبها، وأكثرها بركة عليه، وخيرًا لمصيره.

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكِّرة، وتقيأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة، وأقبلت النار تصهر الأمة الجديدة، وتنفي خبثها بصورة شاملة.

قال أبو هريرة ﷺ: «**لما تُوفي رسول اللَّه ﷺ**، وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه**[١]، **وحسابه على الله**».

فقال أبو بكر: واللَّه لأقاتلن من فرق[٢] بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللَّه لو منعوني عناقًا[٣] كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعها.

---

(١) أي بحق الإسلام.

(٢) المراد بقوله: فرَّق: من أقرَّ بالصلاة، وأنكر الزكاة جاحدًا أو مانعًا مع الاعتراف، وإنما أطلق في أول القصة الكفر؛ ليشمل الصنفين، فهو في حق من جحد حقيقة، وفي حق الآخرين تغليبًا، وإنما قاتلهم الصديق، ولم يعذرهم بالجهل؛ لأنهم نصبوا القتال، فجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع، فلما أصروا قاتلهم، انظر: «فتح الباري» (١٢/٢٧٧).

(٣) العناق: الأنثى من ولد المعز.

وفي رواية أخرى: والله لو منعوني عقالًا[١] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر، فعرفتُ أنه الحق[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**لما كانت الردة، قال عمر لأبي بكر: أتقاتلهم، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا؟!!**

فقال أبو بكر: والله، لا أفرِّق بين الصلاة والزكاة، ولأقاتلن من فرَّق بينهما.

قال عمر: فقاتلنا معه، فرأينا ذلك رشدًا[٣].

ولله در أبي بكر ما أشد غيرته على الإسلام حين يقول كلمة نورانية فاض بها لسانه، ونطق بها جنانه؛ وكأنما تحدثت السكينة على لسانه، كلمة تساوي خطبة بليغة طويلة، وكتابًا حافلًا: «**قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟!**»[٤].

وفي رواية قال عمر: فقلت: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم، فقال لي: أجبار في الجاهلية خوَّار في الإسلام، قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟![٥].

كان موقف أبي بكر رضي الله عنه الذي لا هوادة فيه، ولا مساومة فيه، ولا تنازل، موقفًا ملهمًا من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر - بعد الله - تَعَالَى - في سلامة هذا الدين، وبقائه على نقائه، وصفائه، وأصالته، وقد أقرَّ الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد

---

(١) العقال: هو الحبل الذي يعقل به البعير.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٢٤، ٦٩٢٥)، ومسلم (٢٠)، وأحمد (١/١٩، ٤٨) (٢/٤٢٣)، وعبدالرزاق في «مصنفه» (١٨٧١٨)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٧٣٤)، والنسائي (٧/٧٦، ٧٨، ٧٩)، وابن حبان (٢١٧)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٤/١٠٤).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه النسائي (٧/٧٧)، وأحمد (١/١١)، (٢/٤٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/٥٧٨).

(٤) المرتضى سيرة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن الندوي ص (٧٠)، دار القلم.

(٥) مشكاة المصابيح، كتاب المناقب رقم (٦٠٣٤). رواه رزين، وسكت عنه الألباني.

وقف في مواجهة الردة الطاغية، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة موقفًا اقتدى فيه بالأنبياء والرسل في عصورهم، وهذه خلافة النبوة التي أدى أبو بكر رضي الله عنه حقها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث اللّٰه الأرض وأهلها.

عن أبي رجاء العطاردي قال: «دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلًا يقبل رأس رجل وهو يقول: أنا فداؤك! لولا أنت لهلكنا. فقلتُ: من المقبِّل ومَن المقبَّل؟ قالوا: عمر يقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوْا بها صاغرين»[١].

الصديق القائد

لو لم يكن للصديق قدر كبير من الكفاءة القيادية، لكان له في ملازمة الرسول ﷺ خير مدرسة لتعلم مبادئ الحرب وفنونها، فلقد كانت حياة الرسول القائد جهادًا متصلًا، وصراعًا متلاحقًا، ومعارك وغزوات متتالية. وكانت مدرسة الحرب هذه حافلة في كل يوم بالدروس القيمة والتجارب القتالية الثمينة، فكيف وقد توافرت للصديق كفاءة عالية في مجال السياسة الاستراتيجية وإدارة الحرب كما سنبين.

❑ خطة الصديق لحماية المدينة:

جاءت وفود بعض القبائل التي امتنعت عن دفع الزكاة للصديق محاولة إقناعه بالتنازل عن أخذ الزكاة، وأصرَّ الصديق على موقفه، وقرأ الصديق في وجوه القوم الغدر، ورأى فيها الخسة، وتفرس فيها اللؤم، فقال لأصحابه: «إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلًا تؤتون أم نهارًا؟! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبيْنا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا»[٢].

---

(١) المرتضى لأبي الحسن الندوي ص (٧٢).
(٢) تاريخ الطبري (٤/٦٤).

ووضع الصديق رضي الله عنه خطته على النحو التالي:

١ـ ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

٢ـ نظم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ويبيتون حولها حتى يدفعوا أي غارة قادمة.

٣ـ عين على الحرس أمراءهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وعبد اللَّه بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ـ[١].

٤ـ بعث أبو بكر رضي الله عنه إلى من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام، من أسلم وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة، وكعب؛ يأمرهم بجهاد أهل الردة، فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة المنورة بهم، وكانت معهم الخيل والجمال التي وضعوها تحت تصرف الصديق، ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائل وكبر حجم دعمها للصديق: أن جهينة وحدها قدمت إلى الصديق في أربع مئة من رجالها ومعهم الظهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهني مئة بعير لإعانة المسلمين، فوزعها أبو بكر في الناس[٢].

٥ـ ومن ابتعد من المرتدين عن المدينة، وأبطأ خطره، حاربه بالكتب يبعث بها إلى الولاة المسلمين في أقاليمهم؛ كما كان رسول اللَّه ﷺ يفعل، يحرضهم على النهوض لقتال المرتدين؛ ومن ذلك رسالته لأهل اليمن حيث المرتدة من جنود الأسود العنسي التي قال فيها: «أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدوا معه، فإني قد وليته».

٦ـ وأما من قرب منهم من المدينة واشتد خطره؛ كبني عبس وذبيان، فإنه لم ير بدًّا

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٤).

(٢) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، للدكتور مهدي رزق الله ص (٢١).

من محاربتهم على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها مدينة رسول الله ﷺ، فكان أن آوى الذراري والعيال إلى الحصون والشعاب محافظة عليهم من غدر المرتدين، واستعد للنزال بنفسه ورجاله(١).

❏ فشل أهل الردة في غزو المدينة:

بعد ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدين طرقت بعض قبائل أسد، وغطفان، وعبس، وذبيان، وبكر المدينة ليلًا، وخلفوا بعضهم بذي حُسَي؛ ليكونوا لهم ردءًا، وانتبه حرس الأنقاب لذلك، وأرسلوا للصديق بالخبر، فأرسل إليهم أن الزموا أماكنكم، ففعلوا، وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو، فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حُسَي، فخرج عليهم الردء بأنحاء(٢) قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها(٣) بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهده كل نحْي في طوله(٤)، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها - ولا تنفر الإبل في شيء نفارها من الأنحاء -، فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة، فلم يُصرع مسلم، ولم يَصب(٥)، فظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي العقبة بالخبر، فقدموا عليهم اعتمادًا في الذين أخبروهم، وهم لا يشعرون لأمر الله ﷻ الذي أراده وأحب أن يبلغه فيهم.

روى الطبري في تاريخه (٣/٢٤٥- ٢٤٨): «بات أبو بكر ليلته يتهيأ، فعبَّ الناس، ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبدالله بن مقرن، وعلى الساقة(٦) سويد بن مقرن معه الرُّكاب، فما

(١) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، للدكتور علي محمد محمد الصلابي ص (٢١٦)، مكتبة الصحابة.

(٢) الأنحاء: هي القِرَب.

(٣) أي دفعوها.

(٤) أي في حبله.

(٥) تاريخ الطبري (٤/٦٥).

(٦) أي المؤخرة.

طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همسًا ولا حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل حبال - أخو طليحة الأسدي -، وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي قصة، وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، فذل بها المشركون، ورجع أبو بكر المدينة، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعز المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة».

وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غداة سعى أبو بكر إليهم ... كما يسعى لموتته جلالُ
أراح على نواهقها عليا ... ومج لهن مهجته حبال

وصمم الصديق على أن ينتقم للشهداء، وأن يؤدب هؤلاء الحاقدين، ونفذ قسمه، وازداد المسلمون في بقية القبائل ثباتًا على دينهم، وازداد المشركون ذلًّا وضعفًا، وهوانًا، وبدأ صدقات القبائل تفد على المدينة، فطرقت المدينة صدقات نفر: صفوان، ثم الزبرقان، ثم عدي، صفوان في أول الليل، والثاني وسطه، والثالث في آخره، وفي ليلة واحدة أثرت المدينة بأموال زكاة ستة أحياء من العرب، وكان كلما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: نذير، فيقول أبو بكر: بل بشير، وإذا بالقادم يحمل معه صدقات قومه، فيقول الناس لأبي بكر: طالما بشرتنا بالخير[(١)].

وفي هذه الأثناء عاد أسامة بن زيد بجيشه، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري (٦٧/٤).
(٢) تاريخ الطبري (٣٧/٤).

خروج الصديق إلى أهل الرَّبذة بالأبرق:

خرج الصديق في الذين خرجوا إلى ذي القصة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون: ننشدك اللَّه يا خليفة رسول الله، ألا تُعرِّض نفسك! فإنك إن تُعَب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد من العدو، فابعث رجلًا، فإن أصيب أمَّرت آخر.

فقال: لا والله، لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي[1]. وظهر معدن الصديق النفيس.. القائد الذي يفتدي قومه بنفسه، لقد خرج الصديق على تعبيته إلى ذي حُسَى وذي القصة، والنعمان، وعبدالله، وسويد على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق، فهزم اللَّه الحارث وعوفًا، وأُخذ الحطيئة أسيرًا، فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أيامًا، وقد غلب بني ذبيان على البلاد، وقال: حرام على ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنَّمناها اللَّه وأجلاها. فلما غُلب أهل الردة ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه، وسامح الناس جاءت بنو ثعلبة، وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنعوا منها، فأتوه في المدينة، فقالوا: علام نُمنعُ من نزول بلادنا! فقال: كذبتم، ليست لكم ببلاد، ولكنها مَوْهبي ونَقَذي[2]. ولم يُعتبهم[3]، وحمى الأبرق لخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الربذة الناس على بني ثعلبة، ثم حماها كلها لصدقات المسلمين؛ لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات، وقال في يوم الأبرق زياد ابن حنظلة:

ويوم بالأبارق قد شهدنا ... على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية نَسُوفٍ[4] ... مع الصديق إذ ترك العتابا[5]

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٧).

(٢) النقذ: ما استُنقِذ من الأعداء.

(٣) أي: لم يُقِل عثرتهم.

(٤) أي: شاقة.

(٥) تاريخ الطبري (٤/٦٧)، إذ ترك العتابا؛ أي: ترك إقالة العثرات.

فخروج الصديق رضي الله عنه للجهاد ثلاث مرات متتالية ـ وهو الشيخ الذي بلغ الستين من عمره ـ يدل على فدائية الصديق وفروسيته.

قال ضرار بن الأزور وهو من هو حينما أخبر أبا بكر الصديق بخبر تجمع طليحة الأسدي، قال: فما رأيت أحدًا ـ ليس رسول اللَّه ـ أملأ بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره بما له، ولا عليه[١].

وهذا وصف بليغ لما كان يتصف به أبو بكر من اليقين الراسخ، والثقة التامة بوعد اللَّه ـ تَعَالَى ـ لأوليائه بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض، فأبو بكر لم يَفُقِ الصحابة بكبير عمل، وإنما فاقهم بحيازة الدرجات العلى من اليقين.

❑ الصديق القائد

إن الأسطر القليلة التي كتبناها ونقلناها عن المصادر التاريخية عن معركة ذي حُسَى وذي قصة التي قادها الصديق بنفسه لَتَدُلُّ أعظم دلالة على ما توافر للصديق من كفاءة في قيادة العمليات، ومن قدرة لتطبيق مبادئ الحرب بصورة رائعة؛ فقد جمع الصديق المعلومات الكافية عن تحرك المرتدين، وحدد حجم قواتهم بدقة، كما أنه حدد مواقع تمركزهم في ذي حُسَى وذي قصة، وقامت قوات المسلمين بما يشبه الغارة الاستطلاعية، واستخدم الصديق ستار ظلمة الليل بعد اتخاذ تدابير الحيطة والأمن للتحرك، لقد استخدم الصديق مبدأ «**المبادأة**» ولم يتركه في قبضة أعدائه، فأسرع للقائهم، وفرض عليهم المواقف التي يريدها، فدمر تجمعهم، ثم طاردهم إلى ذي قصة، ومزق جمعهم فيها. فقد صمم الصديق على حرمان أعدائه باستمرار من المبادأة، فوجه جيوش الردة في كل اتجاه، وفرض على أعدائه المواقف التي يريدها، وحرمهم من حرية العمل العسكري، وعندما انتهت حروب الردة، أسرع إلى توجيه الجيوش لحرب الشام والعراق، فكان ذلك تطويرًا للمبادأة، وعندما حاول الفرس

---

(١) التاريخ الإسلامي، للحُميدي (٩/٤٨).

والروم استعادة المبادأة بخلق مواقف متطورة سواء عن طريق تجميع جيوشهم، أو عن طريق محاولة تدمير كل جيش بمعزل عن جيوش المسلمين الأخرى، تصدى لمعالجة الموقف بتطوير المبادأة، واتخاذ الإجراءات التي تحفظ لقادة جيوش المسلمين حرية عملهم على ميادين القتال.

ولم يكن حرص الصديق على «**تحقيق المباغتة**» أقل من حرصه على المبادأة ـ كما سنبين ـ في حروب الشام والعراق بطريقة أذهلت قادة الفرس والروم على حد سواء.

❑ إرسال الجيوش لقتال المرتدين في كل أنحاء جزيرة العرب:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبي شاهرًا سيفه راكبًا راحلته إلى وادي ذي القصة، فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بزمام راحلته، فقال: «**إلى أين يا خليفة رسول الله** ﷺ؟! أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد[1]: شم[2] سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة؛ فوالله، لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا فرجع»[3].

قسم الصديق الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء أميرًا، وأمر كل أمير جند باستنفار من مر به من المسلمين التابعين من أهل القرى التي يمر بها، وهم:

١ـ جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني أسد، ثم إلى تميم، ثم إلى اليمامة.

٢ـ جيش عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه إلى مسيلمة في بني حنيفة، ثم إلى عمان والمهرة، فحضرموت، فاليمن.

٣ـ جيش شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه إلى اليمامة في إثر عكرمة، ثم حضرموت.

٤ـ جيش طريفة بن حاجز رضي الله عنه إلى بني سليم من هوازن.

---

(١) لما أراد أن يبارز ابنه عبدالرحمن، فقال له: «شم سيفك، وارجع إلى مكانك».

(٢) شم سيفك: أغمده، ويقال: سله، وهو من الأضداد.

(٣) الكامل، لابن الأثير (٢/١٣٠)، والبداية والنهاية (٦/٣١٩).

٥- جيش عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى قضاعة.

٦- جيش خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه إلى مشارق الشام.

٧- جيش العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه إلى البحرين.

٨- جيش حذيفة بن محصن الغلفاني رضي الله عنه إلى عمان.

٩- جيش عرفجة بن هرثمة رضي الله عنه إلى مهرة.

١٠- جيش المهاجر بن أبي أمية رضي الله عنه إلى اليمن «**صنعاء ثم حضرموت**».

١١- جيش سويد بن مقرن رضي الله عنه إلى تهامة اليمن[١].

وقد اتُخذت قرية «**ذي القصة**» مركز انطلاق، وقاعدة تحرك للجيوش المنظمة التي ستقوم بالتحرك إلى مواطن الردة للقضاء عليها. وتنبئ خطة الصديق رضي الله عنه عن عبقرية فذة، وخبرة جغرافية دقيقة، ومن خلال تقسيم الألوية، وتحديد المواقع يتضح: أن الصديق رضي الله عنه كان جغرافيًا دقيقًا خبيرًا بالتضاريس والتجمعات البشرية، وخطوط مواصلات جزيرة العرب، فكأن الجزيرة صورت نصب عينيه في غرفة عمليات مجهزة، فمن يتمعن تسيير الجيوش ووجه كل منها، واجتماعها بعد تفرقها، وتفرقها لتجتمع ثانية، يرى تغطية سليمة رائعة صحيحة مثالية لجميع أرجاء الجزيرة، مع دقة في الاتصالات مع هذه الجيوش، فأبو بكر في كل ساعة يعلم أين مواقع الجيوش، ويعلم دقائق أمورها وتحركاتها، وما حققت، وما عليها في غد من واجبات، والمراسلات دقيقة وسريعة، تنقل أخبار الجبهات إلى مقر القيادة في المدينة حيث الصديق، وكان على صلة مستمرة مع جيوشه كلها، وبرز من المراسلين العسكريين ما بين الجبهات وبين مقر القيادة: أبو خيثمة النجاري الأنصاري، وسلمة بن سلامة، وأبو برزة الأسلمي، وسلمة بن وقش[٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٨).

(٢) في التاريخ الإسلامي، لشوقي أبو خليل ص (٢٢٦، ٢٢٧).

ولقد جمعت تلك الجيوش بين مهارة القيادة، وبراعة التنظيم، فضلًا عن الخبرة في القتال، ولقد رأى الصديق بثاقب فكره وعسكريته أن المرتدين لا زالوا متفرقين كلٌّ في بلده، ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان:

أولًا: لأن الوقت لم يكن كافيًا للقيام بعمل كهذا؛ حيث لم يمض على ارتدادهم إلا ما يقرب من ثلاثة شهور.

وثانيًا: لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعًا في شهور معدودة؛ ولذلك أراد الصديق أن يعاجلهم بضربات مفاجئة أخذًا بالمبادأة وتطبيقًا للمباغتة تقضي على شوكتهم وقوتهم قبل أن يجتمعوا في نصرة باطلهم، فعاجلهم قبل استفحال فتنتهم.

وكتب الصديق كتابًا واحدًا إلى قبائل العرب من المرتدين، فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام وتطبيقه كاملًا كما جاء من عند اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وحذرهم سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ما هم عليه في الدنيا والآخرة، وكان قويًّا في إنذارهم، وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم.

وكتب إلى قواده وجيوشه وللمرتدين: إني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له، وأقر، وكف، وعمل صالحًا قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذرارى، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن تبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم...»[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٩، ٧٠، ٧١).

❑ الْحَطَّةُ الْمُخْزِيَةُ أَوِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ

لقد قابل الصديق فتنة الردة بأحزم ما تُقَابَلُ به من بدايتها إلى منتهاها، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها؛ فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى، وتعقبها بالحزم يومًا بعد يوم حتى أسلمت مقادها وتابت إلى قرارها.

ولقد ثبت الصديق ثباتًا عجيبًا أمام تيار المرتدين الجارف، وَقَاوَمَ بصبر وتصميم كلَّ فكرة تدعو لمهادنتهم، وما رضي من المرتدين إلا بالحطة المخزية أو الحرب المجلية[١].

عن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال: «لما قدم وفدُ بزاخة وأسد وغطفان على أبي بكر بعد رسول اللَّه ﷺ يسألونه الصلح - وفي رواية: جاء أهل الردة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح -، خيرهم أبو بكر بين حرب مجلية[٢] أو حطة مخزية[٣]؛ فقالوا: يا خليفة رسول الله، أما الحرب فقد عرفناها، فما الحطة المخزية؟

قال: تؤخذ منكم الحلقة[٤] والكراع[٥]، وتتركون أقوامًا تتبعون أذناب الإبل[٦]، حتى يُرِيَ اللَّه خليفة نبيه ﷺ والمؤمنين أمرًا يعذرونكم به، وتؤدون ما أصبتم منا، ولا نؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة، وأن قتلاكم في النار، وتدون قتلانا، ولاندي قتلاكم[٧].

فقال عمر: أما قولك «**تدون قتلانا**» فإن قتلانا قُتلوا على أمر الله؛ لا ديَّات لهم[٨].

---

(١) عبقرية الصديق (١٤٩).
(٢) حرب مجلية؛ أي: حرب مُخرجة عن الدار والمال. فالجلاء: الخروج عن البلد.
(٣) حطة مخزية: الحطة: الوضع والإنزال. والمخزية: المُذِلَّة، والمراد: أو سلم يُخزيكم، ويذلكم.
(٤) الحلقة: اسم لجملة السلاح والدروع، وغُلب هذا النوع من السلاح على الدروع.
(٥) الكراع: اسم يجمع الخيل.
(٦) وفي رواية: البقر. وفيه إنزال الذلة بهم.
(٧) يعني: تدفعون إلينا دية قتلانا، ولا ندفع إليكم دية قتلاكم.
(٨) أي: حسابهم على الله ﷻ؛ ليوفي لهم الأجر في الآخرة.

فَاتَّبَعَ عمر، وقال عمر في الباقي: نِعْمَ ما رأيت.

وفي رواية: فقال عمر: يا خليفة رسول الله، القول كما قلت، غير أن قتلانا قُتِلوا في سبيل الله؛ لا دية لهم[1].

لقد تمزق المرتدون، وَتَمَّ القضاء على فتنة طليحة الأسدي والأسود العنسي، وقُتِلَ مسيلمة الكذاب.

تمزق المرتدون بددًا؛ كبقايا زوبعة ضالة، وَوَلَّوْا أمام الحق نائحين بشعر:

ألا فاسقياني قبل خيل أبي بكر لعلَّ منايانا قريبٌ ولا ندري

«خيل أبي بكر»؟!! لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول في أسماع الذين أرادوا أن يخضعوا الحق للباطل[2].

ولم تَحِلَّ سنة اثنتي عشرة الهجرية (٦٣٣م) أي بعد عام من وفاة النبي ﷺ إلا وكانت طلائع الجيوش الإسلامية تُهَدِّدُ ملك كسرى في العراق وملك قيصر في أرض الشام، وتهاجم الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في عقر داريهما.

لم يَمُتِ الصديق إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين وتُنْزِلُ بهما أفظع الهزائم، وأنجز الصديق القائد ما ظنه الناس خيالًا لا يُنْجَز.

❑ الصِّدِّيقُ وَالْقَضَاءُ عَلَى «حَرَكَةِ الْبَغَايَا»

لما مات رسول اللَّه ﷺ، قامت بعض بنات اليمن من يهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ في حضرموت، وَطِرْنَ فرحًا بموت رسول اللَّه ﷺ؛ فأقمن الليالي الحمراء مع المجان والْفُسَّاقِ، يشجعن على الرذيلة، ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطانُ فيها معهن وأتباعُهُ طربًا؛ لنكوص الناس عن الإسلام والدعوة إلى التمرد عليه وحرب أهله.

لقد حَنَّتْ تلك البغايا إلى الجاهلية وما فيها من المنكرات، وانجذبن إليها انجذاب

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٩٧٤)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣٢/٣)، وابن كثير في «البداية» (٣٥٩/٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥٧٤/٨).

(٢) خلفاء الرسول، لخالد محمد خالد ص (٧٨- ٨٠)، دار الجيل.

الذباب إلى أكوام من الأقذار؛ فما إن سمعن بموت النبي ﷺ حتى أظهرن الشماتة؛ فخضبن أيديهن بالحناء وقمن يضربن بالدفوف، وكان معظمهن من عِلْيَةِ القوم هناك، ولقد عُرِفَتْ هذه الحركة في التاريخ (بحركة البغايا) وكن نَيِّفًا وعشرين بغيًّا متفرقات في قرى حضرموت، وأشهرهن «**هر بنت يامن**» اليهودية التي ضُرِبَ المثلُ بها في الزنا؛ فقيل: أزنى من هر.

ويذكر التاريخُ أن الْفُسَّاقَ كانوا يتناوبونها لهذا الغرض في الجاهلية، ولكن هؤلاء السواقط لم يُتْرَكْنَ وشأنهن يُفْسِدْنَ المجتمع كما يَحْلُو لهن؛ فقد وصل الخبر إلى الصديق؛ حيث أرسل رجل من أهل اليمن إليه هذه الأبيات:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا ما جئته ... أن البغايا رُمْنَ أي مرامِ

أظهرن من موت النبي شماتةً ... وخضبن أيديهن بالعُلَّام[١]

فاقطع هُدِيتَ كُفهن بصارمٍ ... كالبرق أمضى من متون غمام[٢]

فكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عامله المهاجر بن أبي أمية كتابًا كله الحزم والصرامة، جاء فيه: «فإذا جاءك كتابي هذا فسر إليهن بخيلك وَرَجِلِكَ حتى تقطع أيديهن، فإن دَفَعَكَ عنهن دافعٌ فأعذر إليه باتخاذ الحجة عليه وأعلمه عظيم ما دخل فيها من الإثم والعدوان، فإن رجع فاقبل منه، وإن أتى فَنَابِذْهُ على سواء، إن اللَّه لا يهدي كيد الخائنين»، فلما قرأ المهاجر الكتاب جمع خيله وَرَجْلَهُ وسار إليهن؛ فَحَالَ بينه وبينهن رجالٌ من كندة وحضرموت، فأعذر إليهم فَأَبَوْا إلا قتاله، ثم رجع عنه عامتهم فقاتلهم فهزمهم، وأخذ النسوة فقطع أيديهن، فمات عامتهن، وهاجر بعضهن إلى الكوفة. لقد نِلْنَ جزاءهن في محكمة الإسلام العادلة؛ إذ أخذهن عامل أبي بكر على تلك البلاد وطبق عليهن حد الحرابة[٣].

---

(١) العلَّام: الحناء.

(٢) عيون الأخبار، للدينوري (٣/١٣٣).

(٣) انظر: حركة الردة، للدكتور على العتوم ص (١٨٤)، مكتبة الرسالة الحديثة بعمان، والانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ص (٢٤٥، ٢٤٦).

الصديق وإدارة حرب العراق

ما إن أصبحت للمسلمين قاعدتهم الصلبة بالقضاء على المرتدين حتى شرع لفتح العراق، وأقبل إليه المثنى بن حارثة الشيباني، وقال له: «**أمِّرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي**»، ففعل ذلك، فأقبل فجمع قومه، وأخذ يغير بناحية كسكر مرة، وفي أسفل الفرات مرة، حتى إذا ما فرغ خالد بن الوليد من حرب اليمامة، وصلته رسالة من الخليفة: «**سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم**»[1].

وسار المثنى حتى لقي خالدًا وبقية الأمراء: مذعور، وسلمى، وحرملة، وصارت عدة الجيش الإسلامي ثمانية عشر ألفًا.

وكتب الصديق إلى عياض بن غنم: «سر حتى تأتي المصيخ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالدًا، وأذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره، ولما استمده خالد وعياض كتب إليهما: «استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول اللَّه ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي».

وكتب الخليفة إلى قائديه خالد بن الوليد وعياض بن غنم: «**على خالد بن الوليد أن يدخل العراق من أسفلها، وعلى عياض بن غنم أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه**». وقال لهما: إذا اجتمعتما بالحيرة، وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يُؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءًا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو اللَّه وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن».

ولم تمض سنة على بداية التحرك ناحية العراق حتى أصبح خالد مسيطرًا على البلاد من شمالها إلى جنوبها يصعد فيها ويصوب حتى قال الصديق: «**يا معشر**

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٤٣-٣٤٦).

قريش! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[١]، أعجزت النساء أن ينسلن ـ أو ينشئن ـ مثل خالد».

ولما أتت السنة الثانية عشرة للهجرة، صمم خالد على أداء فريضة الحج، فخرج حاجًّا من الفراض لخمس بقين من ذي القعدة، متكتمًا حجه، ومعه عدة من أصحابه، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال، إذ سلك طريقًا من طرق أهل الجزيرة، لم ير طريق أعجب منه، ولا أشد على صعوبته منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة، فما وصل إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع قائد الساقة ـ المؤخرة ـ الذي عينه قبل ذهابه للحج، فدخل خالد معه إلى الحيرة، وعلم الصديق بذلك، ولم يعلم الجيش فكتب إليه: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللّٰه شجاك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم اللّٰه لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن اللّٰه له المنُّ، وهو ولي الجزاء».

وأمره أن يستخلف المثنى بن حارثة الشيباني على حرب العراق في نصف الناس، وأسرع خالد لتنفيذ ما أمر به، وتوجه إلى الشام ومعه عشرة آلاف مجاهد في سبيل الله.

❊ ❊ ❊

---

(١) الخراذيل: جمع، ومفردها: خرذولة؛ وهي: «قطعة اللحم».

وقفات مع فتوحات العراق ومعاركه

❏ الحس العسكري العالي عند الصديق الغالي:

لقد شهد ببراعة أبي بكر في التخطيط الحربي أخْبَرُ الناس بالحروب آنذاك وهو خالد بن الوليد، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض في فتح شمال العراق، ونزل بكربلاء واشتكى إليه المسلمون ما وقعوا فيه من التأذي بذبابها الكثيف، قال لعبدالله بن وثيمة: اصبر فإني إنما أريد أن استفرغ المسالح التي أمر بها عياض، فنُسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يُؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة وغير متعتعة، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة»[١].

وكانت خطة الصديق رضي الله عنه عدم الإيغال في بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، وقد سار على هذه الخطة قادة الجيش في العراق، فقال المثنى بن حارثة القائد الفذ: «قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم، يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم»[٢].

ومما يدل على ذلك ـ أيضًا ـ تحديد الصديق الحيرة كموقع استراتيجي لأهميتها العسكرية، وهي عقد مواصلات تتصل بها الطرق من جميع الاتجاهات، فقد كانت الحيرة قلب العراق، وأقرب منطقة مهمة إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية.

إن تخطيط الصديق للوصول إلى الحيرة في الفتوحات يُعرف في الخطط العسكرية للجيوش الحديثة بحركة فكي الكماشة، أو عملية الالتفاف الدائري بأكثر من جيش، ويظهر هذا عظمة التخطيط الجهادي، وعلوه عند الصديق.

ولله در الصديق وهو يحتاط الجهاد، فيقول: «**لا يغزون معكم أحد ارتدَّ حتى أرى**

---

(١) تاريخ الطبري (١٨٩/٤).

(٢) الإصابة، لابن حجر (٥٦٨/٥) رقم (١٧٧٣٦).

رأيي، فلم يشهد الأيام مرتد»[١].

ومن الفراسة، والحس العسكري، وعلم الصديق بطاقات وكفاءات الأبطال: أن الصديق أمد خالد بالقعقاع بن عمرو التميمي، فقيل له: أتمد رجلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجل؟

فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[٢].

❑ فتوحات وانتصارات على جبهة العراق في أيام الصديق القائد:

انتصر المسلمون تحت قيادة الصديق وبتوجيهاته بقيادة خالد بن الوليد في معركة ذات السلاسل، وفي معركة المذار «**الثَّنى**»، ومعركة الولجة، ومعركة أليس، وفُتحت إمغيشيا، ثم كان الفتح الأكبر «**فتح الحيرة**»؛ حيث اتخذت قاعدة للجيوش الإسلامية، وفتحت الأنبار في معركة ذات العيون، ثم الانتصار على نصارى العرب بقيادة عقَّة بن أبي عقَّة، والفرس في معركة عين التمر، ثم دومة الجندل، ثم وقعة الحصيد، ووقعة المصيَّخ، ثم المعركة الكبرى وهي معرك الفراض بين الروم وفارس، ونصارى العرب وبين المسلمين، وهذه المعركة تعتبر من المعارك التاريخية الفاصلة، ولها الأثر العظيم في تحطيم معنويات الفرس، والروم، ونصارى العرب، ثم نصر المثنى على قوات فارس بقيادة «**هرمز جاذوية**» عند عدوة الصراة الأولى، وقُتل الفرس قتلًا ذريعًا، وغنم المسلمون منهم مالًا عظيمًا، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة، ووجدوا الملك قد مات[٣]، وعاد الاضطراب إلى بلاد فارس، وطارد المثنى أعداء اللَّه حتى بلغ أبواب المدائن، ثم كتب للصديق بانتصاره على الفرس.

---

(١) تاريخ الطبري (١٦٣/٤).

(٢) تاريخ الطبري (١٦٣/٤).

(٣) البداية والنهاية (١٨/٧).

❑ جهاد حتى الممات، وأوامر عسكرية على فراش الموت:

استأذن المثنى الصديق في الاستعانة بمن تابوا من أهل الردة، لكن انتظاره لطال؛ لتشاغل الخليفة بحرب الشام، فسار المثنى بنفسه إلا الصديق، واستناب على العراق بشير بن الخصاصية، وعلى المسالح سعيد بن مرة العِجلي، فلما وصل إلى المدينة وجد الصديق على فراش الموت، واستقبله أبو بكر واستمع إليه، فأرسل الصديق إلى عمر بن الخطاب ـ، وكان قد استخلف عمرا ـ، وعندما جاء عمر قال له:

«اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يُصَبِ الخلق بمثله، وبالله، لو أني قصرت عن أمر رسوله؛ لخذلنا ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة نارًا، وإن فتح الله على أمراء الشام، فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله، وولاة أمره وجده، وأهل الضراوة والجراءة عليهم»[1].

ومات الصديق مع الليل، فدفنه عمر ليلًا، وندب الناس مع المثنى بعدما سُوي على أبي بكر رضي الله عنه.

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/٤١٤).

فتوحات الشام زمن الصديق

كان الصديق يفكر في فتح الشام، ويجيل النظر يقلبه في ذلك، وأتاه شرحبيل بن حسنة أحد قواد المسلمين في حروب الردة، فقال: يا خليفة رسول الله، أتحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جندًا؟ فقال: نعم، قد حدَّثت نفسي بذلك، وما أطلعت عليه أحدًا، وما سألتني عنه إلا لشيء، قال: أجل، إني رأيت يا خليفة رسول اللَّه فيما يرى النائم؛ كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشفة[1] من الجبل حتى صعدت قُنَّة من القنات العالية، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك، ثم إنك هبطت من تلك القنات إلى أرض سهلة دمثة[2] فيها الزرع، والقرى، والحصون، فقلت للمسلمين: شنوا الغارة على أعداء الله، وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة، وأنا فيهم معي راية، فتوجهت بها إلى أهل قرية، فسألوني الأمان فأمنتهم، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم، ففتح اللَّه لك، وألقوا إليك السَّلَم، ووضع اللَّه لك مجلسًا، فجلست عليه، ثم قيل لك: يفتح اللَّه عليك، وتُنصر، فاشكر ربك واعمل بطاعته، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر كاملة]، ثم انتبهت. فقال له أبو بكر: نامت عينك، خيرًا رأيت وخيرًا يكون إن شاء الله. ثم قال: بشَّرت بالفتح، ونعيت إليَّ نفسي، ثم دمعت عينا أبا بكر، وقال: أما الخرشفة التي رأيتنا فيها حتى صعدنا إلى القنة العالية فأشرفنا على الناس؛ فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه، ثم نعلو بَعْدُ ويعلو أمرنا، وأما نزولنا من القنة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة، والزرع، والعيون، والقرى، والحصون؛ فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش، وأما قولي للمسلمين: شنُّوا على أعداء الله

(١) يعني: مسلكًا وعرًا.

(٢) دمثة: لينة.

الغارة، فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة؛ فإن ذلك دنو المسلمين إلى بلاد المشركين، وترغيبي إياهم على الجهاد، والأجر، والغنيمة التي تُقسَّم لهم وقبولهم، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمنتهم؛ فإنك تكون أحد أمراء المسلمين، ويفتح اللَّه على يديك، وأما الحصن الذي فتح اللَّه لك؛ فهو ذلك الوجه الذي يفتح اللَّه لي، وأما العرش الذي رأيتني عليه جالسًا؛ فإن اللَّه يرفعني ويضع المشركين، قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وأما الذي أمرني بطاعة الله، وقرأ عليَّ السورة؛ فإنه نعى إلى نفسي، وذلك أن النبي ﷺ نعى اللَّه إليه نفسه حين نزلت هذه السورة، وعلم أن نفسه قد نُعيت إليه، ثم سالت عيناه، وقال: لآمرن بالمعروف ولأنهين عن المنكر، ولأجهدن فيمن ترك أمر الله، ولأجهزن الجنود إلى العادلين بالله[1] في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا: اللَّه أحد، أحد لا شريك له، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، هذا أمر اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، فإذا توفاني اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لا يجدني اللَّه عاجزًا، ولا وانيًا، ولا في ثواب المجاهدين زاهدًا»[2].

❏ الصديق وترغيبه في جهاد الروم:

لما أراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر، وعثمان، وعليًا، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه، فقال: «إن اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ لا تُحصى نعمه، ولا تبلغ الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيرًا على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يُطْمَعُ أن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلهًا غيره، فالعرب أمة واحدة، بنو أب وأم، وقد أردت أن استنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك

(١) يعني: المشركين به.
(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢/٦١، ٦٢).

شهيدًا، وما عند اللَّه خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين، مستوجبًا على اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ثواب المجاهدين»[١].

ووجد الصديق في إخوانه ما يتمناه: الدعم المطلق، والتأييد الكامل، ووقف الخليفة يخاطب المسلمين في المسجد: «يا أيها الناس، إن اللَّه قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد اللَّه إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، لتحسن نيتكم، فإن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»[٢].

❑ استنفار الصديق لأهل اليمن:

وكتب الصديق إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم: من خليفة رسول اللَّه إلى من قُرِئ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن: سلام عليكم. فإني أحمد اللَّه إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالًا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة، والثواب عند اللَّه عظيم، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت بذلك نيتهم، وعظمت حسنتهم، فسارعوا عباد اللَّه إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه؛ فإنكم إلى إحدى الحسنيين: إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقروا لحكم الكتاب، حفظ اللَّه دينكم، وهدى قلوبكم، وزكي أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين»[٣]، وبعث الصديق هذا الكتاب مع أنس بن مالك.

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢/٦٣، ٦٤).

(٢) تهذيب ابن عساكر (١/١٢٦- ١٢٩).

(٣) تاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (٨)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/١٢٩).

عقد الصديق الألوية للجيوش الأربعة الذاهبة للجهاد في الشام

عقد الصديق الألوية لأربعة جيوش أرسلها لفتح الشام، وهي:

١ـ جيش يزيد بن أبي سفيان.

وهو أول الجيوش التي تقدمت إلى بلاد الشام، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق، وفتحها، ومساعدة باقي الجيوش عند الضرورة. عززه الخليفة بالإمدادات حتى صار معه بحدود السبعة آلاف رجل، وشيعه ماشيًا، وأوصاه بوصية من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا، فقال: «إني قد وليّتك؛ لأبلوك، وأجربك، وأُخرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا بعمله، وقد وليتك عمل خالد[١]، فإياك وعبية[٢] الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإن وعظتهم فأوجز؛ فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها، وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم، وأقْلِل لُبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك[٣]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة[٤] عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم[٥]، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك، فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تَخْزُن عن المشير خبرك، فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم في

---

(١) أي: خالد بن سعيد بن العاص.

(٢) أي: عصبية.

(٣) أي: لا تطلعهم على دخيلة أمرك، فيطلعوا على عيوبك.

(٤) يعني: ليروْا قوة المسلمين.

(٥) الكامل، لابن الأثير (٢/٦٤، ٦٥).

عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل من محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربهما من النهار، ولا تَخَف من عقوبة المستحق، ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العَبَّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول؛ فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له»[1].

٢- جيش شرحبيل بن حسنة:

حدَّد الصديق رضي الله عنه لمسير شرحبيل بن حسنة ثلاثة أيام بعد مسير يزيد، وأمره أن يسير إلى تبوك، والبلقاء، ثم بصرى، وهي آخر مرحلة.

٣- جيش أبي عبيدة بن الجراح:

ودع الصديق أبا عبيدة ثم قال: «... إنك تخرج من أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة، والنية الحسنة، أحسن صحبة من صحبك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله وكفى بالله معينًا، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا»[2].

وكان جيشه ما بين: ٣ ـ ٤ آلاف مجاهد، وهدف ذلك الجيش حمص.

وكان قيس بن هبيرة المراد في جيش أبي عبيدة، فأوصى الصديق أبا عبيدة به؛ لأنه من فرسان العرب المشهورين، وقال له: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، ليس بالمسلمين غناء عن رأيه، ومشورته، وبأسه في الحرب، فأدنه،

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (١٧).

(٢) فتوح الشام، للأزدي ص (٢٦، ٢٧).

وألطفه، وأره أنك غير مستغن عنه، ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك، وجهده وجدَّه على عدوك.

وقال الصديق لقيس: «اجعل بأسك، وشدتك، ونجدتك في الإسلام على المشركين، وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والعزَّ للمسلمين، فقال قيس: إن بقيت وأبقاك الله فسيبلغك عني من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما تحب، ويسرك، ويرضيك. فلما بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة للبطرقين بالجابية، وقتله إياهما، قال: صدق قيس وبرَّ، ووفَّى»[(١)].

٤- جيش عمرو بن العاص:

سار الصديق مودعًا لجيش عمرو بن العاص، وقد خرج فيه عدد من أشراف قريش منهم الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وقال الصديق لعمرو: يا عمر، إنك ذو رأي وتجربة بالأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك، فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فربَّ رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور[(٢)].

وكان هدف الجيش فلسطين، وسلك طريق ساحل البحر الأحمر حتى وادي عربة بالبحر الميت.

محاولة هرقل تدمير جيش المسلمين بالشام، وكتاب الصديق إلى قادة الجيوش، ومدُّهم بالمجاهدين:

كان للروم في الشام جيشان كبيران أحدهما في فلسطين والآخر في إنطاكية،

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٤٨- ٥١).

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، للرائد نهاد عباس الجبوري ص (١٤٧)، دار الحرية، بغداد.

وتمركز الجيشان في ستة مواضع؛ هي: إنطاكية، وقنسرين، وحمص، وعمان، وأجنادين، وقيسارية. وأصدر هرقل أوامره إلى قواته بالتوجه لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد كالآتي:

يتراجع الروم أمام المسلمين ويتخلوا لهم عن الحدود الشامية الحجازية.

تتجمع وحدات الجيش الأول في فلسطين بعد تقريرها بقيادة «**سرجون**».

تتجمع وحدات الجيش الثاني في إنطاكية بقيادة «**تيدور**».

تتحرك هذه الجيوش وتهاجم أمراء الإسلام الأربعة الواحد بعد الآخر، وذلك لتسهيل تصفية جيوش الإسلام على انفراد، وعلى أساس هذه الخطة التي وضعها هرقل تحركت جيوش الروم حسب الترتيب الآتي:

توجيه أخاه «**تذراق**» في تسعين ألفًا للقضاء على جيش عمرو بن العاص.

توجيه «**ابن توذر**» إلى يزيد بن أبي سفيان.

توجيه «**القبقار بن ننطوس**» في ستين ألفًا إلى جيش أبي عبيدة.

توجيه «**الدارقص**» نحو شرحبيل بن حسنة(١).

استطاع المسلمون الحصول على المعلومات الدقيقة عن هذه الجيوش ونواياها بكل تفاصيلها، وعن تفاصيل الخطة الرومية لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد، وراسل قادة الجيوش الخليفة بالمدينة يخبروه بخبر هرقل؛ ليرى الصديق رأيه.

وكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمتُ ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بإنطاكية فهزيمة له ولأصحابه، وفتح من اللَّه عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته، وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٠، ٣١).

ويخرجوا عن ملكهم بغير قتال، وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من اللَّه في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل اللَّه أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فألقهم بجنودك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين، فإن اللَّه معك، وأنا مع ذلك ممدُّك بالرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته(١).

ورد الصديق على كتاب يزيد، وهذا نص الجواب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم إلى إنطاكية، وأن اللَّه ألقى الرعب في قلبه من جموع المسلمين، فإن اللَّه ـ وله الحمد ـ قد نصرنا ونحن مع رسول اللَّه ﷺ بالرعب، وأمدنا بملائكته الكرام، وإن ذلك الدين الذي نصرنا اللَّه به بالرعب هو هذا الدين الذي تدعوا الناس إليه اليوم، فوربك لا يجعل اللَّه المسلمين كالمجرمين، ولا من يشهد أن لا إله إلا اللَّه كمن يعبد معه آلهة آخرين، ويدين بعبادة شتى، فإذا لقيتموهم فانهد إليهم بمن معك، وقاتلهم، فإن اللَّه لن يخذلك، وقد نبأنا اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ذلك مُمدك بالرجال في إثر الرجال، حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان، إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعث الصديق بهذا الكتاب مع عبداللَّه بن قرْط الثمالي، فقرأه يزيد على المسلمين، ففرحوا به وسُرُّوا(٢).

وشرع الصديق في إمداد الجيوش الإسلامية ببلاد الشام بالرجال.

فأرسل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بألف من المجاهدين إلى أبي عبيدة، وقال لهاشم: يا هاشم، إن من سعادة جدِّك، ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين بهم

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٠ـ ٣٣).
(٢) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٣ـ ٣٥).

الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالي بنصيحته، ووفائه، وعفافه، وبأسه، وقد بعث إليَّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسِرْ إليهم فيمن تبعك فإني نادب الناس معك.

وقام الصديق، وخطب في الناس، وحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم من المسلمين معافون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى اللَّه الرعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءتني رسلهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل بقرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليَّ يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جندًا من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم، يشدد اللَّه بهم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم، فانتدبوا - رحمكم اللَّه - مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة، وقال لهاشم: «يا هاشم، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه، ومشورته، وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره، وبأسه، ونجدته، وإن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قد جمع لك الخصال كلها وأنت حديث السن، مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر، واعلم أنك لن تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة، ولا يصيبك ظمأ، ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل اللَّه إلا كتب اللَّه لك به عملا صالحًا، إن اللَّه لا يضيع أجر المحسنين» (١).

❑ توجيه خالد إلى الشام ومعركة أجنادين واليرموك:

«رأى قادة جيوش الشام أن يتجمعوا في مكان واحد؛ ليتمكنوا من إحباط خطة الرومان وإجبارهم على خوض معركة فاصلة تخوضها كل الجيوش الإسلامية، واقترح عمرو بن العاص أن يكون مكان التجمع باليرموك، وجاء رأي الصديق موافقًا

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٣- ٣٥).

لرأي عمرو، وأرسل الصديق إلى أبي عبيدة: بث خيلك في القرى والسوداء، وضيق عليهم بقطع الميرة والمارة، ولا تحاصروا المدائن حتى يأتيك أمري، فإن ناهضوك فانهض لهم، واستعن بالله عليهم، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم»(١).

وجاء في رواية: «إن مثلكم لا يؤتى من قلّة، إنما يؤتى العشرة الآلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصَلِّ كل رجل منكم بأصحابه»(٢).

لله در الصديق: «إنما يؤتى العشرة آلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب»، هذا الكلام العظيم يأتي موافقًا ومتابعًا لقول رسولنا ﷺ:

«خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قِلة»(٣).

وكتب الصديق إلى جنده: «**إنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من خذله**»(٤).

وكتب الصديق إلى خالد ـ كما قلنا من قبل ـ يأمره أن ينتقل بنصف جيشه إلى الشام، وأن يتولى قيادة الجيوش بها.

نعم، لله در الصديق، فالأمر يحتاج إلى قائد يجمع بين قدرة أبي عبيدة، ودهاء عمرو، وحنكة عكرمة، وإقدام يزيد.

ووصل خالد بجيشه إلى الشام بعد رحلة عبر الصحراء لم يذكر التاريخ شبيهًا

---

(١) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين ص (١٤٨).

(٢) تاريخ الطبري (٤/٢١١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وعبد بن حُميد، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحه»، والدارمي في «سننه»، وابن عدي، وقال الترمذي: حسن غريب. ولم يصححه؛ لأنه يروى مسندًا، ومرسلًا، ومعضلًا، قال ابن القطان: لكن هذا ليس بعلة والأقرب صحته. وصححه السيوطي في «الجامع الصغير»، والألباني في «الإرواء» (١٩٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٨٦)، و«صحيح الجامع» (٣٢٧٨).

(٤) تاريخ الطبري (٤/٢١١).

لها، وكانت إمدادات الصديق تتواصل على الشام، ولما قال قادة الروم: «**والله، لنشغلن أبا بكر بنفسه عن أن يورد الخيول إلى أرضنا**»[١]، كان ردُّ الصديق: «**والله، لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»، وفي رواية: «**والله، لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»، وكتب الصديق إلى أبي عبيدة بتولية خالد، وقال: «أما بعد، فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره، فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد اللَّه بنا وبك سبيل الرشاد والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته»[٢].

❑ معركة أجنادين

كانت أجنادين أول المعارك الكبيرة في بلاد الشام بين المسلمين والروم، وانتصر المسلمون فيها انتصارًا عظيمًا، وكتب خالد بالنصر إلى الصديق، فلما وصل الكتاب إلى أبي بكر ـ رحمه اللَّه ـ فرح به، وأعجبه، وقال: «**الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك**»[٣].

❑ اليرموك ونهاية وجود الروم بأرض الشام:

كانت معركة اليرموك الخالدة، وأيد اللَّه المجاهدين في سبيله بنصره، وكان نصرًا عزيزًا وحاسمًا حول مجرى التاريخ، وأذهل عقول الباحثين والمؤرخين في القديم والحديث، ولعل من بعض الحقيقة القول بأن النصر كان ثمرة من ثمار جُهد تلك القوات التي خاضت الحروب بتجرد وإخلاص لا مثيل لهما ولا نظير. فكان ذلك نصرًا لفضائل المجاهدين في سبيل الله. ولعل من بعض هذه الحقيقة ـ أيضًا ـ القول بأن

---

(١) البداية والنهاية (٧/٥).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله ص (٣٩٢، ٣٩٣)، دار النفائس.

(٣) فتوح الشام، للأزدي ص (٩٣).

النصر كان ثمرة من ثمار جهد أولئك القادة الذين أمكن لهم بسرعة مذهلة الانتقال من قيادة المجموعات القتالية الصغرى التي لا تتجاوز بضع مئات إلى قيادة الآلاف وعشرات الآلاف، مع استخدام أساليب قتالية متقدمة لم يتمكن من فهمها قادة العدو.

وقد يكون من هذه الحقيقة القول بأن النصر لم يكن إلا نتيجة طبيعية لتلك العقيدة القتالية الإسلامية التي التحمت في سداها ولحمتها بالعقيدة الدينية.

غير أن هناك حقيقة لا يمكن إغفالها، أو تجاوزها، فقد عمل الخليفة أبو بكر الصديق على إدارة الحرب بعزيمة صلبة، وقبضة قوية، وكفاءة عالية، وكانت الثقة المتبادلة بينه وبين القوات هي أساس العمل الناجح الذي أثمر تلك الانتصارات الخالدة.

غير أن صاحب النصر لم يعمر حتى يعيش حلاوة النصر، فقد قضى ومضى إلى الرفيق الأعلى يوم سطر المجاهدون في سبيل اللَّه أروع الملاحم البطولية على ضفاف اليرموك الخالد[1].

❑ الصديق القائد العسكري الفذُّ

إن استنباط مبادئ الحرب لم يكن إلا ثمرة من ثمار الجهد الإنساني، والتجارب القتالية عبر التاريخ.

إن الأعمال القتالية التي قادها الخليفة الصديق في البداية، ثم كلَّف من يتولى قيادتها بعد ذلك من خلال تحديد أهداف معينة، وحشد القوى والوسائط اللازمة، قد حققت من النتائج ما لا يتناسب أبدًا، مع حجم القوات التي قامت بالتنفيذ، ولا مع الأبعاد الزمنية والمكانية التي جرت في حدودها أحداث الفتح، لقد كانت المنجزات التي أمكن تحقيقها أقرب إلى الإعجاز، أو أنها الإعجاز ذاته. فهل كان

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٧٠، ٧١)، دار النفائس.

باستطاعة القوات لو تحركت دونما هدف واضح، ودونما تخطيط محكم، ودونما تنسيق رائع أن تحقق ما أنجزته؟ إن ذلك وحده كافيًا لحمل كل مكابر أو معاند على الاعتراف بقدرة تلك القيادة التي حققت ذلك الإنجاز الخالد خلال فترة قياسية من عمر الزمن، وبإمكانات وقوات تكاد تكون رمزية بالمقارنة مع تلك الجيوش الجرارة التي تصدت لحربها.

* * *

لقد كان للصدّيق دورُهُ الحاسمُ والأساسيُّ فيما أمكن إنجازه، وكان هذا الدور يستند في قسم منه إلى ما توافر للصديق من الكفاءة والخبرة، كما يستند في قسم منه ـ أيضًا ـ إلى مبادئ فن الحرب الإسلامي ومذهبه العسكري، ويستند ـ أيضًا ـ إلى اختيار الصديق لمجموعة القادة الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام وأتقنوا فن الحرب في مدرسته من أمثال: أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأخيه معاوية، وشرحبيل بن حسنة، والمثنى بن حارثة الشيباني، وعياض بن غنم، والنعمان بن مقرن وأخويه، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعشرات بل مئات من أمثالهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ، وقد يندر في عصر من العصور العثورُ على مجموعة كبيرة من القادة الذين توافرت لهم جميعهم مثل تلك الكفاءات القيادية النادرة الذين تَرَبَّوْا في مدرسة الحرب الإسلامية، وهم جميعًا على قدر كاف من الكفاءة لوضعهم على مستوى القادة العالميين، فهل من غرابة أن تنجح قيادة الصديق ذلك النجاح الذي لم يعرف له التاريخ شبيهًا أو نظيرًا؟!

❑ لله در الصديق ودوره الحاسم في دنيا الفتوح:

لقد أولى الصديق إدارة الحرب كل جهده، فحشد للحرب الحشود، وأطلق الجيوش، وتابع تحركاتها وأعمالها، واستمر في توجيهها، حتى بدأت بواكير النصر في الظهور، وعندما مضى الصديق إلى الرفيق الأعلى، وألقى بثقل المسئولية على عاتق خليفته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسار على نهج الرسول ﷺ وخليفته،

وبهذا يكون جهد الصديق ﵁ هو الذي حدد معالم الطريق لمن خلفه من خلفاء المسلمين، وبذلك يظهر دور الصديق الحاسم في دنيا الفتوح.

وفي طرائق الصديق ﵁ لإدارة الحرب تمثلت بوضوح كافة أسس القتال، ومبادئ الحرب التي حددها واستخدمها الرسول الأعظم، ليس ذلك فحسب، وإنما عمل الصديق على تطوير تلك الأسس والمبادئ وفقًا لما تطلبته الظروف المستجدة والمواقف الطارئة، ونظرًا للاتباع العظيم للصديق لهدي رسولنا ﷺ فقد كان كل اجتهاد وكل تطوير وكل إبداع يسير ضمن الاتجاه العام لإرادة الحرب وفقًا لتعاليم القرآن والسنة.

وبات باستطاعة العقيدة القتالية الإسلامية أن تكتسب غناها وثراءها من تجاربها الذاتية، وكانت هذه التجارب في حد ذاتها وما وافقها من نجاحات رائعة، تصديقًا لما تحمله تلك الأسس والمبادئ من الصحة، الأمر الذي عزَّز من قيمتها ودعَّم من أهميتها، وبذلك نشأت العلاقة الثابتة بين نظرية الحرب الإسلامية المستندة إلى تعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة وبين التجارب القتالية المتكاملة والمتتالية، فكان فن الحرب الإسلامي هو فن الحرب الرائد عبر التاريخ، والذي ربط بين النظرية والتطبيق، وبين المبدإ والظروف المحيطة بالمعركة، ويكفي هنا القول بأن مبادئ المذهب العسكري الإسلامي قد ظهرت بشكلها الواضح قبل أن يستنبط قادة الحرب وَمُنَظِّرُوهَا وأساتذتها مبادئ الحرب ـ المتعارف عليها حديثًا ـ بأكثر من اثني عشر قرنًا.

❑ ميلادنا أقدم من ميلادك:

إن التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية هي من نتاج الفكر الحربي المعاصر، ولكن هذه التسميات في حد ذاتها ليست مفصولة عن جذورها الموغلة في عمق التاريخ وتجاربه، فالأشياء تُخلق قبل معرفتها، ويتم التعرف عليها بأشكالها وألوانها قبل إطلاق الأسماء عليها؛ ولذا نقول ـ بكل ثقة ـ: إن الصديق ﵁ مارس قيادته العسكرية بنجاح رائع اعتمادًا منه على **«مبادئ الحرب»** و**«أسس السياسة**

الاستراتيجية»، لقد فعل الصديق ذلك كله بمعرفة تامة وإدراك عميق، غير أنه لم يكن يعرف يقينًا التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية، وإلَّا بماذا يمكن تسمية إعطاء الصديق الأفضلية لحروب الردة والانطلاق منها إلى الفتوح؟

هل هناك تسمية أفضل من «**بناء القاعدة الصلبة**» ـ **وهو اصطلاح عسكري حديث** ـ؟.

وهل يمكن تسمية قيادة الخليفة الصديق لقوات المسلمين في بهمة الليل ومع التحرك بصمت ـ لا همسًا ولا حِسًّا ـ حتى أصبحوا والعدو على صعيد واحد ولما يشعر بهم، هل يمكن تسميتها بغير «**المباغتة**»؟

وما الاسم المناسب لحركة جيوش المسلمين، وقد ضجَّت بها أرض الجزيرة كلها من أقصاها إلى أقصاها، وكيف يمكن وصفها وهي تنتقل من هدف إلى هدف ومن منطقة إلى منطقة؟ أليس اسم «**حرب الحركة**» هو الاسم الأفضل والأمثل؟

❑ أسس الانضباط «قواعد الضبط والربط»:

قبل ظهور هذه التسمية في الجيوش الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا كانت وصايا الخليفة الصديق إلى قادته تمثل غاية أسس الانضباط، وقواعد الضبط والربط في أسمى صورها «**كن والدًا لمن معك، واقتصد بالمسلمين، وارفق بهم في السير والمنزل وتفقدهم، واستوص بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول**»، وما أعظم العلاقة التي كانت تشد مجاهدي المسلمين بعضهم إلى بعض.

❑ «وحدة القيادة» و«القاعدة الصلبة»:

لقد كان أهم ما عمل الصديق هو «**إعادة توحيد المسلمين**» وتوجيههم في تيار واحد، لا انحراف فيه، ولا حيدان عنه مما ضمن بذلك القدرة للعمل تحت قيادة واحدة، أو ما هو معروف باسم مبدإ «**وحدة القيادة**»، وكان لزامًا دعم القاعدة الصلبة بالإنسان المسلم، هدف الدولة الإسلامية ووسيلتها في آن واحد، وصمدت القاعدة

الصلبة للردة.

❑ حرب الحركة:

في حروب الردة كان الصديق في سباق مع الزمن، ويمكن تشبيه حركة الصديق مع المرتدين بما هو معروف اليوم باسم «**الضربات الإجهاضية المسبقة**»، وكان لا بد للصديق من توجيه ضربة حاسمة لإجهاض استعدادات المرتدين وحرمانهم من استثمار عامل الوقت.

فلأن تنطلق قوات المسلمين بنصف استعداد وبإيمان كامل، خير من أن تنطلق باستعداد كامل يقابله استعداد مماثل من قبل الأعداء.

ولعل الخليفة الصديق قد أدرك بصادق حسه أن القوة هي محصلة لضرب الكتلة بالسرعة فكان يسرع في تكتيب الكتائب وتنظيم كتل المجاهدين ويوجهها بتسارع مذهل؛ ليضاعف من قوتها وقدرتها.

والصديق هو ابن الصحراء وهي المنبت الأساس لحرب «**الحركة**»، وكان عظيم الإلمام بالصحراء ودروبها وطرقها ومحيطًا بكل صغيرة وكبيرة في «**العامل الجغرافي**» لشبه جزيرة العرب، وهو التلميذ الأول لرسول اللَّه ﷺ، وهو الذي لم تكن وقائعه وغزواته إلا النموذج الأعلى لحرب الحركة.

لقد تعرضت «**حرب الحركة**» في الأزمنة الحديثة لكثير من الأبحاث والدراسات؛ نظرًا لأهميتها المتعاظمة، وقد شملت تلك الأبحاث والدراسات محاولات لتطبيق قوانين الفيزياء والرياضيات على حركات الجيوش وتوزيع كتلها وزيادة قوتها وقدرتها.

وبالتعرض لنتائج حرب الحركة في عهد الصديق يشهد القادة العسكريون بتفوق المسلمين في تلك الحرب، وبالعبقرية العسكرية الفذة للصديق.

ولعلَّ أول ما يستدعي الانتباه في هذا المجال هو الانتقال المباغت من قيادة

مجموعات لا تتجاوز البضعة آلاف إلى مجموعات تتجاوز عشرات الآلاف، ولا ريب أن هذا الانتقال الكمي «**العددي**» قد تطلّب تطورًا نوعيًا **مماثلًا** في حشد القوى وتوزيعها، وإعطاء الأفضليات للأهداف المتعددة والمنتشرة على مساحات جغرافية متباعدة، وقد يكون هذا وحده أمرًا كافيًا لإبراز مدى الكفاءة القيادية العالية التي توافرت للخليفة الصديق.

لقد أخذ الصديق بعامل «**الأرض والعدو وقوات الصديق**» في إرادته للحرب، فقد وجه الصديق لحرب العراق جيشين بقيادة خالد وعياض بن غنم، وطلب من خالد الدخول إلى العراق من أسفله، ومن عياض الدخول إلى العراق من أعلاه، وحدد لهما الحيرة كنقطة التقاء، ومن الملاحظ في هذا التوجيه أن محوري العمليات قد تحركا على شكل «**كماشة**» وفقًا للمصطلحات الحديثة، وكان تحركهما مستندًا إلى حاجز جغرافي «**نهر الفرات**» حيث كانت تنتشر على ضفافه مسالح الفرس «**مراكزها التقدمية للمراقبة والإنذار**»، وكانت الصحراء تحمي ظهور المسلمين.

وظهرت نتائج حرب الحركة كأوضح ما تكون في حروب الصديق؛ مثل:

- حرمان العدو من حرية العمل العسكري.

- حرمان قيادة العدو من المبادأة ووضعها أمام مواقف تعجز عن إيجاد حلول لها.

- الإفادة من العامل النفسي الذي يتمتع به المهاجم من خلال الشعور بتفوقه المعنوي، ومن خلال امتلاكه للمبادأة وحرية العمل، وإخضاع قيادة الخصم وقواته لضغوط نفسية قاسية.

- إبعاد ويلات الحرب وما يتبعها من تخريب ودمار عن بلاد المسلمين وتحميلها إلى بلاد الأعداء، وكان ذلك ذروة الإبداع وقمة الكفاءة القيادية للتلميذ الأول لمدرسة الإسلام.

الصديق و«الحروب التشتيتية»:

إن إرسال الصديق لأحد عشر جيشًا لمحاربة المرتدين، وإرساله لجيشين يعملان على محورين لحرب العراق، وأربعة جيوش للحرب في أربعة أقاليم من بلاد الشام هو ما يسمى بالمصطلحات الحربية الحديثة بـ «**الحروب التشتيتية**»، لقد كان الصديق في سباق مع الزمن، وكان حجم القوى والوسائط المتوافرة له غير متكافئ مع قوات العدو على كافة الجبهات، فكان هدف الصديق الأول «حرمان قوات الأعداء من تنسيق الجهد فيما بينهما، وإشغال كل قوة من القوى بأمور نفسها، وضرب القوى الأكثر ضعفًا وتدميرها، ثم الانتقال للقوى الأشد بأسًا وأكثر منعة».

لقد تلقى قائد كل جيش من جيوش المسلمين أوامر واضحة من الصديق بالتعامل مع أهداف متتالية بحيث كانت كل قوة تنتقل لدعم قوة أخرى من المسلمين، أو تتعامل مع هدف جديد بمجرد فراغها من تنفيذ واجبها الأول، فكانت قوة المسلمين في حركة دائمة وقتال مستمر، وكانت حرب الحركة بأساليبها وطرائقها التشتيتية أشبه ما تكون بحركة السيل الجارف المندفع من الأعالي «**من المدينة المنورة**» يسير بتؤدة وتمهل في السهول، حتى إذا ما اصطدم بمقاومة تجمعت مياهه وهدرت صاخبة وهي تدمر السد الذي جابهها، ثم يعود السيل إلى سيره الهويني في السهول، معاودًا مسيرته الأولى إذا ما اصطدم بسد جديد.

نجحت خطة الصديق نجاحًا رائعًا خلال مرحلة قياسية من عمر الزمن - في حدود السنة تقريبًا - ثم أطلق الخليفة جيوش المسلمين لفتح الشام والعراق مستخدمًا الخطة ذاتها - خطة الحروب التشتيتية -، فكان تحرك الجيوش على محاور متباعدة وفي مناطق مختلفة عائقًا حَرَمَ قوات الفرس والروم من توجيه ضربة حاسمة لجيوش المسلمين، وعندما قرر الروم حسم الصراع، فحشدوا حشودهم في اليرموك، عادت قوات السيل الجارف فتجمعت لتدمر بصدمة واحدة سَدَّ اليرموك، وكان الانتصار الحاسم الذي ضمن لمياه السيل التحرك بمرونة وسهولة عبر السهول، وتكررت العملية ذاتها

في العراق، فقد تمكن خالد بن الوليد من تحقيق النصر في كافة أيام العراق، مستفيدًا من تشتت قوات الفرس على المسالح وحاميات المدن، حتى إذا ما قرر الفرس بدورهم حسم الصراع بمعركة رئيسية يتم فيها حشد كل القوى المتوافرة تجمعت قوات المسلمين في القادسية فدمرت سَدَّ الفرس، وانطلقت عبر سهول بلاد الفرس وشعابها معاودة سيرتها الأولى[١].

لقد عجز قادة الفرس بقدر ما عجز قادة الروم ـ أيضًا ـ عن فهم ما صنعه الإسلام بأمة العرب، فوقفوا ذاهلين وهم يشهدون تقدم جيوش لا تعتبر أكثر من فصائل أو طلائع في جيوش الفرس والروم من حيث حجمها، فدفع هؤلاء وأولئك قوات متفوقة ظنًّا منهم أن باستطاعة هذه القوات تدمير قوات العرب المسلمين، غير أن هؤلاء نجحوا في تدميرها.

لقد خاض الفرس والروم معاركهم الأولى وهم لا يزالون يتمسكون بمعادلات وموازين القوى المادية، في حين كان المسلمون يخوضون معاركهم بمعادلات وموازين مختلفة تعتمد في أساسها على الصلة بالله، ثم القوى المعنوية والفضائل الحربية.

اضطرَّ قادة الفرس والروم أن يزيدوا في حجم قواتهم، غير أن قوات المسلمين استمرت في تدمير القوى الجديدة، فكانت حرب استنزاف حقيقية، غير أن خسائر الفرس والروم كانت أكبر بكثير من تلك التي كان يفقدها العرب المسلمون، وانعكس ذلك بصورة سلبية على الحالة المعنوية ـ النفسية ـ لقوات الفرس والروم، حتى إذا ما جاءت المعارك الحاسمة كانت نتائجها مقررة مسبقًا؛ إذ من المحال على الجيش بلوغ النصر وهو في حالة نفسية متردية، فكيف وقد بلغ التدهور المعنوي درجة حملت قادة الفرس والروم على الاقتناع بحتمية انتصار العرب المسلمين وفقًا لما تؤيده

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (١٠٧ ـ ١٠٩).

الشواهد التاريخية، وبدلالة انضمام أحد قادة الروم لجيش اليرموك ـ واسمه جرجة ـ، وبدلالة عَصْبِ أحد قادة الفرس رأسه بعصابة، وإعداد متاعه للهرب حتى لا يرى النهاية ـ المأساة ـ التي كان قد رسمها في خياله.

لقد خاض العرب المسلمون معاركهم بمزيج من أساليب «**الحروب الثورية**» وفقًا للتصانيف والمصطلحات الحديثة، والحروب النظامية ـ التقليدية ـ، وتلك هي الظاهرة التي أذهلت قادة الفرس والروم وجعلتهم يقفون حيارى أمام هذا اللغز الغامض والسر المغلق على مداركهم وعقولهم.

وقد اختارت جيوش الصديق من أساليب القتال ما يمكنها من إحراز النجاحات الحاسمة؛ الإغارات والكمائن، والضربات السريعة، والظهور في كل مكان، والاختفاء من كل مكان، ثم الصدق عند اللقاء، فكانت ضربات الفرس والروم تقع في فراغ في حين كانت ضربات العرب المسلمين تأتي مسدَّدة، محكمة، قاتلة، وكانت هذه الأساليب كافية لإحراز النصر على القوات المعادية.

❑ «**استراتيجية التقرب غير المباشر**»:

لقد كان البحث عن «**الحسم في الصراع المسلح**» بهدف الحدِّ من ويلات الحرب هو الحافز الأساسي الذي دفع الصديق لتبني ما أصبح معروفًا في الأزمنة الحديثة باسم «**استراتيجية التقرب غير المباشر**» وذلك للوصول إلى مؤخرات العدو، أو بلوغ العمق الاستراتيجي لمسرح العمليات، ويظهر هذا التوجه واضحًا عند الصديق من خلال دفعه الجيوش إلى عمق بلاد الشام «**حمص**» وعمق بلاد العراق «**أعالي الفرات**»، ولقد أصبح لاستراتيجية التقرب غير المباشر في الحروب الحديثة أهداف واحدة وطرائق مميزة، أهمها الوصول إلى عمق مسرح العمليات والاستناد إلى حاجز العمليات؛ لعزل مسرح العمليات وتدمير التجمعات القتالية الموجودة فيه، والعاملة على أرضه، غير أن هدف استراتيجية التقرب غير المباشر عند الصديق كان في أساسه تطوير الاتصالات مع جماهير سكان البلاد، وتعريفهم بفضائل المسلمين، وما تحمله رسالة الإسلام من

خير للإنسانية، واستثارة مشاعر الخير لدى الناس واكتساب الأنصار، مع العمل في الوقت ذاته على إعداد الظروف المناسبة لحسم الصراع المسلح مع كتلة جيوش الأعداء، فكانت استراتيجية التقرب غير المباشر تعالج ما يمكن تسميته وفقًا للمصطلحات الحديثة بـ«**الحرب النفسية**» جنبًا إلى جنب مع البحث عن «**الحسم في الصراع المسلح**».

❑ حروب الإيمان و«عدالة قضية الحرب».

لقد حملت حروب الإيمان كل الفضائل والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، ولا بد من أن يحمل المجاهد في سبيل اللَّه الفضائل الحربية من إقدام وشجاعة وصبر وقدرة احتمال واستعداد دائم للجهاد حتى يستطيع أداء واجبه على أكمل وجه، وقد كان هذا الدور يفرض على كل مجاهد في سبيل اللَّه أن ينظر وهو يقاتل إلى عالم ما وراء الحرب، فاقتصر القتال على ميدان الحرب ولم يتجاوزه إلا لقتل حاملي السلاح ضد المسلمين، وبالتزام المجاهدين في سبيل الله، بداية من أكبر القادة وحتى آخر مقاتل، فقد كانت «**غاية السلم**» تطغى على «**هدف الحرب**» حتى في ذروة الصراع المسلح، وكانت توصيات الصديق لقادة جيوش المسلمين في حروب الردة تؤكد باستمرار عدم التعرض إلا لمن يجهر بالخلاف سواء في أداء الصلاة أو الامتناع عن دفع الزكاة، أما التوصيات في حروب الفتح فكانت محدَّدة: بالدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وفي الحالات كلها كان العنف في الحرب مقيدًا بحدود ميدان القتال[1].

❑ الروح المعنوية:

تشمل حروب الإيمان بديهيًا ما يُطلق عليه اسم «**الروح المعنوية**»، وهي الناحية التي كان الصديق يركز عليها جلَّ اهتمامه، فقد كان الصديق يرافق الجيوش عند

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٨٩).

مغادرتها للمدينة المنورة، ويوصي قادتها بالعمل بإخلاص لوجه الله، ويحذر من ارتكاب المعاصي والذنوب، فقضية الحروب من وجهة الإسلام هي «**قضية الفضائل**»، وسيسير النصر في ركاب الجيوش المؤمنة التي تخلص الجهاد لوجه الله.

لقد أخذت الجيوش الحديثة في وضع مقاتليها أمام مواقف تتساوى فيها الحياة والموت، فيندفع المقاتلون بحثًا عن الحياة من خلال الفضائل الحربية؛ كالشجاعة، وعدالة الحرب، والدفاع عن الوطن... إلخ.

أما في حروب الإيمان فقد كان البحث عن الشهادة متقدمًا على الحرص على الحياة؛ ولهذا فقد كان الرصيد المعنوي للمجاهدين في سبيل الله مرتفعًا إلى الذروة، بحيث كان معادلًا باستمرار ـ أو يزيد ـ على ما كان يمتلكه الأعداء من رصيد مادي، أو تفوق في القوى.

ومما قدمنا من سيرة الصديق يظهر بوضوح حرص الصديق على بقاء الجيوش مترفعة عن الدنيا، متمسكة بالفضائل، لا تغل ولا تغدر، ولم يكن حرمان من تاب من المرتدين من الانضمام إلى جيوش الفتح إلا حرصًا على بقاء هذه الجيوش نقية من كل الريب والشكوك، وإلا تأكيدًا على أن الجهاد في سبيل الله هو شرف لا يناله إلا المؤمنون الصادقون الذين خرجوا إلى الفتح وهم لا يبحثون إلا عن النصر أو الشهادة.

لقد كانت الحروب في الإسلام لنشر راية الإسلام وإعزاز المسلمين، في حين بقيت الحروب في منظور قادة الحروب الحديثة غاية للتوسع أو النهب أو للاثنين معًا على نحو ما عرفه تاريخ جيوش العالم عبر التاريخ ـ قديمه وحديثه ـ، وبهذا انتصر الإسلام[١].

❑ عزل ميدان المعركة:

عندما بدأ الصديق رضي الله عنه باستنفار القوات لحرب الروم والفرس أرسل خالد بن سعيد إلى تبوك بمهمة إلى مناطق الحشد، ومحاور التقدم، وأمره أن يكون ردءًا

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٩٠ - ٩٢).

للمسلمين، وعندما فشل في هذا الواجب وتجاوزه قام عكرمة بن أبي جهل به[1].

❑ **سلامة خطوط الاتصال مع القادة:**

كانت خطوط الاتصال بين الصديق وقادة المعارك منظمة ومنتظمة بحيث تصل المكاتبات من القادة في أمان، وتصل ردود الخليفة في سرية تامة وسرعة متقدمة لا تسمح للعدو أن يفاجئ المسلمين بشيء لا يتوقعونه، وهكذا كانت الخطط الحربية عند المسلمين دقيقة محكمة مما كان عاملًا من عوامل دحر الأعداء والتغلب عليهم بفضل في حركة الفتوح.

❑ **نقل محاور العمليات وتحقيق التوازن على مسارح العمليات:**

تحركت جيوش المسلمين لحروب الردة على محاور مختلفة للعمل على مناطق مختلفة ومتباعدة، ولكنها كانت تلتقي وتجتمع إما لمعالجة قوات كبيرة، أو للعمل في مناطق واسعة وكل ذلك وفقًا لأوامر الخليفة أبي بكر وتنفيذًا لتعليماته، وكان ذلك يعني ببساطة تحقيق أهم مبدإ من مبادئ العمل على مسارح العمليات وهو: نقل محاور العمليات غير أن هذه الظاهرة لم تأخذ شكلها الواضح تمامًا إلا في عمليات فتوح الشام والعراق.

فعندما أطلق الخليفة أبو بكر جيوش العرب المسلمين وضع في اعتباره تحقيق نوع من «**التوازن في القوى على مسارح العمليات**» فكان عدد جند العراق في حدود عشرين ألفًا يقابلهم سبعة وعشرون ألفًا ـ تقريبًا ـ على مسرح عمليات الشام، غير أن إقدام الروم على حشد جميع قواتهم جعل مسرح عمليات الشام للمسلمين يجابه مأزقا حرجًا فما كان من الصديق إلا أن أعطى مسرح عمليات الشام «**الأفضلية الأولى**»، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد للتحرك بنصف جيش العراق لنجدة إخوانه في الشام، وتم تنفيذ الحركة التاريخية الشهيرة.

---

(١) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين ص (١٤٨).

وفي اليوم الأخير من حياة الخليفة الصديق جاءه المثنى بن حارثة الشيباني، وشرح له المأزق الخطير الذي يجابهه مسرح عمليات العراق من جرَّاء حشد الفرس لجميع قدراتهم بهدف حسم الصراع مع المسلمين، فما كان من الصديق إلا أن استدعى عمر بن الخطاب وطلب إليه العمل لإرجاع جيش العراق إلى العراق مع استنفار كل القوى وتوجيهها إلى العراق، فعاد العراق ليحتل مرتبة «**الأفضلية الأولى**» على مسرح الأعمال القتالية، وتمت إعادة «**التوازن المفقود**» من خلال نقل محور العمليات من الشام إلى العراق.

لقد اكتسبت حركة خالد بن الوليد من دومة الجندل إلى «قراقر فسوى» شهرةً تاريخية واسعة؛ إذ اعتبرت النموذج الأمثل والشكل الأفضل لحرب الحركة في الصحراء، وعولجت على أنها إعجاز خارق للطبيعة، وهي بحق حركة رائعة تستحق كل ما نُسب إليها، غير أن أهمية هذه الحركة لا تبلغ في كل الأحوال مستوى ذلك الفكر الاستراتيجي الذي أبدعها وأمر بتنفيذها، وعند معالجة العملية من هذه الزاوية يصبح الفضل كل الفضل للصديق، ثم لبراعة وفدائية وجندية خالد بن الوليد، ويتزايد الإعجاب بذلك الفكر الاستراتيجي المتألق عند متابعة الوقوف على مسيرة الأعمال القتالية للوصول إلى الحركة المضادة من الشام إلى العراق والتي أصدر الخليفة الصديق الأمر بتنفيذها يوم وفاته.

ومما يؤكد هذه الحقيقة وجود ما يشبه الإجماع على أن تحرك خالد بن الوليد بنصف جيش العراق إلى الشام كان هو العامل الحاسم في نجاح المسلمين في معركة اليرموك، وكذلك في أن التحرك المضاد من الشام إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو التميمي هو العامل الحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصار حاسم في معركة القادسية.

ذلك هو الخليفة الصديق رضي الله عنه يمكث على بعد مئات الكيلو مترات وراء رمال الجزيرة وهو يمسك بقبضته الرحيمة والحازمة خيوط التحرك لمجموعات من المجاهدين

في سبيل الله ينقلها إلى حيث مواطن البلاء والخطر، ويحقق التوازن على مسارح الأعمال القتالية، ويحرك محاور الثقل للقوات إلى حيث تتطلبه أفضليات القتال.

لقد باتت عملية تحقيق التوازن على مسارح العمليات، ونقل ثقل محاور العمليات من قطاع إلى قطاع ومن جبهة إلى جبهة هي مقياس الإدارة الناجحة للأعمال القتالية في الحروب الحديثة؛ ذلك لأنها تبرهن على مدى المرونة المتوافرة لدى القائد في مواجهته للمواقف الطارئة، ليس ذلك فحسب، بل إنها تؤكد توافر مجموعة المعطيات المطلوبة لنجاح المعركة؛ مثل: التقدير الصحيح للمواقف، والقدرة الحركية العالية للقوات، والبحث عن المعركة الحاسمة.

❑ **التصرف بالقوى والوسائط المتوافرة لبلوغ أعلى الأهداف يبرز في مثاله الرائع الذي لا يبارى في قيادة الصديق رضي الله عنه:**

نأتي إلى المؤشر الثابت لكفاءة الصديق في مجال إدارة الحرب؛ ذلك أن مقياس الكفاءة ـ القيادة ـ هو في التصرف بالإمكانات والقوى والوسائط المتوافرة لبلوغ الهدف، ولم تكن الإمكانات والقدرات عند الصديق متكافئة أبدًا لا مع اتساع مسارح العمليات، ولا مع الأهداف التي تقرَّر بلوغها.

كان لا بد من توافر إمكانات جبارة لدى من يتصدى للتعامل مع تلك الأهداف الضخمة بمثل تلك الإمكانات الزهيدة، وقد وجدت تلك القدرات والإمكانات ذاتها في شخص الخليفة الصديق رضي الله عنه، فأمكنه بذلك فرض التحدي على عالمه متجاوزًا بذلك كل المقاييس المعروفة والموازين المعهودة.

لقد اعتبرت قضية «**التوازن بين الهدف والوسائل المتوافرة لبلوغه**» هي مقياس الكفاءة القيادية، ولقد حفظ تاريخ الحروب أسماء عباقرة الحرب الذين أمكن لهم تحقيق انتصاراتهم الضخمة بقوات تنقص بنسب كبيرة أحيانًا عن قوات أعدائهم، غير أن تاريخ الحروب لم يحفظ لنا نموذجًا ينافس أو يضاهي هذا النموذج الرائع في استخدام القوى والوسائط لبلوغ مثل ذلك الهدف لا سيما عند وضع الحدث في

إطاريه الجغرافي والزمن.

هنا وفي هذا المجال على وجه التحديد تظهر عبقرية الصديق العسكرية.

❑ الصديق من كبار القادة العسكريين والمفكرين الاستراتيجيين:

لقد تجلت بصورة مدهشة تثير الذهول والإعجاب المتناهي سعة الفكر الاستراتيجي والقدرة المميزة في إدارة الحرب.

فلو تمَّ الأخذ بكل واحد من الأسس الاستراتيجية التي استخدمها الصديق بوضوح تام؛ كالأخذ بالمبادأة، والمباغتة، وحرب الحركة، والحرب التشتيتية، وتحقيق التوازن في القوى بنقل مسرح العلميات لكان ذلك وحده كافيًا لوضعه على مستوى المفكرين الاستراتيجيين العالميين، فكيف وقد وضع - أو بالأحرى حدد وأوضح - مجموعة من الأسس الاستراتيجية بصورة متكاملة، يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا بحيث يمكن اعتبارها في حد ذاتها مذهبًا عسكريًّا مستقلًا.

ويكفي دليلًا على تكامل الفكر الاستراتيجي لدى الخليفة أن المسلمين في عهده لم تنتكس لهم راية، ولم يهزم لهم جمع، ولم ينكبوا إلا مرة واحدة يوم خالف «**خالد بن سعيد**» أوامر الصديق وتعليماته فوقع في فخ الروم، وقد كان هذا الفشل في حد ذاته برهانًا على كفاءة الصديق - واتساع فكره الاستراتيجي - في معالجة المواقف الطارئة ومجابهة ما هو معروف باسم مآزق الحرب، ولعل أهم ما في الموقف لدى التعرض لهذا المأزق هو تجاوز الانتكاسة بسرعة مذهلة، والانتقال منها إلى إعداد الظروف المناسبة لإحراز النصر، بل إن هذه الحادثة في حد ذاتها تبرز بدعم القدرة المادية لهم؛ فلقد منع الصديق قائده المهزوم «**خالد بن سعيد**» من دخول المدينة حتى لا يفت ذلك من عزيمة المسلمين، وعندما انتهت كافة الإجراءات الوقائية سمح الصديق لخالد بن سعيد بدخول المدينة.

ولقد فَصَلَ الصديق القائد بين السياسة الاستراتيجية وبين إدارة العمليات أو قيادة الأعمال القتالية، وترك لقادته حرية العمل العسكري لإدارة العمليات القتالية

بالأساليب التي يرونها مناسبة، وظاهرة الفصل بين ممارسة القيادة الاستراتيجية وبين قيادة العمليات سبق كبير في مجال «**فن الحرب**» لم تعرفه إلا الجيوش الحديثة.

ونختم بما قال الصديق المجاهد: «**ألا وإن في كتاب اللَّه من الثواب على الجهاد في سبيل اللَّه لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي التجارة التي دل عليها ونجَّى بها من الخزي وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة**»[1].

وهو الذي يخص الليث سيف اللَّه المسلول على القتال فيقول: «**احرص على الموت توهب لك الحياة**».

واللَّه إن شعارات جيوش الصديق تنقلك إلى عوالم نورانية ربانية اشتاق المرء منا إليها. انظر:

كان شعار جيش أسامة: يا منصور أمت[2].

وشعار خالد في مسيره نحو مسيلمة الكذاب: يا محمداه.. يا محمداه[3].

وفي فتوح الشام كان شعار أبي عبيدة: أمت أمت.

وشعار خالد بن الوليد ومن معه: يا حزب الله.

وشعار اليمن: يا أنصار الله.

وشعار حمير: الفتح.

وشعار دارم: الصبر الصبر.

وشعار بني مراد: يا نصر الله.

ما أحوجنا إلى نفحات هذا العصر المبارك.. عصر البطل المجاهد صديق الأمة الأكبر خليفة رسول اللَّه ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٢٠٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٩١).

(٣) تاريخ الطبري (٤/١١١).

٦

الفاروق الشهيد

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الذي تَفِرُّ شياطينُ الإنس والجن منه..
أَعَزَّ اللَّه به الإسلام وَأَذَلَّ به قيصر الروم وملوك بني ساسان .

الفاروق الشهيد عمر بن الخطاب

قال رسول اللَّه ﷺ: «**إيهًا يابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط، إلا سلك فجًا غير فجّك**»[(١)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر**»[(٢)].

❑ **إنه عمر الذي دعا رسول اللَّه ﷺ ربه أن يُعز الإسلام به:**

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اللهم أعِزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**» قال: وكان أحبهما إليه عمر[(٣)].

وعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر[(٤)].

وعن ابن مسعود: أن عمر صارع جِنِّيًا ثلاث مرات فصرعه[(٥)].

وانظر إلى شجاعته:

عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أيُّ أهل مكة أفشى للحديث؟ فقالوا: جميل بن مَعْمَر الجُمحي، فخرج إليه وأنا أتبعُ أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت. قال: فواللَّه ما ردَّ عليه كلمة، حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش، إن

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) **حسن:** رواه الترمذي عن عائشة، وقال: «حديث حسن صحيح»، وعزاه المزي للنسائي.

(٣) **صحيح لشواهده:** أخرجه أحمد، والترمذي، وابن حبان، وعبد بن حميد.

(٤) **صحيح:** رواه البخاري في (صحيحه) (٣٦٨٤)، وأخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (٣٦٨)، وابن سعد في (الطبقات) (١٩٣/١/٣)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٠٢٢).

(٥) **صحيح لشواهده:** رواه الهيثمي بمعناه، وقال: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود، والطريق الثاني فيه المسعودي وقد اختلط، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي.

ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر: كذب، ولكني أسلمتُ، وآمنت بالله، وصدقت رسوله. فثاوروه فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رءوسهم، حتى فتر عمر، وجلس فقال: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل، لقد تركتموها أو تركناها لكم. فبيْنا هم كذلك قيام إذ جاء رجل عليه حلة حرير، وقميص مُوَشّى، فقال: ما لكم؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صبأ. قال: فَمَه، امرؤ اختار دينًا لنفسه، أفتظنون أن بني عدي تُسْلِمُ إليكم صاحبهم. قال: فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه. فقلتُ له بعدُ بالمدينة: يا أبهْ، من الرجل الذي ردَّ عنك القوم يومئذ؟ قال: يا بني، ذاك العاص بن وائل[١].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نطوف بالبيت ونصلي، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا وطفنا[٢].

وقال ـ أيضًا ـ: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي ونطوف بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلناهم حتى تركونا نصلي[٣].

وقال صهيب: لما أسلم عمر بن الخطاب، ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا ورددنا عليه[٤].

إنه عمر وما أدراك ما عمر.

أعني به الفاروق فرّق عنوةً ... بالسيف بين الكفر والإيمان

(١) **حسن**: رواه ابن حبان في (موارد الظمآن) (٢/٢١٨)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١/٣٤٦)؛ **وانظر**: ابن إسحاق (٣٣٤) كما في (السيرة النبوية)، وابن الأثير عن طريقه في (أُسْد الغابة) (٤/١٥٠)، وخبره صحيح.

(٢) **إسناده حسن**: رواه أحمد في (فضائل الصحابة) (١/٣٤٤).

(٣) الشيخان أبو بكر وعمر برواية البلاذري ص (١٤١).

(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/٢٦٩)، وصفه الصفوة (١/٢٧٤).

هو أظهر الإسلام بعد خفائه ومحا الظلام وباح بالكتمان(١)

قال ابن الجوزي: «قويت شدة عمر في الدين فصلبت عزائمه، فلما حانت الهجرة، تسللوا تسلل القَطَا، واختال عمر في مشية الأسد، فقال عند خروجه: ها أنا أخرج إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي»(٢).

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر عترته(٣)، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام، فصلى متمكنًا، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم اللَّه إلا هذه المعاطس(٤)، من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده أو يرمل زوجه فيلقني وراء هذا الوادي. قال علي رضي الله عنه: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه»(٥).

إنه عمر رضي الله عنه الذي قال عنه رسول اللَّه ﷺ: «... **فلم أرَ عبقريًّا يفري فريه**»(٦).

إنه عمر هادمُ دولة بني ساسان، في عهده زال ملك المجوس، وذهبت إمبراطورية كسرى، ولا يزال التاريخ يذكر لرستم قائد قوات الفرس مقولته الشهيرة: «أكل عمر كبدي، أحرق اللَّه كبده. وإنما هو عمر الذي يُكلِّم الكلاب فيعلمهم العقل، كلَّم

(١) نونية القحطاني ص (٢٢).
(٢) التبصرة، لابن الجوزي (٤١٩/١، ٤٢٠).
(٣) عترته: العترة: عصا في قدر نصف الرمح.
(٤) المعاطس: الأنوف.
(٥) **خبر لا بأس به**: أخرجه ابن عساكر في (تاريخه) (٤٥/٥٢)، وابن الأثير في (أُسْد الغابة) (٤/ ١٥٢)؛ **انظر**: صحيح التوثيق في سيرة الفاروق، لمجدي السيد ص (٣٠).
(٦) جزء من حديث عبدالله بن عمر عند البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن أبي شيبة. وفي بعض روايات الصحيح: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ». والعبقري: هو السيد، قاله النووي (٢٥٣/٥).

هؤلاء حتى علموا»[١].

يهتز كسرى على كُرْسِيِّه فَرَقًا مِن خوفه وملوك الروم تخشاهُ

❑ الفارس الماهر

ذكر الطبري في تاريخه، أن عمر بن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بيده اليمنى، وَيَثِبُ، فيصير على ظهر الفرس، من غير أن يُمسك شيئًا بيده.

«كان عمر يأخذ بأذن الفرس ويأخذ بيده الأخرى أذنه، ثم ينزو على متن الفرس»[٢] وكان يصارع في سوق عكاظ وكان ضخمًا طويلًا جسيمًا[٣].

وكان فارسًا ماهرًا، قال أبو مسعود الأنصاري: «كنا جلوسًا في نادينا، فأقبل رجل على فرس يركضه يجري حتى كاد يوطئنا، فارتعنا لذلك وقمنا، فإذا عمر بن الخطاب، فقلنا: فمن بعدك يا أمير المؤمنين! قال: وما أنكرتم؟ وجدت نشاطًا، فأخذت فرسًا فركضته»[٤].

❑ جهاده:

قال ابن الجوزي: «اتفق العلماء على أن عمر رضي الله عنه شهد بدرًا، وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ لم يغب عن غزاة غزاها رسول الله ﷺ»[٥] وعن ابن سعد قال: «قالوا: شهد عمر رضي الله عنه بدرًا، وأحدًا والمشاهد كلها»[٦]، كما أشار إلى ذلك ابن إسحاق.

في بدر الكبرى: «قتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة»[٧]،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٣٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٣٢٥).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٣٢٦).
(٥) مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٨٩).
(٦) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/٢٧٢)، قالوا: يعني العلماء بالسير.
(٧) موسوعة الغزوات الكبرى (غزوة بدر الكبرى)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٦٩) (المكتبة السلفية)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/٣٨٨).

وهذا من أعظم صور التجرد لله.

قال - تعالى -: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد انتهاء المعركة أشار عمر بقتل أسارى المشركين.

عن ابن عمر قال: قال عمر رضي الله عنه «وافقتُ ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر»[(١)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر... قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**» فقال أبو بكر: يا نبي الله: هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى اللَّه أن يهديهم للإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**» قلت: لا واللَّه يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان - نسيبًا لعمر -، فأضرب عنقه[(٢)]، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول اللَّه أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول اللَّه ﷺ «أبكي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٩)؛ وابن أبي عاصم في (السنة) (١٢٧٧).

(٢) وعند أحمد (١/ ٣٠، ٣١): «وتُمكن حمزة من فلان أخيه، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين».

للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابكُ من أخذهم الفداء عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة[(١)]، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فأحل الله الغنيمة لهم»[(٢)].

وانظر إلى الحسِّ الأمني عند عمر رضي الله عنه وحمايته لرسول الله ﷺ عندما جاء عمير بن وهب إلى المدينة قبل إسلامه في أعقاب بدر يريد قتل رسول الله ﷺ «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وَحَزَرَنَا للقوم يوم بدر. ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. قال: «**فأدخله عليَّ**»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «**أرسله يا عمر...**»[(٣)].

فمسك عمر بحمالة سيف عمير الذي في عنقه عطَّله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ[(٤)].

❑ وفي أُحُد:

كان عمر بن الخطاب من القلائل الذين ثبتوا ثبات الأبطال مع رسول الله ﷺ وانظر إلى فرط شجاعته وإبائه الصغار ورده المفحم على أبي سفيان.

---

(١) شجرة قريبة من نبي الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ -.

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود مختصرًا جدًا، وكذلك الترمذي مختصرًا (٣٠٨١)، وأخرجه أحمد مطولًا (١/٣٠، ٣١).

(٣) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم صالح العلي ص (٢٥٩) (دار النفائس - الطبعة الثالثة).

(٤) المصدر السابق ص (٢٦٠).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي جيشًا من الرماة، وكانوا خمسين رجلًا، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا».

فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة.

فقال عبدالله بن جبير: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: **«لا تجيبوه»**.

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: **«لا تجيبوه»**.

فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا! فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت عدو الله، أبقى الله عليك ما يُخزيك، إن الذي عددت لأحياء كلهم.

قال أبو سفيان: اعلُ هُبل.

فقال النبي ﷺ: **«أجيبوه»** قالوا: ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجل»** قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عُزى لكم. فقال النبي ﷺ: **«أجيبوه»** فقالوا: ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**(١).

وفي رواية ابن إسحاق: «ثم إن أبا سفيان صرخ بأعلى صوته: اعلُ هُبل، فقال رسول الله ﷺ: **«قم يا عمر فأجبه»**، فقال: الله أعلى وأجلُّ، لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار».

فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣)، وابن إسحاق كما في (السيرة) (١١٦٠)، وأحمد (٤/٢٩٣)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي في (تفسيره) (٩٩)، والطيالسي (٧٢٥)، وابن سعد (٢/٤٧)، وسعيد بن منصور في (سننه) (٢٨٥٣)، وأبو نعيم في (الحلية) (١/٣٨، ٣٩).

فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر، لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمدًا».

❑ سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة في السنة السابعة من الهجرة:

ولجدارة عمر وفروسيته وشجاعته أرسله النبي ﷺ قائدًا على سرية إلى تُربة، قال ابن سعد: «**بعث رسول الله** ﷺ عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة سبع من مهاجرة رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى عُجز هوازن بتربة - وهي بناحية العَبلاء -، على أربع مراحل من مكة، فخرج ومعه دليل من بني هلال، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة رضي الله عنه»[١].

«وفي هذه السرية يظهر أخذ عمر بمبدإ المباغتة، وهي أهم مبادئ الحرب، وإن عمر ينفذ أوامر قائده ونبيه ﷺ نصًا وروحًا لا يحيد عنها، وهذا هو روح الضبط العسكري وروح الجندية في كل زمان ومكان»[٢].

ففي رواية: أن الدليل الهلالي قال له بعد أن هرب القوم: هل لك في جمع آخر تركته من خثعم سائرين قد أجدبت بلادهم؟ فقال عمر: لم يأمرني رسول الله بهم، إنما أمرني أن أعمد لقتال هوازن بتربة[٣].

❑ عمر رضي الله عنه يوم حُنين:

في غزوة حنين كمنت هوازن بين جنبتي وادي حنين، وذلك في عماية الصبح؛ فحملوا على المسلمين حملةَ رجلٍ واحدٍ، فولَّى المنهزمون لا يَلْوِي أحدٌ على أحدٍ؛ فناداهم رسولُ الله ﷺ فلم يرجعوا، وَثَبَتَ مع رسول الله ﷺ عشرةٌ فقط من أصحابه

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٢٧٢)، مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٨٩).

(٢) الفاروق القائد، لمحمود شيت خطاب ص (١١٧، ١١٨).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٢٢٨).

وآل بيته، كان أحدهم عمر بن الخطاب[1].

❑ في غزوة بني المصطلق:

كان للفاروق موقف متميز؛ فعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: «**كنا في غزاة فكسع[2] رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار؛ فقال الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: ياللمهاجرين، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ**؛ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**»، قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال النبي ﷺ: «**دعوها؛ فإنها منتنة**»، فسمع بذلك عبدالله بن أُبَيٍّ فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «**دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[3].

وفي رواية: قال عمر بن الخطاب: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله. فقال له رسول الله ﷺ: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا ﷺ** يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل»[4].

❑ مجاهد يَسْعَدُ وَيُسَرُّ لسقوط أعمدة الكفر:

هذا ما حدث من الفاروق رضي الله عنه، وذلك إن دَلَّ، فإنما يَدُلُّ على الحب الغامر الكامل الذي يفيض به قلب ابن الخطاب لله ورسوله، وكمال إيمان عمر رضي الله عنه.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: لَمَّا نزل رسول الله ﷺ بِمَرِّ الظهران، قلتُ: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك

---

(١) جوامع السيرة، لابن حزم ص (٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) كسع: ضربه برجله.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم ضياء العمري (٤٠٩/٢) (مكتبة المعارف والحكم بالمدينة المنورة).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٣١٩/٣).

قريش إلى آخر الدهر.

فجلستُ على بغلة رسول اللَّه ﷺ البيضاء، فخرجتُ عليها حتى جئت الأراك [1]، فقلت: لعلي ألقي بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول اللَّه ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوا قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله، إني لأسير عليها، وألتمسُ ما خرجتُ له، إذْ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا ولا عسكرًا. قال: ويقول بديل: هذه واللَّه خزاعة حمشتها [2] الحرب. قال: ويقول أبو سفيان: خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفتُ صوته؛ فقلتُ: يا أبا حنظلة؛ فعرف صوتي.

فقال: أبو الفضل؟! قال: قلت: نعم.

قال: مَا لَكَ، فداك أبي وأمي؟!

قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول اللَّه ﷺ في الناس، واصباح قريش والله!! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟!

قال: قلت: والله، لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتِيَ بك رسول اللَّه ﷺ فأستأمنه لك.

قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، كلما مَرَّ بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟! فإذا رأوا بغلة رسول اللَّه ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول اللَّه ﷺ على بغلته. حتى إذا مَرَّتْ بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟! وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهد. ثم

---

(١) يعني: شجر الأراك.

(٢) حمشتها: اشتدت عليها وأحرقتها.

خرج يشتد نحو رسول اللَّه ﷺ، وركضتِ البغلة فسبقته بما تسبق الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيءَ.

قال: فاقتحمتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسول اللَّه ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن اللَّه منه بغير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه.

قال: قلتُ: يا رسول الله، إني قد أجرتُهُ.

ثم جلستُ إلى رسول اللَّه ﷺ، فأخذتُ برأسه، فقلتُ: والله، لا يناجيه الليلة دوني رجل.

فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلتُ: مهلًا يا عمر؛ فواللَّه أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلًا يا عباس؛ فواللَّه لَإِسْلَامُكَ يوم أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول اللَّه ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم...».[1]

❑ الفاروق المجاهد يغضب لمحارم اللَّه إذا اسْتُحِلَّتْ؛ كما يغضب النمر إذا حُرِبَ:

عن جابرٍ رضي الله عنه أن رجلًا أَتَى رسول اللَّه ﷺ بالجعرانة[2]، منصرفه من حُنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول اللَّه ﷺ يقبض منها، يعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل! قال: «**ويلك، وَمَنْ يعدل إذا لم أكن أعدل؟! لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل**»[3]

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن إسحاق (١٦٦٢)، والطبراني في (المعجم الكبير) (٧٢٦٤)، والطبري في (تاريخه) (٣/ ٥٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٥/ ٢٧).

(٢) الجعرانة: موضع قريب من مكة.

(٣) خبت وخسرت: بالضم والفتح، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابعُ إذا كنتُ لا أعدل؛ لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل. والفتح أشهر. أفاده النووي في (شرحه على مسلم) (٩/ ١٥٩).

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق.

فقال: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه؛ كما يمرق السهم من الرمية**»[١].

أبو الفتوحات العظيمة:

عمر الذي أذلَّ وديَّخ كسرى الفرس وهرقل الروم.. عمر أبو الفتوحات العظيمة «فتح العراق كله، السواد والجبال وأذربيجان وكور[٢] البصرة وأرضها، وكور الأهواز وفارس، وكور الشام كلها ما خلا أجنادين فإنها فُتحت في خلافة أبي بكر، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل، ومصر والإسكندرية، وقتل ﷺ وخيله على الري قد فتحوا عامتها»[٣].

يقول اللواء محمود شيت خطاب ـ رحمه الله ـ:

«عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ هو عهد الفتح الإسلامي الذهبي، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين، فامتدت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان إلى حدود الصين شرقًا، والأناضول وبحر قزوين شمالًا، وتونس وما وراءها من أفريقية الشمالية غربًا، وبلاد النوبة جنوبًا؛ لقد فتح عمر العراق وإيران وأكثر مناطق أرمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنوبة، وخاضت جيوش المسلمين في أيامه ثلاث معارك حاسمة من معارك الفتح الإسلامي؛ معركة «**القادسية**» التي فتحت للعرب المسلمين أبواب العراق والأهواز، ومعركة «**بابليون**» التي فتحت لهم أبواب مصر وليبيا والنوبة، ومعركة «**نهاوند**» التي فتحت

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٣)، واللفظ له، والبخاري مختصرًا (٣١٣٨)، وأحمد (٣/٣٥٣، ٣٥٤)، وابن ماجه (١٧٢)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/٤٦٠)، والطبراني في (المعجم الكبير) (١٧٥٣).

(٢) الكورة: المدينة والصقع، جمعه: كور.

(٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٦١، ٦٢)، تحقيق د/زينب القاروط (دار الكتب العلمية).

لهم أبواب بلاد فارس كلها، كل هذ الفتح العظيم أنجز خلال عشر سنوات من سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٣م) إلى سنة ثلاث وعشرين الهجرية (٦٤٣م)، فقد قُبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد مغيب الشمس من مساء الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من الهجرة[١]، فتولى عمر الخلافة، وتوفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين الهجرية فكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام[٢].

في هذه المدة القصيرة فتح عمر كل هذه الفتوح، فلا عجب أن يذهل هذا الفتح عالم يومئذٍ ويدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه وحاولوا استقصاء أسبابه[٣].

❏ **وهذا تفصيل لسجل الفتوحات[٤] في عصر العبقري عمر رضي الله عنه:**

سنة أربع عشرة: فيها فُتحت دمشق، وحمص، وبعلبك، والبصرة، والأُبُلَّة، ووقعة جسر أبي عبيد بأرض نجران، ووقعة فحل بالشام[٥].

سنة خمس عشرة: في أولها افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنهم صالحوه، وذلك بأمر أبي عبيدة.

وكانت وقعة مشهودة، هي يوم اليرموك في شهر رجب، وكانت موقعة القادسية في آخر السنة[٦].

سنة ست عشرة: فيها فُتحت الأهواز، ودخل المسلمون مدينة بَهُرسير، وافتتحوا

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٢٦٥)، وأُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/٢٠).

(٢) أُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/٢٠).

(٣) الفاروق القائد، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٩٣، ٩٤) (دار الفكر - بيروت).

(٤) **انظر**: صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق عمر بن الخطاب، لمجدي فتحي السيد ص (٢٣٠ - ٢٣٣) (دار الصحابة بمصر).

(٥) **انظر**: تاريخ الطبري (٣/٤٣٥)، تهذيب تاريخ دمشق (١/١٤٧)، تاريخ خليفة (١٢٧).

(٦) **انظر**: تاريخ الطبري (٣/٣٩٤، ٣٩٥) وتاريخ خليفة (١٣١)، وتاريخ الإسلام (٤/١٣٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/١٦).

المدائن، وكانت وقعة جَلُولاء، وقِنَّسْرين[١].

وعن تلك السنوات القليلة يقول مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي ـ رحمه اللَّه ـ:

استولى المسلمون في ثلاثة أعوام على كرسي مملكة كسرى، وعلى كرسي مملكة قيصر، وعلى أُمَّي بلادهما، وغنم المسلمون غنائم لم يُسمع بمثلها قط من الذهب والجوهر، والحرير، والرقيق، والمدائن، والقصور. فسبحان اللَّه العظيم الفتاح[٢].

سنة سبع عشرة: سار الفاروق إلى الشام، وزاد في عمارة المسجد النبوي، وافتتح أبو موسى الأشعري الأهواز صلحًا وعنوة، فقد نقضوا عهدهم بعد الفتح الأول[٣].

سنة ثماني عشرة: افتتح أبو موسى رضي الله عنه جُند يسابور، والسوس صلحًا، ثم رجع إلى الأهواز.

وفيها: افتتح أبو موسى رامَهرمز ثم سار إلى تُستر[٤].

سنة تسع عشرة: فيها فُتحت قيسارية، وأمير العسكر معاوية بن أبي سفيان وسعد بن عامر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ كلٌّ أمير على جنده، فهزم اللَّه المشركين، وقُتِل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها: كانت وقعة صُهاب ـ قرية بفارس ـ وعلى المسلمين الحكم بن أبي العاص، فقُتل شَهْرك مقدَّم المشركين.

وفيها: فُتِحت تكريت.

وفيها: وجه عمر عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة[٥].

---

(١) تاريخ الطبري (١٤/٤، ١٥، ١٦)، وتاريخ خليفة (١٣٤)، وتاريخ الإسلام (١٥٧/٤).

(٢) تاريخ الإسلام (١٥٩/٤).

(٣) تاريخ الطبري (٦٩/٤)، أُسْد الغابة، لابن الأثير (٥٤٠/٢)، وتاريخ خليفة (١٣٥، ١٣٦)، وتاريخ الإسلام (١٦٥/٤)، وتاريخ ابن عساكر (٣٣٦/٥٢، ٣٣٧).

(٤) تاريخ الطبري (٩٦/٤)، وتاريخ خليفة (١٣٩، ١٤٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (١٧٦/١).

(٥) تاريخ الطبري (٥٣/٤)، وتاريخ خليفة (١٤١)، وتاريخ الإسلام (١٨٧/٤، ١٩٠).

سنة عشرين: وفيها افتتحت مصر.

وفيها: افتتح المغرب كله عنوة.

وفيها: سار أبو موسى الأشعري إلى تُستر، وحاصرها طويلًا.

وفيها: أجلى عمر يهود خيبر ونجران(١).

سنة إحدى وعشرين: فيها فتح عمر بن العاص ﵁ الإسكندرية عنوة.

وفيها: نزل عثمان بن أبي العاص توَّج، ومصَّرها، وهي مدينة فارسية.

وفيها: بعث عمر سوار بن المثنى العبدي إلى سابور، فاستُشهد، وأغار عثمان بن أبي العاص على سيف البحر والسواحل، وبعث الجارود بن المعلى فاستشهد.

وفيها: كانت وقعة نهاوند، وافتتحت نهاوند.

وفيها: سار عمرو بن العاص إلى برقة فافتتحها.

وفيها: وصل أبو هاشم بن عتبة إلى أنطاكية، وقِلقِيَّة، وصالح أهلها(٢).

سنة اثنين وعشرين: فيها فُتحت أذربيجان على يد المغيرة بن شعبة.

وفيها: غزا حُذيفة ماسبذان، فافتتحها عنوة، وغزا همذان فافتتحها عنوة، وافتتح عمرو بن العاص طرابلس الغرب.

وفيها: افتتحت جرجان.

وفيها: افتتح سويد بن مُقرِّن الري، ثم عسكر وسار إلى قوس فافتتحها(٣).

سنة ثلاث وعشرين: وفيها كان فتح كرمان، وأمير الفتح سهل بن عدي.

وفيها: فُتحت سجستان، وأمير فتحها هو عاصم بن عمرو.

وفيها: فتحت مُكران، وهي من بلاد الجبل، وكان أمير الفتح الحكم بن عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري (١١٢/٤)، وتاريخ خليفة (١٤٣، ١٤٤)، وتاريخ الإسلام (١٩٧/٤، ٢٠٠)، وتاريخ ابن عساكر (٣٣٦/٥٣، ٣٣٧).

(٢) تاريخ الطبري (١١٥/٤، ١٤٤)، وتاريخ خليفة (١٤٨، ١٤٩)، وتاريخ الإسلام (٢٢٨/٤).

(٣) تاريخ الطبري (١٤٦/٤، ١٦٣)، وتاريخ الإسلام (٢٤٢/٤)، وتاريخ خليفة (١٥٠).

وفيها: غزا معاوية بن أبي سفيان الصائفة حتى بلغ عمورية[١].

هذا هو السجل الحافل بالجهاد في عهد الإمام الرباني عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ـ.

كلُّ يومٍ مجد وفخر يشادُ وطريف[٢] من المُنى وتلاد
وكِرَامٌ من المساعي حِسانٌ عجزت عن طِلابها الحُسَّادُ

❑ **ومن أهم المعارك التي انتصر فيها المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه:**

وقعة النمارق سنة ١٣هـ، ومعركة السَّقَّاطية بكسْكَر، ومعركة باروسما سنة ١٣هـ، ومعركة البويب سنة ١٣هـ، والقادسية «**يوم أرمات، ويوم أغواث، ويوم عماس، ويوم القادسية**» وفتح المدائن، ومعركة جلولاء، وفتح رامهرمز، وفتح تستر، وفتح مدينة جُنْدَى وسابور، ثم معركة نهاوند «**فتح الفتوح**»، وفتح همذان ثانية سنة ٢٢هـ، وفتح الري سنة ٢٢هـ، وفتح قوميس وجرجان سنة ٢٢هـ، وفتح أذربيجان سنة ٢٢هـ، وفتح الباب ٢٢هـ، وغزو خراسان سنة ٢٢هـ، وفتح اصطخر سنة ٢٣هـ، وفتح فساودار بجْرد سنة ٢٣هـ، وفتح كرمان وسجستان سنة ٢٣هـ، وفتح مُكران سنة ٢٣هـ، وغزو الأكراد.

وفتوحات الشام «فتح دمشق ـ وقعه فحل ـ فتح بيسان وطبرية ـ وقعة حمص سنة ١٥هـ، ووقعة قنسرين سنة ١٥هـ، ووقعة قيسارية سنة ١٥هـ، وفتح القدس سنة ١٦هـ»، ثم فتوحات مصر وليبيا «فتح الفرما، فتح بلبيس، معركة أم دنين، معركة حصن بابليون، فتح برقة وطرابلس».

❑ **الفاروق القائد:**

هذا النهر من الفتوحات والانتصارات كان بفضل قيادة عمر الفذة بالإضافة إلى

---

(١) تاريخ الطبري (٤/١٨٠، ١٨٦)، وتاريخ الإسلام (٤/٢٥٠)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٣/ ٣٣٧).

(٢) الطريف: الجديد. والتلاد: القديم.

العوامل الأخرى، تلك القيادة التي امتازت بميزتين ظاهرتين:

الأولى: مقدرته المدهشة على اختيار القادة العامين والقادة المرءوسين.

والثانية: الموهوبة والمكتسبة على القيادة العليا والقيادة التعبوية ـ أيضًا[(١)].

اختيار القادة:

لقد نجح قادة عمر في مهمة قيادة الجيوش الإسلامية نجاحًا كان ولا يزال وسيبقى أُعجوبة من أعاجيب تاريخ الحرب.

ولقد كان للفاروق طريقة متميزة في اختيار قادة الفتح؛ منها:

١ـ أن يكون القائد صحابيًّا؛ لأنهم كانوا لا يُؤَمِّرُونَ في الفتح إلا الصحابة[(٢)]، فكان عمر لا يُوَلِّي إلا الصحابة ولا يرضى أبدًا أن يعمل صحابي بإمرة غير صحابي.

فقد كان للصحابة ـ بصورة عامة ـ تجارب طويلة مفيدة في القتال تحت لواء الرسول القائد ﷺ، واقتبسوا خلالها أعلى وأسمى ضروب التضحية والفداء، وأنبل وأرفع آداب الحرب والسلام[(٣)].

٢ـ وكان عمر رضي الله عنه يفضِّل السابقين الأولين من الصحابة على غيرهم إلا أن يقصر بهم عملهم، فكان يفضل عليهم حينذاك من برز بأعماله.

لقد كان أول ما عمل عمر بعد موت أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أن ندب الناس مع المثنى كل يوم، يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أولَ منتدب أبو عبيد بن مسعود، ثم ثنَّى سعد بن عبيد، وسليط بن قيس، فلما تكامل حشد ذلك البعث قال قائل لعمر: «أمِّر عليهم رجلًا من السابقين من المهاجرين والأنصار» فقال عمر:

---

(١) الفاروق القائد، لمحمود شيت خطاب ص (٩٥).

(٢) الإصابة، لابن حجر العسقلاني (١/٣٠٩، ٢/١٩٤، ٤/٢٣٥).

(٣) الفاروق القائد ص (٩٦).

إنما أؤمر عليهم من استجاب[١]. وفي رواية: «**لا والله! لا أفعل، إنما رفعكم الله بسيفكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا**»[٢]، ثم دعا أبا عبيد[٣] وسليطًا وسعدًا فقال مخاطبًا سعدًا وسليطًا: «**أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما**»، ثم قال لأبي عبيد: «**اسمع من أصحاب النبي** ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[٤] الذي يعرف الفرصة والكف»[٥].

٣ـ وكان عمر يفضل أن يكون القائد مكيثًا غير متهور، يعرف الفرص وينتهزها، ويعرف كيف ومتى يقاتل ومتى يكف عن القتال»[٦]. قال عمر لسليط: «**لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث**»[٧].

٤ـ وكان عمر يريد أن يكون القائد قويًّا مسيطرًا ذا شخصية نافذة، فإذا وجد رجلًا أقوى من رجل فضل الأقوى على القوي، فقد استعمل معاوية بن أبي سفيان على الشام، وعزل شرحبيل بن حسنة وقام يعذره في الناس، فقال: «**إني لم أعزله عن سخطة، ولكن أريد رجلًا أقوى من رجل**»[٨]، وكان يقول: «**إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه**»[٩].

٥ـ واستعمل عمر القادة الشجعان الرماة: فحين وجه سعد بن أبي وقاص إلى

(١) البداية والنهاية (٧/٢٦).
(٢) تاريخ الطبري (٢/٦٣١)، وابن الأثير (٢/١٦٦)، ومناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (٦٧).
(٣) وكان من التابعين.
(٤) المكيث: الرزين المتأني، جمعها مكثاء.
(٥) تاريخ الطبري (٢/٦٣١).
(٦) أسد الغابة، لابن الأثير (٢/١٦٦).
(٧) البلاذري (٢٥١).
(٨) ابن الأثير (٢/٢١٧).
(٩) طبقات ابن سعد (٣/٣٠٥).

العراق قائدًا عامًّا قال: «**إنه رجل شجاع رام**»[١].

ولما أراد عمر أن يولي قائدًا لجيوش المسلمين لفتح نهاوند واستشار الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وجندك قد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلمتهم. فقال: أما والله لَأُوَلِّيَنَّ أمرهم رجلاً؛ ليكونن أول الأسنة[٢] إذا لقيها غدًا. فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن. فقالوا: هو لها[٣].

٦- وكان رضي الله عنه يختار قواده من ذوي الدهاء والفطنة والحنكة:

لما نزل عمرو بن العاص وجنده على الروم بموقعة أجنادين لفتحها، وكان قائد الروم الأرطبون، وهو أدهى الروم، وأبعدها غورًا، وأنكاها فعلًا، ووضع جندًا عظيمًا بإيلياء والرملة، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمر قال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج[٤]. ولما أراد عمرو أن يجمع المعلومات عن الأرطبون وجيشه حتى يضع خطته الحكيمة لمهاجمته والانتصار عليه، دخل ابن العاص معسكر قائد الروم وكاد أن يقتل إلا أن الله نجاه، وخدع عمرو بن العاص أرطبون الروم، ولما وصل الأمر إلى عمر بن الخطاب قال: غلبه عمرو، لله عمرو[٥].

٧- وكان عمر إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين، أمَّر عليهم أميرًا من أهل العلم والفقه[٦]، ولا يرضى أن يؤمر أهل الوبر على أهل المدر[٧].

فقد قال عمر لعتبة بن غزوان: «**من استعملت على أهل البصرة؟**» فقال: «**مجاشع**

(١) البلاذري ص (٢٥٥).

(٢) الأسنة: واحده سنان؛ أي: سن الرمح.

(٣) تاريخ الطبري (١٠٩/٥).

(٤) تاريخ الطبري (٤٣١/٤).

(٥) المصدر السابق (٤٣٢/٤).

(٦) أسد الغابة، لابن الأثير (١٩/٣).

(٧) أهل الوبر هم أهل البادية، والحضر؛ أي: المدن.

ابن مسعود»، قال: «**تستعمل رجلًا من أهل الوبر على أهل المدر؟!!**».

ولما أرسل إلى سعيد بن عامر ليستعمله على بعض الشام، فأبى عليه، فقال عمر: «كلا والذي نفسي بيده، لا تجعلونها في عنقي وتجلسون في بيوتكم»[1].

القائد الفذ الذي ليس له نظير في عصره وبعد عصره

أهم صفات القائد المثالي كما يقول اللواء محمود شيت خطاب:

«**العقيدة - الشورى - الحصول على المعلومات - الحرص الشديد - الفطنة وبعد النظر - الشجاعة - القابلية البدنية- تحمل المسئولية - معرفة مبادئ الحرب - القابلية السوقية «الاستراتيجية» - الشخصية النافذة - الثقة المتبادلة - المحبة المتبادلة - الماضي الناصع المجيد.**

وبالطبع لا تتوفر كل هذه الصفات في قائد واحد - كما قال نابليون -؛ لأنها مجموعة من سير عدد عديد من القادة العظام.

وهذه الصفات كلها - على الرغم من قول نابليون - كانت متوفرة في قيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. [وذلك كالتالي:]

☐ الفاروق القائد واستشارته في أمور الحرب:

عندما علم عمر باجتماع الفرس على يزدجرد، فكتب عمر إلى المثنى بن حارثة ومن معه من المسلمين بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التي تلي العجم، واجتمع الناس إلى عمر فخرج من المدينة المنورة حتى نزل على ماء يدعى «**ضرار**»، فعسكر به ولا يدري أحد ما يريد أيسير أم يقيم! وأحضر عمر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامة: «**سرْ وسرْ بنا معك**»، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح، وإلا أعاد رجلًا

(١) مصنف عبدالرزاق (١١/٣٤٨).

وبعث آخر، ففي ذلك غيظ العدو، فجمع عمر الناس وقال لهم: «إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا علي برجل. وأخيرًا استقر الرأي على تولية سعد بن أبي وقاص»[١].

وكان عمر لا يوافق على انسياح الجيش الإسلامي في بلاد فارس ويقول: «وددت لو أن بين السواد والجبل سدًّا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم! حسبنا من الريف السواد»[٢] وقال لما فُتحت الأهواز وما يليها: «وددت أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا»[٣].

واستشار عمر أهل الرأي في ذلك، فقال الأحنف بن قيس: «يا أمير المؤمنين! إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وإن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلادهم، ونُزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر: **«صَدَقَنِي والله»**، وأذن في الانسياح في بلاد فارس»[٤].

وعندما حشد الفرس جيوشهم في **«نهاوند»** حتى بلغ الجند مئة وخمسين ألفًا بإمرة الفيرزان[٥]، أخبر سعد بن أبي وقاص عمر بهذا الحشد العظيم، فقرر عمر أن يسير بنفسه لمعالجة الموقف هناك، ولكن أصحاب الشورى وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه نصحوه أن يبقى في المدينة المنورة ويرسل قائدًا يعتمد عليه ليفرق شمل

---

(١) ابن الأثير (٢/١٧٢، ١٧٣).
(٢) ابن الأثير (٢/٢٠١).
(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٨).
(٤) تاريخ الطبري (٣/١٨٤، ١٨٥)، وأُسْد الغابة، لابن الأثير (٢/٢١٣).
(٥) ابن الأثير (٣/٣).

القوات الفارسية[١].

إن القائد الذي يحسن الاستشارة تكون قراراته غالبًا أقرب إلى الكمال.

❑ الحرص على الحصول على المعلومات:

كان عمر يحرص على الحصول على المعلومات من الوافدين عليه، ومن القادة والأمراء وأفراد الناس الذين يحضرون الحج، ومن منابع المعلومات الأخرى.

كان يطالب قادته دائمًا بإطلاعه على تفاصيل المعلومات عن العدو وعن الأرض التي يقاتلون عليها.

كتب إلى سعد بن أبي وقاص قُبيل معركة القادسية يقول «... اكتب إليَّ أين بلغك جمعهم ومن يلي مصادمتكم، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين «**المدائن**» صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية..»، فكتب إليه سعد يذكر تفاصيل دقيقة عن طبيعة الأرض وعن العدو وقائده[٢].

إن الذين يقرءون رسالة عمر إلى سعد بن أبي وقاص وجواب سعد من العسكريين المختصين لا يسعهم إلا أن يُبْدُوا إعجابهم الشديد بهاتين الرسالتين، فلن يستطيع قائد أعلى في القرن العشرين بعد أن أصبحت الدراسات العسكرية دراسات أكاديمية أن يكون أكثر دقة من عمر في رسالته هذه، ولن يستطيع قائد عام من ضباط الركن اللامعين أن يكتب تفاصيل أدق وأوفى من رسالة سعد بن أبي وقاص.

وكان جواب عمر على رسالة سعد هذه: «جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض[٣] الله لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا

---

(١) الطبري (٣/٢١٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣/١١).

(٣) نغض الشيء نغضًا ونغضانًا؛ أي: تحرك في ارتجاف واضطراب. ويقال: نغضوا إلى العدو؛ أي: =

تنزع حتى تقتحم عليهم «**المدائن**»، فإنه خرابها ـ إن شاء الله»[١].

لقد كان عمر ﷺ يحيط علمًا بتفاصيل ودقائق المعلومات عن جيوشه وعن جيوش عدوه وعن طبيعة الأرض، فكان يصدر قراراته العسكرية على هدى وبصيرة[٢].

❑ الحرص على مصير الجيوش:

كان عمر يحرص غاية الحرص على مصائر جيوشه، فقد كان يخشى اللَّه أن يسأله عن كل إهمال يؤدي إلى ضياع الأرواح، فكان ـ رحمه اللَّه ـ نموذجًا رفيعًا للحرص على مصائر الناس، بعث عمر بن الخطاب جرير بن عبداللَّه البجلي على الجيش، فسقطت رجْل رجل من المسلمين من البرد، فأرسل إليه: «يا جرير مستمعًا! إنه من يسمع يسمع اللَّه به»؛ يعني: أنك خرجت في البرد ليُقال: قد غزا في البرد[٣].

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر، فذكر جموعًا من الروم وشدة، فكان يوقظ أحد أصحابه فيقول: «قم فصل، فإني لأقوم فأصلي وأضطجع فما يأتيني النوم»[٤].

وكان عمر يخلف الغزاة في أهليهم[٥]، فيقوم على أمرهم كلهم، وكان يقدر المجاهدين حق قدرهم، ويُكبر المضحِّين منهم أعظم الإكبار، قال عبداللَّه بن عمر: «بينما الناس يأخذون أعطياتهم بين يدي عمر، فرفع رأسه فنظر إلى رجل في وجهه ضربة، فسأله، فأخبره أنه أصابته في غزاة كان فيها، فقال: عُدُّوا له ألفًا. فَأُعْطِيَ الرجلُ ألف درهم، ثم قال: عُدُّوا له ألفًا. فَأُعْطِيَ له ألفًا أخرى، ثم قال له ذلك أربع مرات، كل مرة يعطيه ألف درهم، فاستحي الرجل من كثرة ما أعطي، فخرج فسأل

= نهضوا. **انظر**: المعجم الوسيط (٢/٩٤٥).

(١) تاريخ الطبري (٣/١٢).

(٢) الفاروق القائد ص (١٠٨).

(٣) مناقب عمر، لابن الجوزي ص (٨٨).

(٤) المصدر السابق ص (٥٥).

(٥) المصدر السابق ص (٤٧).

عنه، فقيل له: إنا رأينا أنه استحي من كثرة ما أُعطي. فخرج. فقال: أما واللَّه لو أنه مكث ما زلت أعطيه ما بقي منها درهم، رجلٌ ضرب ضربة في سبيل الله، حفرت وجهه»[(١)].

بل شمل حرصه حتى الحيوانات، قال الأحنف بن قيس التميمي: «وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فقال: أين نزلتم؟ فقلت: في مكان كذا، فقام معي حتى انتهينا إلى مناخ ركائبنا، فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا اتقيتم اللَّه في ركائبكم هذه؟؟ ألا علمتم أن لها عليكم حقًّا؟؟ ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟؟».

ولقد بلغ من حرصه على أرواح المسلمين أنه لم يوافق على الانسياح في بلاد العجم إلا في الوقت المناسب، وبعد تأكده من ضرورة الانسياح الملحة. كما لم يوافق على ركوب البحر، وعاقب العلاء بن الحضرمي على ركوبه خلافًا لأوامره الصريحة[(٢)].

وقد كان معاوية بن أبي سفيان لجَّ على عمر في ركوب البحر، فكتب عُمر إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر، فلما كتب إليه عمرو وصف البحر كتب إلى معاوية: «والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا.. فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر[(٣)]، وباللَّه لمسلم أحب إلي مما حوت الروم، وإياك أن تعرض إليَّ، فقد علمت ما لقي العلاء مني».

وانظر إلى هذا الخبر العظيم الذي يبين لك الحرص العالي لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: قال السائب بن الأقرع الثقفي: «... قدمت على عمر، وكان قد قدر الوقعة، فبات يتململ ويخرج ويتوقع الأخبار.. فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار، فأتيته فقال: ما وراءك؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين، فتح اللَّه عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان

---

(١) المصدر السابق ص (٥٢، ٥٣).
(٢) تاريخ الطبري (١٧٨/٣).
(٣) يعني: البحر.

ابن مقرِّن. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه.. فلما رأيت ذلك وما لقي، قلت: يا أمير المؤمنين! ما أصيب بعده رجل تعرف وجهه. فقال: أولئك المستضعفون من المسلمين، ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنع أولئك بمعرفة عمر؟؟![1].

❑ لله در عمر... يا سارية . . . الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم.

وانظر إلى حرص عمر الشديد.. وهذه الكرامة الغالية لفاروق الإسلام المجاهد الذي يشفق على إخوانه المجاهدين ويحرص عليهم غاية الحرص.

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: كان عمر يخطب على منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فعرض له في خطبته أن قال:

يا سارية[2]... الجبلَ الجبل، مَنْ استرعى الذئب ظلم، فالتفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال علي: ليخرجن مما قال، فلما فرغ من صلاته قال له علي: ما شيء سنح لك في خطبتك؟! قال: وما هو؟ قال: قولك: يا سارية الجبل الجبل من استرعى الذئب ظلم.

قال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم. قال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا مَنْ وجدوا، وقد ظفروا، وإن جازوا هلكوا، فخرج مني ما تزعم أنك سمعته.

قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر، فذكر أنه سمع في ذلك اليوم، في تلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر: يا سارية الجبل الجبل. قال: فعدلنا إليه، ففتح الله علينا.

---

(١) أُسْد الغابة، لابن الأثير (٦/٣)، والخراج، ليحيى بن آدم القرشي ص (٤١).

(٢) ذكر العقاد في كتابه (عبقرية عمر) ص (٣١): أنه سارية بن حصن. والحقيقة أنه سارية بن زنيم الكناني..

انظر: الإصابة (٥٢/٣)، وأُسْد الغابة (٢٤٤/٢)، وتهذيب ابن عساكر (٤٣/٦).

وفي رواية أخرى: ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، هُزِمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا ينادي: يا سارية... الجبل ـ ثلاثًا ـ فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله»[١].

لقد كان عمر في حرصه نسيج وحده... إنه كان لا ينام ولا يُنيم حرصًا على مصائر المسلمين.

❑ **معرفة الفاروق القائد الفذ بمبادئ الحرب:**

وعملًا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، نكتب هذا الفصل من كتاب اللواء الركن / محمود شيت خطاب: **«الفاروق القائد»** فأهل مكة أعلم بشعابها[٢]:

«كان عمر أحد خريجي مدرسة الرسول القائد ﷺ في ممارسة فنون الحرب ومعاناة أهوالها.

كان عمر قبل إسلامه كأي عربي ليس غريبًا على ساحات الوغى وأخبار الحروب، ولكن هذه المعلومات الابتدائية عن المعارك صَقَلَهَا وهذبها بالممارسة الفعلية وبالتوجيه العملي والنظري لسيد القادة وقائد السادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولقد كان لعمر طبيعة موهوبة للجندي الممتاز ـ كما أسلفنا ـ؛ فاجتمع لديه بعد تجاربه الطويلة للحرب بعد إسلامه الطبع الموهوب والعلم المكتسب، وبذلك أصبح قائدًا مثاليًّا له مزايا القائد المثالي علمًا وعملًا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبري في (تاريخه) (١٧٨/٤)، وابن الأثير في (أُسْد الغابة) (٣٠٦/٢)، وابن عساكر في (تاريخه) (٢٨٦/٥٢)، وأخرجه البيهقي في (الدلائل)، وأبو نعيم، والزين العاقولي في (فوائده)، وابن الأعرابي في (كرامات الأولياء)، كما في (الإصابة) (٥٣/٣)، وقال ابن حجر: إسناده حسن، ورواه ابن مردويه، والواقدي، وأبو عمرو بن العلاء؛ كما قال ابن حجر في (الإصابة) (٣/ ٥٣).

(٢) من ص (١٤٦ ـ ١٩٧) باختصار.

شهد عمر مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنينًا وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار، وأراد رسول الله ﷺ أن يرسله إلى مكة يوم الحديبية، فقال: «**يا رسول الله! قد علمت قريش شدة عداوتي لها، وإن ظفروا بي قتلوني**»، فتركه وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه[1].

وقد ولاه النبي ﷺ قيادة سرية من المسلمين؛ فقد بعثه في شعبان سنة سبعٍ من مهاجر رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى «**عجُز**»[2] هوازن بـ «**تُربة**»[3]، فخرج وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم فلم يَلْقَ منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة[4]، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: هل لك في جمع آخر من خثعم؟»، فقال عمر: «لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم، إنما أمرني بقتال هوازن»[5].

هذه السرية تدلنا على ثلاث نتائج عسكرية:

الأولى أن عمر أصبح مؤهلًا للقيادة؛ إذ لولا ذلك لما ولاه النبي الكريم ﷺ قيادة سرية من سرايا المسلمين تتجه إلى منطقة بالغة الخطورة وإلى قبيلة من أقوى القبائل العربية وأشدها شكيمةً.

والثانية: أن عمر الذي كان يكمن نهارًا ويسير ليلًا، مشبع بمبدأ المباغتة؛ أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، مما جعله يباغت عدوه ويجبره على الفرار، وبذلك انتصر بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة.

---

(١) أُسْد الغابة (٤/٥٩).

(٢) عجز: محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء يقال له: (تربة) بضم العين. **انظر**: السيرة الحلبية (٣/٢١٠)، وفي (معجم البلدان) (٢/٣٧٤): أن تربة على مسافة يومين من مكة.

(٣) تربة: واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٣٧٤)، وفي (طبقات ابن سعد) (٢/١١٧): أنها بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة، طريق صنعاء ونجران.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١١٧)، والسيرة الحلبية (٣/٢١٠).

(٥) السيرة الحلبية (٣/٢١٠).

والثالثة: أن عمر ينفذ أوامر قائده الأعلى نصًّا وروحًا، ولا يحيد عنها، وهذا هو روح الضبط العسكري؛ روح الجندية في كل زمانٍ ومكان.

وبعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولي أبي بكر الصديق كان عمر أحد جنود بعث أسامة بن زيد[(١)]، وحين أراد أبو بكر الصديق إنفاذ هذا البعث إلى واجبه حسب أوامر النبي ﷺ شَيَّعَ هذا الجيش فقال لقائده أسامة: «**إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل**» فأذن له[(٢)]، فكان عمر أبرز عضو من أعضاء المجلس الأعلى للقيادة العامة في عهد أبي بكر الصديق.

كان أبو بكر يستشير عمر في تعيين القادة الذين يوليهم قيادة جيوش المسلمين؛ فقد عقد أبو بكر أول لواء إلى أرض الشام لخالد بن سعيد بن العاص، ولكنه عزله قبل أن يسيره، وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبي بكر شهرين. ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقال: «**يا أبا الحسن! يا بني عبد مناف! أغلبتم عليها؟**» فقال علي: «**أمغالبة ترى أم خلافة؟!**»... أما أبو بكر فلم يحقدها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه، فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الإمارة وجعله ردئًا للمسلمين بـ (تيماء)[(٣)]، وأمره ألا يفارقها إلا بأمره وأن لا يدعو من حوله من العرب إلا من ارتد، وأن لا يقاتل إلا من قاتله[(٤)].

وكان يستشيره في تسيير الجيوش إلى الجهاد؛ فقد دعا أبو بكر أهل الرأي، وفي مقدمتهم عمر، وذكر لهم أن رسول اللَّه ﷺ عول أن يصرف همته إلى الشام، فقبضه اللَّه إليه واختار له ما لديه، وطلب رأيهم في ذلك، فكان عمر أسبقهم إلى إجابته

---

(١) ابن الأثير (٢/١٢٧)، والطبري (٢/٤٦٢).

(٢) الطبري (٢/٤٦٢)، وابن الأثير (٢/١٢٧).

(٣) تيماء: بلد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٤٤٢)، وتهذيب الأسماء واللغات القسم الثاني (١/٤٤).

(٤) ابن الأثير (٢/١٥٤)، والطبري (٢/٥٨٦)، وفي البلاذري ص (١١٦): أن عمر كلم أبا بكر في عزل خالد؛ لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب؛ فعزله.

فقال: «... **سر بالخيل في أثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود...**»، فلما لم يتحمس الحاضرون لهذه الدعوة، لأن هيبة الروم أخذتهم صاح فيهم عمر: «**ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم؟!**» فهزت هذه الصيحة الحاضرين، فرضوا بالجهاد [1]، فكتب أبو بكر إلى اليمن وأهل مكة [2] يستنفرهم للجهاد في أرض الشام.

وكان يستشيره عند إعداد الخطط السوقية (الاستراتيجية) لجيوشه، فكان عمر يعاونه في ذلك أعظم المعاونة.

ولما حضرت أبا بكر الوفاة دعا عبدالرحمن بن عوف فقال: «**أخبرني عن عمر**» فقال: إنه أفضل من رأيت، ولكن فيه غلظة»، فقال أبو بكر: «**ذلك لأنه يراني رقيقًا**»، ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه».

ودعا عثمان بن عفان وقال له: «**أخبرني عن عمر**»، فقال: «**سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله**». ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال: «**استخلفتَ على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك**»، فقال أبو بكر: «**أجلسوني**»، ثم قال: «**أبالله تخوِّفوني؟ خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول اللهم استخلفت عليهم خيرَ أهلك**» [3].

وأصبح عمـــر بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه القائد الأعلى لقوات المسلمين المسلحة، فكان أول ما عمل، أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس، وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات بها الصديق أبو بكر. ثم أصبح فبايعه

---

(١) الفاروق عمر، لمحمد حسين هيكل (١/٨٥).

(٢) فتوح الشام، للواقدي (١- ٢).

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩).

الناس، فعاد فندب الناس لقتال الفرس. وتتابع الناس على البيعة ثلاثة أيام، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، فأمَّره على الجيش؛ لأنه كان أول الناس انتدابًا[١].

وأمر المثنى بن حارثة الشيباني بالتقدم إلى أن يقدم عليه أصحابه، وأمر باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة[٢]، فكان بعث أبي عبيد أول جيش سيره عمر[٣].

لقد طبق عمر بذلك مبدأ (التحشد) تطبيقًا رائعًا.

وكان عمر قد قال لأبي عبيد: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية... تقدم على قوم تجرءوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، واحرز لسانك، ولا تفشينَّ سرك، فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن ولا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة[٤]».

وهذا يدل على أن عمر كان يعرف تفاصيل دقيقة عن الحالة الاجتماعية لعدوه؛ لذلك أوصى قائده بالحذر واليقظة، وأرشده إلى مفتاح كل ذلك؛ وهو كتمان السر حتى لا يعرف عدوه نياته قبل الأوان، فيباغته عدوه قبل أن يباغت هو عدوه، وقبل معركة (البويب)[٥] ندب عمر الناس إلى المثنى بن حارثة الشيباني، وكان فيمن ندب قبيلة «**بجيلة**»[٦]، فجعل الناس يتحامون العراق ويتثاقلون عنه، حتى هَمَّ أن يغزو

---

(١) الطبري (٢/٦٣١)، وابن الأثير (١/٦٦٢)، وتاريخ عمر ص (٦٧).

(٢) ابن الأثير (٢/١٦٦).

(٣) ابن الأثير (٢/١٦٦).

(٤) ابن الأثير (٢/١٦٨).

(٥) نهر كان بالعراق مَوْضِعَ الكوفة، فمه عند دار الرزق، يأخذ من الفرات. **انظر**: معجم البلدان (٢/ ٣١٠).

(٦) **انظر**: جمهرة أنساب العرب ص (٣٨٧ - ٣٩٠).

بنفسه، وَقَدِمَ عليه خلقٌ من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق[١]، وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى[٢].

لقد طبق عمر في ذلك مبدأين من مبادئ الحرب المهمة:

مبدأ «التحشد»؛ وذلك بحشد أكبر عدد من القوات في ربوع العراق، **ومبدأ «توخي الهدف»**؛ وذلك بالإصرار على فتح العراق مهما يكلفه الأمر ومهما تكن الظروف والأحوال.

وقبل معركة «**القادسية**» الحاسمة ـ حين علم عمر باجتماع الفرس على «**يزدجرد**» بعد توليه عرش أجداده الأكاسرة وتجهزهم؛ مما أثار قرى العراق ومدنه على المسلمين ـ قال: «والله، لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»، ثم كتب إلى عماله: لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ... والعجل العجل[٣]...»، فلم يدع رئيسًا، ولا ذا رأي وذا شرف وبسطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم، وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم، والتفرق في المياه التي تَلِي العجم، وأن لا يَدَعُوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدًا من أهل النجدات إلا أحضروه إما طوعًا أو كرهًا[٤].

وأراد عمر أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك خارج المدينة المنورة، فاستخلف علي بن أبي طالب على المدينة، وجعل طلحة بن عبيدالله على المقدمة، والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف على المجنبتين[٥]، ولكن وجوه أصحاب النبي ﷺ أشاروا عليه أن يبعث رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ويرميه بالجنود، فإذا كان الذي يشتهي فهو الفتح، وإلا أعاد رجلًا وبعث آخر، ففي ذلك غيظ العدو»، فجمع عمر الناس وقال

---

(١) البلاذري ص (٢٥٣)، **وانظر**: الطبري (٢/٦٤٦).
(٢) وابن الأثير (٢/١٦٩).
(٣) الطبري (٣/٦٦٠)، وابن الاثير (٢/١٧٢).
(٤) ابن الأثير (٢/١٧٢).
(٥) ابن الأثير (٢/١٧٣).

لهم: «إني كنت عزمت على المسير، حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا علي برجل»[(١)].

وَأَمَّرَ عمرُ سعد بن أبي وقاص على حرب العراق بعد مشاورات طويلة أجراها عمر مع خاصة المسلمين وعامتهم[(٢)]، فسرحه فيمن اجتمع إليه من الرجال، وأمده بعد خروج سعد بألفي يماني وألفي نجدي، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة؛ فنزلوا في ثلاثة آلاف، ولم يدع عمر ذا رأي ولا شرف، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا، ولا وجيهًا من وجوه الناس إلا سَيَّرَهُ إلى سعد[(٣)].

وكتب عمر إلى سعد يأمره: «أن يقاتل المسلمون الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا يقاتلوهم في عقر دارهم، فإن يظفر اللَّه المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللَّه الكرة عليهم»، وكتب عمر - أَيْضًا - إلى أبي عبيدة بن الجراح؛ ليصرف أهل العراق ومن اختار أن يلحق بهم من أرض الشام إلى العراق[(٤)].

وكتب عمر إلى سعد ومن معه من الجنود: «أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى اللَّه على كل حال؛ فإن تقوى اللَّه أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب[(٥)]، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا

---

(١) ابن الأثير (١٧٢/٢)، وابن خلدون (٩١/٢)، **وانظر:** البلاذري ص (٢٥٥).

(٢) **انظر:** كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٢٣٢).

(٣) ابن الأثير (١٧٣/٢ - ١٧٤).

(٤) كان هؤلاء قد أرسلوا من العراق إلى أرض الشام مع خالد بن الوليد في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. **انظر:** قادة فتح العراق والجزيرة ص (١١٩ - ١٢٦).

(٥) **انظر:** الباب الأول من كتاب (مختصر سياسة الحروب، للهرثمي) ص (١٥، ١٦)، وهو: في أن نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته.

كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من اللَّه يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي اللَّه وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا؛ فَرُبَّ قوم سلط عليهم شر منهم؛ كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط اللَّه كفرةُ المجوسِ ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، واسألوا اللَّه العون على أنفسكم؛ كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل اللَّه ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع، وأقم بمن معك كل جمعة يومًا وليلة، حتى تكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم وَيَرُمُّون - أي يصلحون - أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحدًا من أهلها شيئًا، فإن لهم حرمة وذمة، ابتليتم بالوفاء بها؛ كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم ففوا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدو، فاذكِ العيون بينك وبينهم - أي بثها - ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينًا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحدًا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت

العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك وَمَقَاتِلَهُ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعته بك، ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه؛ لترهب بذلك عدوك وعدو الله، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان»[١].

إن إجراءات عمر قبل معركة القادسية تمثل ذروة تطبيق مبدإ «**التحشد**»؛ كما أن وصيته لسعد بالقتال على حدود بلاد العرب تطبيق لمبدإ «**الأمن**» ومبدإ «**المرونة**»[٢].

أما وصيته لسعد ولرجاله بتقوى الله وطاعته والابتعاد عن المعاصي فتمثل أسمى غاية لتطبيق مبدإ «**إدامة المعنويات**».

أما وصاياه لسعد من الحذر واليقظة، والمسير، والاستراحة الأسبوعية وإدامة سلاح الجيش وخيوله، والمحافظة على أهل الذمة، وإذكاء العيون واختيارهم، واتخاذ التدابير التعبوية للأمن، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة، والحذر من مباغتة العدو لجيشه، والحزم... إلخ، فتعتبر من ألمع ما كتب في هذا الموضوع، كما أنها دليل على معرفة عمر لتفاصيل ودقائق التعبئة الصغرى واهتمامه الشديد بتطبيق مبدإ «**الأمور الإدارية**» ومبدإ «**الاقتصاد بالمجهود**»[٣].

ووجَّه عتبة بن غزوان[٤] إلى البصرة وقال له: «يا عتبة! إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من أحومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك

---

(١) نهاية الأرب نقلًا عن كتاب (عمر بن الخطاب، لمحمد صبيح) ص (١٤٨ - ١٥٠).

(٢) مبدأ المرونة الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية (قابلية الحركة) أصبح الآن يسمى (مبدأ المرونة)، ومعناه: قوة العمل السريع وقوة الحركة. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٩).

(٣) هو استخدام أصغر القوات للأمن، أو لتحويل انتباه العدو إلى آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٧).

(٤) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٧٧ - ٣٨٦).

عليها، وقد كتبت إلى الحضرمي يمدك بعرفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قدم عليك فاستشره، وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية، وإلا فالسيف، واتق اللَّه فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول اللَّه ﷺ فعززت به بعد الذلة، وقويت بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مسلطًا مطاعًا، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم... أعيذك باللَّه ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى اللَّه حتى رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فَأَرِدِ اللَّه ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين»[١].

هذه الوصية نموذج رفيع من الوصايا؛ تقدم معلومات عن المنطقة، وتؤكد على الخطر المحدق، وتحث على تجميع للقوة درءًا لذلك الخطر، وتحث على الاستشارة، وتوضح تعاليم الفتح في الإسلام، وتأمر بالتقوى والعدل، وتنهى عن الكبر والبطر...

وفي هذه الوصية دليل على معرفة عمر لرجاله فردًا فردًا، من هو الرجل المناسب للعمل المناسب، وتلك مزية لعمر جعلته لا يخطئ في اختيار الرجال لمعاونته في تحمل أعباء الحكم في الحرب وفي السلم، هذه المزية التي لم يكتب التاريخ لرجل دولة أن ينجح بدونها.

وسمع عمر بأعمال خالد بن الوليد في أرض الشام بعد عزله، وكان حينذاك يعمل قائدًا مرءوسًا لأبي عبيدة بن الجراح، فهتف من أعماق قلبه: «أمّر خالد نفسه! يرحم اللَّه أبا بكر، هو كان أعلم بالرجال مني!»، وقال عن خالد والمثنى: «إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما»[٢].

---

(١) الطبري (٣/٩٢)، وابن الأثير (٢/١٨٨).

(٢) ابن الأثير (٢/١٩١).

إنه أراد أن يبذل المقاتلون أقصى جهودهم لنيل النصر وأن يحسبوا في الظروف الحربية أسوأ الاحتمالات، وأن يعدوا لكل احتمال عدته، فلا يتواكلوا معتمدين على كفاية قادتهم أو على عددهم وعُدَدِهم مما يؤدي إلى نكبتهم؛ كما حدث ذلك يوم «**حنين**» إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا.

قال عمر: «لأعزلن خالد بن الوليد والمثنى مثنى بني شيبان، حتى يعلما أن اللَّه إنما كان ينصر عباده، وليس إياهما كان ينصر[1]»، فلم يكن عمر يرضى عن غرور القائد ولا عن غرور الجنود.

وبعد فتح «**أنطاكية**» من أرض الشام، كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح: «رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعل بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء»[2]، وهذا تطبيق عملي لمبدإ «**الأمن**» ولمبدإ «**الأمور الإدارية**».

ولما فرغ سعد بن أبي وقاص من أمر القادسية، أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى «**المدائن**»[3]، وأن يخلف النساء والعيال بـ «**العتيق**»[4]، وأن يجعل معهم جندًا كثيفًا[5]، وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم، وفي هذا الأمر المختصر، طبق عمر مبدأ «**اختيار المقصد وإدامته**»، ومبدأ «**التعرض**»[6]، ومبدأ «**تحشيد القوة**»، ومبدأ «**الاقتصاد بالمجهود**»، ومبدأ «**الأمن**»، ومبدأ «**إدامة المعنويات**»، ومبدأ «**الأمور الإدارية**»، ولا أعلم

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٢٨٤).

(٢) ابن الأثير (٢/١٩٢).

(٣) المدائن: هي طيسفون على دجلة، بينها وبين بغداد ستة فراسخ. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٧/٤١٣ ـ ٤١٥)، وهي مدينة سامان باك في الوقت الحاضر، ناحية من نواحي بغداد.

(٤) العتيق: قرية بين القادسية وبغداد، استولت عليها دجلة. **انظر**: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٢/٢٣٥)، الطبعة الأولى، ولم أجد ذكرًا لهذه القرية في (معجم البلدان).

(٥) ابن الأثير (٢/١٩٦).

(٦) التعرض: هو الهجوم على العدو لسحقه. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٣).

رسالة عسكرية قليلة الكلمات كثيرة الفائدة مثل هذه الرسالة الموجزة.

وبعد فتح «**المدائن**»، انسحب الفرس باتجاه «**جلولاء**»[(١)]، وعسكرت قواتهم الضاربة هناك، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: «**سرح هاشم بن عتبة**[(٢)] **إلى «جلولاء» في اثني عشر ألفًا، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى ميمنته مسعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجرمي**»[(٣)]، وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال وبالأساليب التعبوية التي تحقق لجيشه مبدأ «**الأمن**».

كما كتب إلى سعد عندما علم بتجمع العدو في «**تكريت**» يقول: «سرح إليه عبدالله بن المعتم[(٤)]، واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكل[(٥)]، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة[(٦)]»، وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال ـ أيضًا ـ، وبالأساليب التعبوية السائدة في الجيوش حينذاك.

وَعَبَرَ العلاء بن الحضرمي من البحرين إلى فارس بغير إذن عمر؛ فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم؛ فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلًا، وأخذت الفرس طرقهم، فعسكروا وامتنعوا، ولما بلغ عمرَ صنيعُ العلاء، أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا؛ فأرسل عتبة جيشًا في اثني عشر ألف مقاتل؛ فهزموا الفرس، وأنقذوا جيش العلاء، وعادوا إلى البصرة[(٧)].

---

(١) جلولا: موضع على نهر ديالي على بعد سبعة فراسخ من خانقين، تقع بين خانقين ويعقوبا. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (١٢٩/٣).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٢٩١ ـ ٣٠٠).

(٣) ابن الأثير (٢٠٢/٢).

(٤) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٠١ ـ ٣٢٣).

(٥) الطبري (١٣٢/٣)، والبلاذري ص (٢٦٤)، وابن الأثير (٢٠١/٢).

(٦) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٤٣ ـ ٣٤٩).

(٧) الطبري (١٨٧/٣)، وابن الأثير (٢٠٨/٢، ٢٠٩).

وقد عزل عمرُ العلاء بن الحضرمي عن «**البحرين**»؛ لمخالفته الأوامر[١].

لقد طبق مبدأ «**الأمن**» في منعه العلاء من العبور إلى فارس بحرًا، وطبق مبدأ «**التحشيد**» في إرسال المدد إليه؛ لإنقاذ جيشه من الورطة التي وقع فيها، وكان عزل العلاء دليلًا على تمسك عمر بتنفيذ أوامره، وعدم إفساح المجال لمخالفتها، وعدم السكوت عن المخالفين.

وفي «**الأهواز**» استطاع «**يزدجرد**» أن يحشد جيشًا ضخمًا، فجاءت الأخبار حرقوس بن زهير وصحبه، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب عمر إلى سعد أن: «ابعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن المزني، وعجل، فلينزلوا بإزاء «**الهرمزان**» ويتحققوا أمره»، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن: «ابعث إلى «**الأهواز**» جندًا كثيفًا، وَأَمِّرْ عليهم سعد بن عدي أخا سهيل، فابعث معه البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور، وعرفجة بن هرثمة، وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعًا أبو سبرة بن أبي رهم»[٢].

وهذا يدل على أن عمر كان يعرف رجاله ومزاياهم معرفة دقيقة، وأنه طبق مبدأ «**التحشد**» تطبيقًا رائعًا.

لقد كان عمر جنديًا ممتازًا وقائدًا مجربًا، يعرف تفاصيل التعبئة الصغرى، ويتحلى بمزية الضبط المتين، ويعرف مزايا رجاله، ويوليهم المناصب استنادًا لتلك المزايا فقط، ويطبق جميع مبادئ الحرب المعروفة بشكل مثالي وبكل حرص في الحرب.

لقد كان قائدًا فذًا لا يتكرر على تعاقب الأيام والعصور إلا نادرًا... وقد لا يتكرر

---

(١) **انظر**: تفاصيل ذلك في ترجمة العلاء بن الحضرمي في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (٢٤٧-٢٧٦).

(٢) ابن الأثير (٢/٢١١)، **وانظر**: كتاب الولاة وكتاب القضاة (٨) حول تحشيد قوات المسلمين لفتح مصر، **وانظر**: ترجمة أبي موسى الأشعري في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (١٧٨ - ١٩١)، **وانظر**: ترجمة أبي سبرة بن أبي رهم في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (١٥٥ - ١٦٠).

أبدًا.

❑ الخطط السوقية[١]

١ـ الخطط التعبوية:

هي الخطط التي يُعِدُّهَا القادة المرءوسون في منطقة العمليات[٢] والقادة العامون في «الجبهة»[٣] وفي «ساحات العمليات»[٤] لإدارة الحرب في معارك معينة.

وكمثال على ذلك:

كان في أيام عمر ساحات عمليات عديدة: ساحة عمليات العراق، وساحة عمليات أرض الشام، وساحة عمليات فارس، وساحة عمليات مصر.. إلخ.

وكان في ساحة عمليات العراق ـ مثلاً ـ عدة جبهات: جبهة محور نهر «**ديالي**»، وجبهة محور نهر «**دجلة**» حتى مدينة الموصل، وجبهة عمليات محور نهر «**الفرات**»، وجبهة عمليات جنوبي العراق.. إلخ.

وكان في كل جبهة من الجبهات مناطق عمليات؛ فمثلاً: ساحة عمليات دجلة حتى الموصل شمالاً، كان هناك منطقة عمليات تكريت ومنطقة عمليات الموصل... إلخ.

كان القائد العام في العراق ـ مثلاً ـ سعد بن أبي وقاص مسئولاً عن ساحة عمليات العراق كله، وكان في جبهة دجلة حتى الموصل قادة مرءوسون: عبداللَّه بن المعتم

---

(١) هناك نوعان من الخطط:

(أ) **الخطط التعبوية**: هي خطط معركة معينة في ميدان قتال معين. ومن ذلك يتضح لنا أن الخطط التعبوية تعني نتائج معركة واحدة محلية.

(ب) الخطط السوقية (الاستراتيجية): هي الخطط التي لها نتائج حاسمة على نتيجة الحرب كلها في ميادين القتال كافة.

(٢) منطقة العمليات: هي قسم من ساحة العمليات.

(٣) الجبهة: هي عدة مناطق عمليات داخلة في حدود جغرافية معينة.

(٤) ساحة العمليات: هي الساحة التي يتمكن أحد الخصمين من القتال فيها.

مسئولًا عن هذه الجبهة كلها، وربعي بن الأفكل مسئولًا عن منطقة عمليات الموصل[١]، وهكذا كان للعراق ساحة حركات فيه عدة جبهات في كل جبهة مناطق عمليات عديدة.

٢ـ أما الخطط السوقية:

فهي الخطط التي يُعِدُّهَا القائد الأعلى لإدارة الحرب في «**ساحة الحرب**»[٢] كلها، ويكون لهذه الخطط السوقية تأثير على نتائج الحرب في مختلف ساحات العمليات والجبهات ومناطق العمليات.

«**انظر المخطط الإيضاحي في الصفحة التالية عن ساحات الحرب والقيادات، وعن تفصيل القيادت، وعن تفصيل ساحة الحرب**»[٣] :

---

(١) **انظر**: كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة).

(٢) ساحة الحرب: هي جميع البلاد التي يحتمل أن يتقابل فيها الفريقان المتخاصمان في البر والبحر.

(٣) نقلا عن كتاب «الفاروق القائد» للواء الركن محمود شيت خطاب، ص ١٦٤



إن القائد الأعلى «**عمر بن الخطاب**» كان هو المسئول الأول عن إعداد الخطط السوقية، ويشمل ذلك: إعداد هذه الخطط من الناحية العسكرية، وإصدار الوصايا أو

الأوامر لتنفيذها، وإعداد جيوشه بالإمدادات من الرجال والمعدات لإدامة الحرب، وتزويد تلك الجيوش بالأمور الإدارية، ومراقبة وصول تلك المواد الإدارية إلى جيوشه، والعمل على رفع معنويات رجاله في ساحة الحرب وفي كل مكان، واختيار القادة العامين والقادة المرءوسين القادرين على تنفيذ أوامره ووصاياه نصًّا وروحًا.

٣- لقد أنجز عمر بن الخطاب كل واجباته قائدًا أعلى بشكل يدعو إلى التقدير العميق والإعجاب الشديد.

تهيأت له الأسباب الجوهرية لإنجاز تلك الواجبات بكل جدارة، وقد مرَّ بنا بعض تلك الأسباب:

- كان يؤمن بالشورى؛ فلا يستقل برأيه، ولا يبالي أن يأخذ الحكمة من أي وعاء؛ وهذا يقلل من فرص الخطإ والإهمال.

- وكان يحرص على جمع المعلومات من منابعها بشتى الطرق والأساليب؛ وهذا يجعله يعمل على هدًى وبصيرةٍ، ولا يسير أبدًا وهو مغمض العينين.

- وكان يَتَّسِمُ بالحرص الشديد على الأرواح؛ وهذا يؤدي إلى عدم زَجِّ جيوشه في المهالك دون مُسَوِّغ.

- وكان فطنًا عالـمًا بعيد النظر؛ ومن نتائج ذلك: استكمال دراساته العسكرية بدقة وإتقان حين وضع الخطط العسكرية مع إدخال أسوإ الاحتمالات في الحساب.

- وكان شجاعًا يُعِدُّ لكل أمر عُدَّتَهُ، ثم لا يُحْجِمُ عن تنفيذ خططه، ولا يتردد، ولا يتراجع.

- وكانت له قابلية بدنية ممتازة تُعِينُهُ على تحمل المشاقِّ والصعابِ بصبر وحزم وإقدام.

- وكان يعرف عِظَمَ مسئوليته وضخامة عبئها؛ فلا يتردد في تحمل أعبائها، ولا يتهرب من نتائجها، ولا يُلْقِي بأعباء تلك النتائج على الآخرين.

- وكان له تجارب طويلة في الحرب جنديًا وقائدًا مرءوسًا ومستشارًا خبيرًا للرسول القائد - عليه أفضل الصلاة والسلام - ولخليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه من بعده؛ كما كان خبيرًا بمبادئ الحرب مطبقًا لها عالـمًا بتفاصيلها حريصًا على مراعاتها.

تلك هي الأسس الموضوعية التي تهيئ لكل قائد أنسبَ فرصة للنجاح في إعداد الخطط السوقية، والتي تهيأت لعمر بشكل واضح ملموس قَلَّ أن تجد له مثيلًا في تاريخ الحروب بكل زمان ومكان.

فلا عجب - بعد ذلك - أن تكون خططه السوقية دقيقة متكاملة عملية بعيدة عن المخاطر.

ولا عجب أن تكون نتائجها فتحًا مستدامًا، لم تتراجع راياته منذ أربعة عشر قرنًا حتى اليوم.

لقد كان عهد عمر عهدًا ذهبيًا للفتح الإسلامي العظيم.

٤- كان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة، ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تَبِعَتِهِ العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتمادًا على القائد وحده؛ إذ ليس القائد المحلي هو المسئول الوحيد عن المصير.

فإذا رأى القائدُ العامُّ رأيًا وخالفه هو في رأيه، أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

ولقد كان إلى جانب السهر على الميادين - عامة - لا يُغِلُّ يد القائد فيما يُحْسِنُ أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمرُ سياسةَ الحربِ العامةِ من فتح الميادين، وفكِّ الحصار، وانتظار الهجوم، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه، ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورةُ الساعة.

استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو؛ فكتب إليه: «أنت الشاهد، وأنا الغائب، والشاهد يَرَى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك، وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا، فابعث إليهم السرايا،

وادخل معهم بلادهم، وَضَيِّقْ عليهم مسالكهم، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم...».

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها، وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة، وهو - بعد هذا - لا يُعْفِي نفسه من التبعية، ولا يُعْفِي القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة، ولا يُغِلُّ يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه، ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في الرأي؛ ليتفق الرأيان المختلفان، فإذا رجع القائد إلى الحصار الذي أزمع أن يتركه مثلًا، رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملًا يخالف الصواب في تقديره.

وهذه السياسة هي التي جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه - وهي السياسة التي لا يستطيع الحاكم أن يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها - جعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت بطل الفرس «**رستم**» المشهور في التواريخ والأساطير يقول: «إن عمر هو هازمه في الميدان» و«أنه هو الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل كبدي، أحرق اللَّه كبده»[(١)].

وربما يتبادر إلى الأذهان أن عمر كان مركزيًّا في قيادته، يشل أيدي قادته الغامين وقادته المرءوسين، وهذا وَهْمٌ ليس له من الحق نصيب.

إنه رضي الله عنه يضع الخطط العامة ويترك لقادته التفاصيل بعد أن يبذل قصارى جهده في اختيارهم لتحمل تبعاتهم بجدارة وقوة وإيمان... إنه يضع الخطط السوقية، ويترك لقادته أمر وضع الخطط التعبوية.

كان يشتد اغتباطه حين يرى قادته وعماله يتجرَّدون لخير الرعية، ويُثْنِي عليهم لذلك أعظم الثناء؛ فقد كتب إلى عمير بن سعد الأنصاري الأوسي[(٢)] وهو على

---

(١) عبقرية عمر ص (١٥٥ - ١٥٧).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٤٦٩ - ٤٧٥).

حمص: «أقبل بما جبيت من فيء المسلمين»، فلما أقبل عمير سأله عما صنع، فقال: «بعثتني حتى أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهلها، فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به!»، فقال عمر: «فما جئتنا بشيء؟!»، فلما أكد له أنه أنفق كل شيء على أهل حمص، قال: «جددوا لعمير عهدًا»[١].

لقد كان عمر قائدًا سوقيًا، يُعِدُّ الخطط السوقية ويصدر أوامره ووصاياه إلى قادته العاملين وقادته المرءوسين مبينًا لهم السياسة العامة للحرب، ثم يترك لهؤلاء القادة تحمل أعباء كل التفاصيل التنفيذية.

٥ـ إن التاريخ لَيَذْكُرُ لنا نماذج حية رائعة من خطط عمر السوقية أصدرها إلى قادته؛ أوامر جازمة صريحة، ووصايا حاسمة واضحة، كان من نتائجها العصر الذهبي للفتح الإسلامي في أيام عمر الفاروق.

أـ بعد معركة «**اليرموك**» في أرض الشام استخلف أبو عبيدة بن الجراح على «**اليرموك**» بشير بن كعب الحيري، وسار حتى نزل بـ«**الصفر**»[٢]، فأتاه الخبر أن الروم وحلفاءهم المنهزمين اجتمعوا بـ «**فحل**»[٣]، وأتاه الخبر ـ أيضًا ـ بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص؛ فكتب إلى عمر في ذلك؛ فأجابه يأمره بأن يبدأ بدمشق؛ فإنها حصن الشام وبيت ملكهم، ويشغل أهل «**فحل**» بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق، سار إلى «**فحل**»، فإذا فتحت عليهم، سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين[٤].

تلك هي الخطة السوقية لعمر التي بموجبها فُتحت أرض الشام «**سورية، والأردن،**

(١) بقي عمير واليًا على حمص وقنسرين طيلة أيام عمر بن الخطاب؛ **انظر**: ابن الأثير (٣/٨، ٣٠)، والطبري (٣/٢٢٧، ٣٠٤، ٣٣٩).

(٢) الصفر: موضع بين دمشق والجولان. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٥/٣٦٧).

(٣) فحل: اسم موضع بالشام. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٦/٣٤٠).

(٤) ابن الأثير (٢/١٦٤).

ولبنان، وفلسطين»، ومنها يتضح أن عمر بدأ بـ «**هدف العمليات الخطير**»[1]؛ وهو: مدينة دمشق عاصمة البلاد، وبعد فتحها تتوجه الجيوش إلى الأهداف الثانوية، ولكي يحرم الروم وحلفاءهم من تعاون قواتهم في مختلف مناطقها عند فتح دمشق أَمَرَ عمر بتخصيص قوات من الفرسان لمشاغلتهم أثناء محاولة المسلمين فتح دمشق.

لقد أدى تطبيق هذه الخطة السوقية إلى فتح أرض الشام بسهولة ويسر.

ب ـ وقبل معركة «**القادسية**» الحاسمة أَمَرَ عمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصرف جند العراق الذين كانوا في أرض الشام إلى العراق ـ وهم الذين شهدوا معركة «**اليرموك**» ـ، وأمرهم بالحث إلى سعد بن أبي وقاص[2]؛ وذلك لتحشيد أكبر قوة ممكنة في الزمان والمكان المناسبين، فكان لحضور هؤلاء معركة «**القادسية**» أثرٌ كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة على جيوش الفرس الجرارة.

إن مهمة القائد الأعلى هي أن يحشد أكبر عدد من الرجال قبل المعركة الحاسمة؛ ليضمن لجيوشه النجاح والنصر، فإذا كانت قوات العراق قد شهدت معركة «**اليرموك**» الحاسمة، فلا مسوغ لبقائها في أرض الشام بعد انتصار المسلمين في تلك المعركة وبعد فتح دمشق، ومن الضروري أن تعمل تلك القوات في ساحة أخرى أكثر أهمية من ساحات أرض الشام؛ خاصة بعد انكشاف الموقف في تلك الساحات؛ لأن المعارك المتوقعة فيها لا تزيد على معارك تعبوية هي من أجل استثمار الفوز الذي حققه المسلمون في «**اليرموك**» وبعد فتح دمشق.

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص بعد اختياره لحرب فارس: «إذا انتهيت إلى القادسية، وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك[3]

---

(١) هدف العمليات الخطير: هو الهدف الذي متى ما تَمَّ الاستيلاء عليه تنتهي الحرب، أو أن العدو يضطر إلى قبول الصلح؛ وتؤلف عواصم البلاد هدف العمليات الخطير.

(٢) الطبري (٢/٦٢٧).

(٣) المسالح: جمع مسلحة؛ وهي: الحامية الأمامية أو المركز الذي تقيم فيه قوة عسكرية، وهما كالمخافر الحديثة التي فيها قوة عسكرية مناسبة.

على أنقابها[١]، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات المدر والجراع[٢] بينها، ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنك إذا أحسوك[٣] أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وقويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدًا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنت عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي اللَّه بالفتح»[٤].

ونلاحظ في هذه الخطة السوقية الفذة أمورًا عسكرية كثيرة؛ **أهمها:**

أولًا: أن عمر أصاب في معرفة المنطقة التي ستدور عليها المعركة الحاسمة؛ وهي: **«القادسية»**.

ثانيًا: أن معلوماته عن طبيعة أرض المعركة دقيقة جدًّا.

ثالثًا: أنه أعطى خطة واضحة للعمل؛ تُرْسَلُ المسالح؛ لتطوق منطقة **«القادسية»**، وتستطلع أخبار العدو، وتمنعه من التسرب إلى مواضع المسلمين الأصلية، وتقوم هذه المسالح بواجب حماية القوات الضاربة للمسلمين، وتبقى قوات المسلمين الضاربة في منطقة قريبة من الصحراء؛ لكي تنسحب إليها عند الضرورة بسهولة ودون خسائر في الأرواح والمواد.

رابعًا: أن العدو إذا اندحر، كانت هذه المعركة قاضيةً على قواته الضاربة، أما إذا انتصر العدو، كان من السهولة على المسلمين الانسحاب إلى الصحراء التي يعرفونها ويطيقون القتال عليها، ولا يعرفها العدو ولا يطيق القتال في مجاهلها، وعند ذلك

---

(١) أنقاب: جمع نقب؛ وهو: الطريق في الجبل؛ **انظر:** ترتيب القاموس المحيط (٣٧٦/٤)، والمعجم الوسيط (٩٥٢/٢)، وهي تعني: الطرق التقريبية للعدو إلى قوات المسلمين.

(٢) الجراع: جمع أجرع؛ هي: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل؛ **انظر:** المعجم الوسيط (١١٨/١).

(٣) **حَسَّ:** حس الشيء حسًا: استأصله، وحسوهم: استأصلوهم قتلًا.

(٤) **انظر:** عبقرية عمر ص (١٤٥).

يخفق العدو حتمًا في مطاردته المسلمين؛ فيعيد المسلمون على عدوهم الكرة حتى يأتي اللَّه بالفتح.

إنها خطة سوقية سليمة مضمونة النجاح في حالتي النصر أو الاندحار.

ج - وفي سنة سبع عشرة هجرية (٦٣٨م) قصد الرومُ أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بـ «**حمص**»؛ فقد أرسل أهل الجزيرة إلى إمبراطور الروم يحثونه على إرسال الجنود إلى الشام، ويذكرون له أنهم سيعاونونه.

وحين علم المسلمون باجتماع الروم وأهل الجزيرة، سحب أبو عبيدة مسالحه من مواضعها وعسكر بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من «**قنسرين**»[1] إليهم، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغياث؛ فأشار خالد بالمناجزة، وأشار آخرون بالتحصين ومكاتبة عمر؛ فأطاعهم أبو عبيدة، وكتب إلى عمر بذلك، وقد كان عمر اتخذ في كلِّ مِصْرٍ خيولًا على قدره من فضول أموال المسلمين عُدَّةً للحوادث الطارئة؛ فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيمَ عليها سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهليُّ ونفرٌ من أهل الكوفة، وكان في كل مصر من الأمصار الثمانية على قدره، فإن تأتها آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهز الناس، فلما سمع عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص؛ فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدم إليهم في الجد والحث»، وكتب إليه - أيضًا -: «سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت «**الرقة**»؛ فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وسرح عبداللَّه بن عبداللَّه بن عتبان إلى «**نصيبين**»، ثم ليقصد «**حران**» و«**الرها**»، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وسرح عياض بن غنم، فإن

---

(١) قنسرين: مدينة تقع في ديار ربيعة، منها إلى حلب مرحلة صغيرة، ومنها إلى معرة النعمان مرحلة كبيرة. **انظر**: تقويم البلدان ص (٢٦٦، ٢٦٧)، ومعجم البلدان (٧/٦٦٨)، والمسالك والممالك، لابن خرداذبة ص (٧٥)، وأحسن التقاسيم ص (١٥٤)، والبلدان، لابن الفقيه ص (١٧٩).

كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غنم»[١] ، فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على «**الفراض**»[٢] وغير «**الفراض**»، وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أُمِّرَ عليها، وخرج عمر بنفسه من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد «**حمص**» حتى نزل «**الجابية**»[٣] ، ولما بلغ أهلَ الجزيرةِ الذين أعانوا الروم على أهل حمص ـ وهم معهم ـ خبرُ الجنود الإسلامية، تفرقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم، عند ذاك استشار أبو عبيدة خالدًا في الخروج أو البقاء، فأشار عليه خالد بالخروج؛ فخرج إليهم وقاتلهم؛ ففتح اللَّه عليهم، وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام، فكتب أبو عبيدة بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك؛ فكتب إليه: «أشركوهم؛ فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوكم»، وقال: «جزى اللَّه الكوفة خيرًا؛ يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار»[٤] .

أول ما نلاحظ من خطة عمر السوْقية هذه: أنه كان قد أعد في الأمصار خيولًا للطوارئ تتحرك بإنذار قصير إلى الأماكن المهددة بالخطر من دار الإسـلام، وقد حمى عمر بعض المراعي لتلك الخيول؛ فحمى «**الربذة**»[٥] ـ مثلًا ـ لخيول المسلمين[٦] ، وكان عنده خيل موسومة على أفخاذها: «**حبيس في سبيل الله**»[٧] ،

---

(١) الطبري (١٥٤/٣)، وابن الأثير (٢٠٥/٢).

(٢) الفراض: جمع فرضة؛ وهي: المشرعة، والأصل في الفرضة الثلمة في النهر. والفراض تخوم العراق والشام والجزيرة. **انظر:** التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٠/٦).

(٣) الجابية: قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران. التفاصيل في معجم البلدان (٣٣/٣).

(٤) الطبري (١٥٤/٣)، وابن الأثير (٢٠٥/٢).

(٥) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال على طريق ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من قيد تريد مكة. **انظر:** التفاصيل في معجم البلدان (٢٢١/٤).

(٦) ابن الأثير (٢٠٣/٢).

(٧) طبقات ابن سعد (٣٠٦/٣).

يحمل الغزاة عليها.

ونلاحظ ثانيًا: أن عمر أمر بمشاغلة قوات الروم في «**حمص**» بعد أن حرم الروم من معاونة أهل الجزيرة الأشداء لهم؛ وذلك بمهاجمتهم في عقر دارهم.

ونلاحظ ثالثًا: أن الإمدادات تحركت بسرعة هائلة من العراق ومن الحجاز باتجاه «**حمص**»؛ لضرب القوات الرومية؛ مما جعل التفوق بالعدد إلى جانب المسلمين.

ونلاحظ رابعًا: أن هذه الإجراءات السريعة الحاسمة رفعت معنويات المسلمين وحطمت معنويات أعدائهم.

إن حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلًا.. إنه يكاد يكون مستحيلًا حتى في أيامنا الحاضرة هذه، فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرنًا؟!

وهذا يدلنا على ما بلغته الجيوش الإسلامية حينذاك من دقة ومتانة في التنظيم، وهو بعض الجواب على تساؤل المؤرخين قديمًا وحديثًا: كيف تَمَّ الفتح الإسلامي بالسرعة التي تَمَّ بها؟!

إن عمر ـ شخصيًا ـ كان يتدخل في أدق تفاصيل تنظيم هذه الجيوش حسب خطة مرسومة وتفكير عميق؛ قال السائب بن يزيد: «رأيت عمر بن الخطاب يصلح أداة الإبل التي يحمل عليها في سبيل اللّه براذعها وأقتابها، فإذا حمل الرجل على البعير جعل معه أداته»، وكان عمر يُغَزِّي الأعزبَ عن ذي الحليلة، ويُغَزِّي الفارسَ عن القاعد، وكان يعقب بين الغزاة[1]... فما أروع دقة تفاصيل هذا التنظيم، وما أحرى أن تنتصر مثل هذه الجيوش التي على رأسها مثل عمر قائدًا أعلى.

د ـ وحين قدم الأحنف بن قيس التميمي على رأس وفد على عمر بعد فتح «**تُستَر**» كما ذكرنا، سأل عمر الْوَفَدَةَ قائلًا: «لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة، فلهذا ينتقضون

(١) طبقات ابن سعد (٣/٣٠٦).

بكم؟!»، وكان يشير إلى انتقاض الهرمزان الذي كان مع الوفد بعد صلحه مع المسلمين، فقال الأحنف: «يا أمير المؤمنين، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وإن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وإن ملكهم يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلاهم ونزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس»؛ فقال عمر: «**صدقتني والله**»، وأذن في الانسياح في بلاد فارس[1].

واطمأن عمر إلى انتصار جنده في معركة «**نهاوند**» الحاسمة؛ فذكر نصيحة الأحنف له بالانسياح في أرض فارس؛ فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة إلى نهر منقطع ذمة البصرة، فيكون هناك حتى يأتيه أمره، ودفع لواء «**خراسان**» إلى الأحنف بن قيس، ولواء «**أردشير خرَّة**» إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء «**أصطخر**» إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء «**فسا**» و«**دار ايحرد**» إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء «**كرمان**» إلى سهيل بن عدي، ولواء «**سجستان**» إلى عاصم بن عمرو، ولواء «**مكران**» إلى الحكم بن عمير التغلبي، وأمدهم عمر بنفر من أهل الكوفة؛ فأمد سهيل بن عدي بعبد اللَّه بن عبداللَّه بن عتبان، وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر، وبعبداللَّه بن أبي عقيل، وبربعي بن عامر، وأمد عاصم بن عمرو بعبد اللَّه بن عمير الأشجعي، وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق في جموع[2].

هذه الخطة السوقية لعمر، التي بدأ تنفيذها بعد معركة «**نهاوند**» الحاسمة، هي خطة؛ لاستثمار الفوز؛ من أجل القضاء على مقاومات الفرس التعبوية في بلادهم، وتطهير أرض فارس من الجيوش المعادية للمسلمين.

إن هذه الخطة الرصينة حرمت الفرس من تعاون قواتهم في منطقة معينة في وقت

---

(١) الطبري (٣/١٨٤، ١٨٥)، وابن الأثير (٢/٢١٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٢١٤).

معين تحت قيادة موحدة، وجعلت أهل كل منطقة يدافعون عن منطقتهم وحدهم أمام تيار المسلمين الجارف الذي حشد له عمر أكبرَ عدد ممكن من الرجال بقيادة ذوي الكفايات من القادة البارزين المجربين الذين تسلموا مناصبهم بجدارة تامة وبدون محاباة، أو عاطفة، أو محسوبية، أو منسوبية، أو صلة قربى أو صداقة.

ثم فتح فارس بموجب هذه الخطة؛ فوجد الفرسُ أن حكم العرب المسلمين أكثر إنصافًا وعدلًا، وأقل إرهاقًا من حكم الأكاسرة؛ فقد تركهم المسلمون لم يزعجوهم عن دينهم، ولم يتدخلوا في شئونهم، ثم جعلوا لأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم في عهد «**يزدجرد**» وأسلافه، كما تركوا لهم المناصب العامة ولم يحاولوا استغلالها لأنفسهم، مكتفين بالجزية يقتضونها وفاقًا للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات[١].

هـ- وفي فتح مصر أشفق عمر على جيش عمرو بن العاص؛ فبعث الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا[٢]، وبذلك استطاع عمرو فتح بلاد وادي النيل.

هذه هي بعض خطط عمر السوقية: خطة لفتح العراق، وخطة لفتح أرض الشام، وخطة لفتح بلاد فارس، وخطة لفتح مصر الذي امتد من أرض الكنانة إلى ليبيا وأرض النوبة.

تلك أمثلة رائعة من خططه السوقية للفتح، تُصَوِّرُ لك كيف نهض عمر بتبعات قيادته قائدًا أعلى لجيوش المسلمين في عصر الفتح الذهبي، إنها تكشف لك عن السر في قدرته الممتازة على الاضطلاع بأعبائه الجسام على نحو لا يزال مَثَارًا لعجب الناس وإعجابهم، كما تبين لك كيف كانت قابليات عمر القيادية من أهم الأسباب التي هيأت لامتداد الفتح شرقًا وغربًا، ودفعت المسلمين إليه، ورغبتهم فيه؛ لقد كانوا يرون أمير المؤمنين خير كفيل بحقوقهم وبمن يخلفون وراءهم من عيالهم وذويهم، وكانوا

---

(١) الفاروق عمر (٢/٥٨).

(٢) **انظر:** فتوح مصر والمغرب ص (٩٢)، **وانظر:** كتاب الولاة وكتاب القضاة ص (٨).

يرونه يؤثر على نفسه وأهله، ويؤدي لكل ذي حق حقه؛ فلا جَرَمَ أنهم لَيَنْدَفِعُونَ إلى ميادين القتال وكلهم الطمأنينة إلى غدهم وإلى مصير أبنائهم وذويهم، وما ضَرَّ أحدهم أن يُقتل في سبيل اللَّه وفي سبيل الفتح الإسلامي، وهو على يقين أن بنيه سَيُجْزَوْنَ إذا استشهد بخير مما كانوا يجزون به إذا ظل حيًّا، وأنه سَتُفتح له أبواب الجنة مما وهب اللَّه نفسه مجاهدًا في سبيله[1].

٦- وإذا كُتِبَ لخطط عمر السوقية النجاحُ الفذُّ؛ فلأنه بناها على أسس قويمة، ولعل من أهم هذه الأسس هو تطبيقه مبدأ «**التحشد**» تطبيقًا بَلَغَ حَدَّ الروعةِ عَدَدًا وعُدَدًا؛ فكان قادته لا يخوضون غمار معركة قبل أن تتوالى عليهم إمدادات عمر؛ الخيل تتبعها الخيل، والرجال تتبعها الرجال، كما يقول عمر عن تلك الإمدادات.

لقد حرم أبو بكرٍ الصديقُ المرتدين من شرف مشاركة المجاهدين في شرف الجهاد من أجل نشر الإسلام ولتكون كلمة اللَّه هي العليا؛ فقد كتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم: « استنفروا من قاتل أهل الردة وَمَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول اللَّه ﷺ، ولا يَغْزُوَنَّ أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رأيي»، فلم يشهدِ الأيامَ مرتدٌّ[2].

أما عمر، فقد استفتح خلافته بقوله: «إنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضًا، وقد وسع اللَّه ﷻ وفتح الأعاجم»، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيدها، وجعل فداء كل إنسان سبعة أبعرة وستة أبعرة إلا حنيفة وكندة؛ فإنه خَفَّفَ عنهم لقتل رجالهم، فتتبع النساء بكل مكان وَفَدُوهُنَّ[3].

كما أمر عمر باستنفار من حَسُنَ إسلامه من أهل الردة[4]، وندب أهل الردة فأقبلوا سراعًا من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق[5].

---

(١) **انظر**: الفاروق عمر (٢/٢٢٦).
(٢) الطبري (٢/٥٥٠، ٥٥٤).
(٣) الطبري (٢/٥٤٩)، وابن الأثير (٢/١٤٧).
(٤) ابن الأثير (٢/١٦٦).
(٥) الطبري (٢/٦٣٤).

لقد كان عمر يرى أن العرب مادة الإسلام، وأنهم هم مادة الفتح الإسلامي قادة وجنودًا؛ لذلك كتب عمر إلى ملك الروم حين أخبره الوليد بن عقبة عن دخول بعض القبائل العربية من أهل الجزيرة ديار الروم: «بلغني أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فواللَّه لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك»، فأخرجهم ملك الروم، فخرج منهم أربعة آلاف وتفرق بقيتهم فيما يلي الشام والجزيرة وبلاد الروم، فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف، وأبي الوليد بن عقبة أن يقبل من «**تغلب**» إلا الإسلام، فكتب فيهم إلى عمر، فكتب إليه عمر: «إنما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام، فدعهم على ألا ينصروا وليدًا ولا يمنعوا أحدًا منهم من الإسلام»[١]، وأضعف عمر الصدقة عليهم عوضًا عن الخراج[٢]، فقد أراد عمر أن يأخذ الجزية منهم فانطلقوا هاربين في أرض اللَّه الواسعة، فقال عبادة بن النعمان التغلبي[٣]: «يا أمير المؤمنين! إن بني تغلب قد علمت شوكتهم، وأنهم بإزاء العدو، فإذا ظاهروا عليك العدو اشتدت مئونتهم، فإن رأيت أن تعطيهم شيئًا، فافعل»، فصالحهم عمر على مضاعفة الصدقة عليهم عوضًا عن الجزية[٤].

إنه استمال قلوب العرب بكل ذلك وأراد أن يشعروا كل الشعور بعزتهم وكرامتهم، وبذلك استطاع أن يطبق مبدأ «**التحشد**» على العرب كافة، وبعثهم إلى ساحات القتال جيوشًا ومددًا.

٧ـ وكانت الوحدة السياسية لبلاد العرب بعض ما شُغِلَ به عمر في خلافة أبي بكر الصديق، فلما استُخلف كان تثبيتُ هذه الوحدة وتوطيدُ دعائمها أولَ ما اتجه إليه هَمُّهُ، وقد هداه تفكيره إلى أن هذه الوحدة لن تكون سليمة إلا أن تصفوا من كل

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٦).

(٢) الخراج ص (١٤٤).

(٣) هكذا ورد في الخراج ص (١٤٣)، وفي البلاذري ص (١٨٥) وَرَدَ اسمه: النعمان بن زرعة أو زرعة بن النعمان.

(٤) الخراج ص (١٤٣)، والبلاذري ص (١٨٥، ١٨٦).

شائبة، وذلك بأن يكون الجنس العربي كله متحدًا في موطنه وعقيدته كاتحاده في لغته، واليهودية والنصرانية لا تزالان قائمتين في شبه الجزيرة العربية، أتراه يستطيع إجلاءهما عنها من غير أن يخالف كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ؟

لقد وادع رسولُ اللّه ﷺ اليهودَ أول ما نزل بيثرب، فلما نقضوا عهدهم وحاولوا الغدر به أجلاهم عن المدينة المنورة، ثم إنه أجلاهم عن أكثر مواطنهم في شبه الجزيرة العربية لَمَّا ناصبوه العداوة، ألا يدل ذلك على أن بقاء اليهود في موطنهم لم يكن حقًّا لهم يجب احترامه، وإن موادعتهم، كانت سياسة قضت بها مصلحة الدولة أو العهد بيثرب، فلما رأى الرسول ﷺ مصلحة الدولة العليا لا تستقيم بها عدل عنها إلى سياسة غيرها؟! ومصلحة الدولة العليا توجب في رأي عمر أن توحد العقيدة في شبه الجزيرة العربية كلها؛ لذلك كان من أول ما استفتح به عهده أن أجلى نصارى «**نجران**» عن شبه الجزيرة العربية، فأمر يَعْلى بن أمية ألا يفتنهم عن دينهم وأن يخرج معهم من أقام على نصرانيته، وأن يعطوا بالعراق أرضًا كأرضهم بنجران، وأن تحسن معاملتهم[١]، كذلك فعل بمن بقي من اليهود بخيبر أو بفَدك: أجلاهم عن أرضهم إلى الشام، وعوضهم عنها بمال يعدل قيمتها، ولم يسئ إلى أحد منهم؛ بذلك خلصت شبه الجزيرة العربية من كل عقيدة إلا الإسلام، فتوطدت فيها قواعد الوحدة

---

(١) **انظر**: الخراج، لأبي يوسف ص (٨٧، ٨٨).

وفيه ما كتب لهم عمر: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران؛ مَنْ سار منهم آمِنٌ بأمان الله، لا يضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه.

أما بعد: فَمَنْ مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق، فليوسقهم ـ الوسق ستون صاعًا. قال الخليل: الوسق حمل البعير. وَأَوْسَقَ البعيرَ: حَمَّلَهُ حِمْلَهُ ـ من حرث الأرض، فما احتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله، وعقبة لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.

أما بعد. فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم؛ فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم).

التي قصد إليها أمير المؤمنين.

هذا تصوير واضح للباعث الذي دفع إلى إخراج اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية، وهو في ذلك لم يخالف سنة ولم يخرج عليها، فعهد رسول الله ﷺ مع اليهود والنصارى لم يكن سنة تثبت حكمًا، بل كان سياسة تغيرت في عهد الرسول ﷺ، فلا بأس أن تتغير بعده، وإنما غيرها عمر؛ لأن أحداث الوقت وامتداد الفتح وشدة الحرص على تمكين أواصر الوحدة في شبه الجزيرة العربية قضت بتغييرها، وما كان عمر ليجمد على عهد تغير عليه العهد وأصبح مضرًّا بمصلحة الدولة وسياستها العليا، فكيف به وهو موقوت بطبيعته، ينقضي بانقضاء مدته، ولا يتجدد إلا إذا رَضي أمير المؤمنين بتجديده؟

لقد استند عمر في إجلاء اليهود والنصارى إلى ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يجتمع ببلاد العرب دينان**»، وأن عمر خافهم على المسلمين[(١)] وأن نصارى نجران بعد أن استخلف عمر أصابوا الربا وكثروا، فخافهم على الإسلام فأجلاهم[(٢)]، ولكن عمر أمر عماله بالعراق والشام أن يعوضوهم عن أرضهم وأن يحسنوا معاملتهم، ولو أنه أجلاهم لأنهم نقضوا عهدهم لما لطف بهم كل هذا اللطف، ولما أحسن معاملتهم كل هذا الإحسان.

ولكن لا يكفي لتثبيت دعائم الوحدة في بلاد العرب ألا يبقى بها دين غير الإسلام، إذا بقي من الفوارق بين أهلها من العرب ما يجعلهم يشعرون بأن بعضهم أكثر حرية من بعض أو أوفر كرامة من بعض، وإذا لم تقم المساواة الصحيحة الكاملة بينهم عَلَمًا على سلامة تضامنهم، وقد بقيت بعض الفوارق بينهم بسبب الردة والحروب التي قضت عليها، أما وعمر يريد الوحدة الصحيحة الكاملة فلا بد من القضاء على هذه الفوارق بإزالة أسبابها؛ لذا رفع عن أهل الردة ما كان أبو بكر قد

(١) الخراج ص (٨٧)، وسنفرد لها عنوانًا هو (إخراج اليهود من جزيرة العرب).
(٢) البلاذري ص (٧٧).

فرضه عليهم ألا يحاربوا في صفوف المسلمين، كما أمر برد السبي من العرب إلى عشائرهم ورد حريتهم إليهم؛ لأنه كره أن يكون السبي سُنَةً في العرب؛ بذلك استفتح عهدًا سرى معه في نفوس العرب جميعًا روح أشعرهم ـ على اختلاف مواطنهم من شبه الجزيرة العربية ـ بأنهم أمة واحدة، لها هدف واحد مشترك، وتوجهها سياسة عامة ومصلحة عليا يهيمن عليها عمر.

هذه هي المصلحة العليا التي أملت على عمر ما قدمت تحقيقًا لوحدة العرب تحت ظل الإسلام[١]؛ وبذلك أصبح العرب المسلمون قوة جبارة وجدت لها متنفسًا في الفتح الإسلامي العظيم، واستطاعت تحمل أعبائه الجسام بكل جدارة واندفاع.

إن قرار توطيد أركان الوحدة العربية في شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ـ وذلك بالاستناد على مبدأين: لا يجتمع ببلاد العرب دينان، ولا فرق بين العرب في الحقوق والواجبات ـ هو قرار مصيري ما كان الفتح الإسلامي في عهد عمر ليتم بمثل ما تم عليه من قوة وسعة وشمول وسرعة، لو لم يتخذه عمر هدفًا حاسمًا ويعمل على وضعه في حيز التنفيذ بحزم وحكمة؛ لأن الفتح لا بد أن يستند على قاعدة أمينة، وشبه الجزيرة العربية كانت قاعدة[٢] الفتح التي انطلق منها مكتسحًا الحدود والسدود والعقبات.

٨ـ ولكن هذه القاعدة الأمينة وهي الجزيرة العربية كانت **«قاعدة عمليات»**[٣] بالدرجة الأولى، عليها تستند الجيوش الإسلامية في الفتح الإسلامي الأول، ومنها تنطلق إلى واجباتها، وعلى سكانها تعتمد في تكوينها وتزويدها بالرجال، وإدامة سيل إمدادها بالمجاهدين.

---

(١) الفاروق عمر (٢/٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) القاعدة: هي البلاد التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات. **انظر**: الجغرافية العسكرية ص (١١).

(٣) قاعدة العمليات: هي القاعدة التي يشرع منها الجيش أو تشرع منها الجيوش في العمليات الفعلية وتستند عليها.

ولم تكن هذه القاعدة الأمينة «**قاعدة تموين**»[(١)] للجيوش الإسلامية بالمعنى الواسع لقاعدة التموين؛ لأن المسلمين كانوا يأخذون منها السلاح الضروري والذخيرة الضرورية لخوض معاركهم، ويتزودون منها بما يبلغهم مناطق عملياتهم من الأرزاق، وهي المنبع الأول لإبلهم وخيولهم، ولكنهم إذا وصلوا إلى مناطق العمليات تزودوا من هناك بمتطلباتهم الإدارية من سلاح وذخيرة وأرزاق وإبل وخيل وتجهيزات، ويكون اعتمادهم الأول على ما يفيء اللَّه به عليهم منها نتيجة للمعارك التي يخوضونها، وعلى الجزية والخراج والغنائم والأنفال... إلخ التي يحصلون عليها نتيجة لتلك المعارك.

هذا هو الفرق بين قاعدة الجيوش الإسلامية الأمينة، وبين قواعد الجيوش الغازية الأخرى: قاعدة المسلمين قاعدة عمليات، وقاعدة غير المسلمين قاعدة عمليات وقاعدة تموين على حد سواء.

من هنا جاءت الفروق بين التشريعات الإسلامية التي وضع عمر أكثر أسسها وبين التشريعات غير الإسلامية، فما هي تلك التشريعات والأسس التي قررها المسلمون الأولون وعلى رأسهم أمير المؤمنين؟

شُغِلَ عمر بكثرة الأموال التي كان عماله يبعثون بها، ورأى أن لا بد من وضع نظام لإحصائها وتوزيعها، ولم تكن هذه الأموال ما يؤديه المسلمون في شبه الجزيرة العربية من الزكاة والصدقات، فتلك كانت توزع على الذين نزل فيهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: ٦٠][(٢)]، وكان الكثير من هذه الصدقات لا يرسل إلى

---

(١) قاعدة التموين: هي البلاد أو المدينة التي يأخذ الجيش مهماته وأرزاقه منها.

(٢) **انظر**: تفسيرها في (تفسير ابن كثير) (١٨٥/٤) و(البغوي بهامش ابن كثير) (١٨٦/٤)، و(تفسير الكشاف) (٣٨/٢)، و(أنوار التنزيل) (٧٢/٣)، و(فتح الباري بشرح البخاري) (٢٤٨/٨).

المدينة المنورة، بل يوزع على الفقراء والمساكين من أهل القبائل والأمم التي تؤديها، فأما ما كان يرسل منها إلى المدينة المنورة ـ ومعظمه من الإبل والماشية ـ، ثم يفيض بعد التوزيع عن حاجة مَنْ وَرَدَ ذكرهم في آية الصدقات، فكان يوسم بميسم خاص ويوضع على مقربة من المدينة المنورة بمكان أطلق عليه اسم: الحمَى، فإذا غزا المسلمون أعانوا بهذه الإبل والأموال من لا يجد دابة تحمله أو سلاحًا يقاتل به، وعالوا فقراء المسلمين بما بقي منها.

وأما ما كان المسلمون يغنمونه في غزوات رسول اللّٰه ﷺ من الفيء، فكان هو يوزعه بعد المعركة ولا يُبْقِي منه شيئًا، وقد سار أبو بكر سيرته وصنع صنيعه، فكان ما يرد من فيء العراق ـ مثلًا ـ يوزع بين أهل المدينة المنورة ولا يَبْقَى منه شيء.

وجرى الأمر على ذلك في العهد الأول من خلافة عمر، ولكن اتساع رقعة الفتح زاد في أموال الفيء، كما فتح موردًا آخَرَ أغزر مادة وأبقى، ذلك هو مورد الخراج والجزية، فقد صالح المسلمون أهل البلاد التي فتحوها في العراق وفارس وفي أرض الشام ومصر على أن يدفعوا جزية كان متوسطها على كل رأس دينارين [١]، وذلك فضلًا عن الخراج الذي كان الزراع يدفعونه عن أرضهم، فينفق جانب منه على مرافقهم وعلى تنظيم الحكم فيهم، ويرسل ما بقي منه بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وقد بلغت غزارة هذا المورد قبل أن يتم فتح فارس وقبل أن يبدأ غزو مصر مبلغًا حمل الخليفة على التفكير في إقامة نظام مالي للدولة الناشئة.

قدم أبو هريرة من «**البحرين**»، فسأله عن الناس، ثم قال: «ما جئت به؟»، قال: «جئت بخمس مئة ألف درهم»، فدهش عمر وقال: «هل تدري ماذا تقول؟»، فأعاد أبو هريرة أنه جاء بخمس مئة ألف درهم، وظن عمر أن الرجل يبالغ، فكرر عليه السؤال: فلما سمع الجواب الأول قال له: «إنك ناعس، فارجع إلى أهلك فنم، فإذا أصبحت فأتني». فلما غدا عليه أبو هريرة وأكد له أنه جاء بخمس مئة ألف درهم،

(١) **انظر**: تفصيل ذلك في (الخراج) ص (٢٨ ـ ٣٢).

قال عمر للناس: «إنه قدم علينا مالٌ كثيرٌ، فإذا شئتم أن نعده لكم عدًّا، وإن شئتم أن نكيله كيلًا»، فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين! إني رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانًا يعطون الناس عليه»، فدوَّن عمر الديوان[١].

وقيل: إن عمر استشار الناس في تدوين الديوان، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تقسم كل سَنَةٍ ما اجتمع عليك من مال ولا تبق منه شيئًا»، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحصَوا حتى نعرف مَنْ أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر»، فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: «**يا أمير المؤمنين! قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديوانًا وجنَّدوا جنودًا، فَدَوِّنْ ديونًا وَجَنِّدْ جنودًا**»، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب، ومحرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم وكانوا من نساب قريش، فقال لهم: «**اكتبوا الناس على منازلهم**»[٢]، وقال: «ابدءوا بقرابة الناس منه ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله»[٣].

بدأ ببني هاشم، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان الناس إذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ قدم أهل السابقة حتى أتى إلى الأنصار، فقالوا: «**بمن نبدأ؟**» فقال عمر: ابدءوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ، وفرض عمر لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد «**أحدًا**» أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم، وفرض لأبناء البدريين ألفين إلا حسنًا وحسينًا فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبدالمطلب

---

(١) **انظر**: طبقات ابن سعد (٣/٣٠٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٥).

خمسة آلاف درهم لقرابته برسول اللَّه ﷺ، ولم يفضل أحدًا على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ، فإنه فرض لكل امرأة منهن اثني عشر ألف درهم، وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة آلاف درهم، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم، فقال عبداللَّه بن عمر: «فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة، فقال عمر زدته لأنه كان أحب إلى رسول اللَّه ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول اللَّه ﷺ من أبيك»، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس بابًا واحدًا، فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة المنورة في خمسة وعشرين دينارًا لكل رجل، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسع مئة إلى خمس مئة إلى ثلاث مئة، لم ينقص أحدًا عن ثلاث مئة، وقال: «لئن كثر المال، لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يخلفها لأهله، وألف لفرسه وبغله»، وفرض لنساء مهاجرات: فرض لصفية بنت عبدالمطلب ستة آلاف، ولأسماء ابنة عميس ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم... إلخ.

وكان عمر يفترض للمنفوس مئة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مئتي درهم، فإذا بَلَغَ زَادَهُ، وكان إذا أُتِيَ باللقيط فرض له مئة درهم، وفرض له رزقًا يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيرًا ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال.

قال حزام بن هشام الكلبي: «رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل «**قُديدًا**»[1] فتأتيه بقُديد، فلا تغيب عنه امرأة بِكْرٌ وثيب، فيعطيهن في أيديهن، ثم

(١) قديد: اسم موضع قرب مكة.
انظر: التفاصيل في معجم البلدان (٣٨/٧).

يروح فينزل «**عسفان**»[١] فيفعل مثل ذلك، حتى توفي»[٢].

وقال عمر: «**والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه**»؛ يعني: في طلبه[٣]...

وكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان: أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتب إليه: «**إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير**» فكتب إليه عمر: «**إنه فَيْؤُهُمُ الذي أفاء الله عليهم وليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم**»[٤].

عن سالم بن عبدالله قال: «فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحدًا من الناس إلا فرض له، حتى بقيت بقية لا عشائر لهم ولا موالي، ففرض لهم ما بين المئتين إلى ثلاث مئة»[٥].

قال عمر: «لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم»[٦]، وقال: «لئن عشت لأجعلن عطاء المسلمين ثلاثة آلاف[٧]، وَرِزْقَ الناس جريبين كل شهر: المرأة والرجل والمملوك جريبين جريبين كل شهر»[٨].

وكان عمر يحمي «**النقيع**»[٩] لخيل المسلمين، ويحمي «**الربذة**» و«**الشرف**»[١٠] لإبل الصدقة، وكان يحمل على ثلاثين ألف بعير في سبيل الله كل سنة[١١]

---

(١) عساف: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. **انظر**: معجم البلدان (١٧٤/٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٩٥/٣، ٢٩٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٣٠٠/٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٩٩٩/٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٣٠٤/٣).

(٦) طبقات ابن سعد (٣٠٣/٣).

(٧) طبقات ابن سعد (٣٠٤/٣).

(٨) طبقات ابن سعد (٣٠٥/٣).

(٩) النقيع: واد من أودية الحجاز، يدفع سيله إلى المدينة المنورة، والنقيع موضع قرب المدينة. **انظر**: التفاصيل في معجم البلدان (٣١٢/٨).

(١٠) الشرف: موضع في الربذة. **انظر**: معجم البلدان (٢٥٣/٥).

(١١) طبقات ابن سعد (٣٠٥/٣).

دوَّن عمر الديوان وفرض العطاء؛ ليتفرغ العرب للجهاد في سبيل الله، وقد أعان تدوين الديوان وفرض العطاء أولئك العرب الأولين على أداء الرسالة التي فرضت الأقدار عليهم أداءها.

والديوان كلمة فارسية معربة معناها: مجتمع الصحف، يُكْتَبُ فيها رجال الجيش ومن فُرض لهم العطاء، وقد تطور مدلول هذه الكلمة من بعد، فصارت تطلق على الأمكنة التي يجلس فيها القائمون على هذه السجلات؛ كما تطلق على السجلات نفسها، وبديهي أنها لم تتعد في عهد عمر معناها الأول، فكان الديوان سجلًا أحصي فيه من فرض لهم العطاء من رجال الجيش ومن غيرهم، وذكر فيه أمام كل اسم عطاءُ صاحبه[1].

إن تدوين الديوان جعل لكل جندي يقاتل في الجبهة عطاء مضمونًا يجعله قرير البال على أهله وذويه في مدينته أو في قريته أو في صحرائه، له تأثير معنوي كبير فيه؛ لأن الجندي الذي لا يطمئن كل الاطمئنان إلى الحالة المعيشية لأهله وذويه لا يقاتل كما ينبغي.

٩- ولكن لا بد للجيوش من موارد ثابتة تديم الأمور الإدارية لهم في أيام الفتح وبعده؛ لذلك أبى عمر أن يقسم أرض «**السواد**»[2] على الفاتحين، سأل بلال بن رباح وأصحابهُ عمرَ قسمة ما أفاء اللَّه عليهم من العراق والشام وقالوا: «اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر»، فقال عمر: «لقد أشرك اللهُ الذين يأتون

---

(١) الفاروق عمر (٢/٢٢٧، ٢٣١)، **وانظر**: ما جاء عن تدوين الديوان وفرض العطاء في (الطبري) (٣/ ١٠٨، ١١٣)، و(ابن الأثير) (٢/١٩٤، ١٩٥)، و(مقدمة ابن خلدون) ص (٢٤٣، ٢٤٤)، و(الأحكام السلطانية، للماوردي) ص (١٩٩، ٢٠٣)، و(كتاب الوزراء والكتاب) ص (١١)، و(الإدارة الإسلامية في عز العرب) ص (٤٤، ٤٦)، و(الخراج) ص (٤٩، ٥٦) إلخ.

(٢) أرض السواد: أرض العراق وضياعها، سماه العرب: سوادًا؛ لخضرته بالزروع والأشجار. وحد السواد من حديثة الموصل طولًا إلى عبادان، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية شرق خانقين وبالقرب منها عرضًا. **انظر**: التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٥٩).

من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبقَ لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه» وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص حين افتتح العراق: «أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء اللَّه عليهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال، فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرض والأنهار لعمالها؛ ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء، وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وله سهم في الإسلام، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة، فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام؛ لأنهم قد أحرزوه قبل إسلامه، فهذا أمري وعهدي إليك».

وأصاب سعد مئة ألف فلاح في بعض غزواته، فأرسل إلى عمر يستأذنه، فأجابه: «إن ما جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانة، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به»، فخلى سعد عنهم، وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة، فلم يبقَ غربيَّ دجلة إلى أرض العرب سواديٌّ إلا آمن واغتبط بملك الإسلام[1].

وبعد فتح مصر كتب عمرو بن العاص إلى عمر يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر: «لا تقْسمها وذرهم يكون خراجها فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم»[2].

وبذلك أصبح خراج الأراضي وجزية الرءوس وما كان بمعناها موارد ثابتة للدولة تصرف إلى عمارة الدِّين والمصالح العامة، ومنها رواتب الولاة والقضاة وأهل الفتوى

---

(١) الخراج ص (٢٨، ٢٩)، وانظر: البلاذري ص (٤٣٣).
(٢) ابن الأثير (١٧/٢٩).

من العلماء والجيش وإصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات «**للجهاد**» والقناطر والجسور وسد الثغور وإصلاح الأنهار العامة[١].

لم يسترح بعض الفاتحين إلى رأي عمر في تأميم الأرض المفتوحة، فلما ألح عليه بعضهم بقسمة الأرض استشار المهاجرين الأولين فاختلفوا، فأرسل إلى عشرة من الأنصار؛ خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق: خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبنوا هذا الذي هو هواي، معكم من اللَّه كتاب ينطق بالحق، فواللَّه لئن كنت نطقت بأمر ما أريد به إلا الحق[٢]»، قالوا: «قل نسمع يا أمير المؤمنين!»، فقال: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ باللَّه أن أركب ظلمًا، لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيته غيرهم، لقد شقيت! ولكن رأيت أنه لم يبقَ شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا اللَّه أموالهم وأرضهم وعلوجهم[٣]، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور[٤]، لا بد لها من رجال يلزمونها! أرأيتم هذه المدن العظام، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، ولا بد من إدرار العطاء عليهم! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قُسِمَتِ الأرضون والعلوج؟!»، فقالوا جميعًا: «الرأي رأيك، فَنِعْمَ ما قلتَ وما رأيتَ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه

(١) فتوح مصر والمغرب ص (١٢٤).

(٢) اشتراكية الإسلام، للسباعي ص (٢٠٨) الطبعة الثانية، **وانظر**: النزعة الاشتراكية في الإسلام ص (١٨٧).

(٣) علج: يوزن العجل؛ الواحد من كفار العجم، والجمع: علوج وأعلاج وعلجة.

(٤) الثغور: جمع ثغر؛ موضع المخافة من فروج البلدان.

المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم»، فقال: «بان لي الأمر، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟»، فاجتمعوا على عثمان بن حُنيف وقالوا: «**تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصرًا وعقلًا وتجربة**»، فأسرع إليه عمر وولاه مساحة الأرض، فأدت جبايةُ سوادِ الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئةَ ألف ألف درهم، والدرهمُ يومئذٍ درهم ودانقان ونصف، وكان وزن الدرهم يومئذٍ وزن المثقال(١).

وقال عمر للذين أرادوه أن يقسم أرض الشام: «**إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم**»(٢)، ولم يقسم الأرض، بل تركها لعمالها؛ ليكون خراجها في أعطيات المسلمين.

ولم يقسم أرض مصر - كما أسلفنا -؛ ليكون خراجها في أعطيات المسلمين - أيضًا.

وكان عمل عمر هذا كما يقول الإمام أبو يوسف في كتابه «**الخراج**»: «والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها - عندما عرَّفه اللَّه ما كان في كتابه من بيان ذلك - توفيقًا من الله، كان له فيما صنع فيه الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته عموم النفع لجماعتهم؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن بالثغور ولم تَقوَ الجيوشُ على السير في الجهاد، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة»(٣).

١٠- ولم تقف همة عمر على تأمين ركوب المقاتلين ورواتبهم وتأميم الأرض

---

(١) الخراج ص (٣٠، ٣١) **وانظر**: الخراج، لقدامة بن جعفر ملحق بالمسالك والممالك (٢٣٧، ٢٣٩) حول تفاصيل واردات السواد.

(٢) الخراج ص (٣١).

(٣) الخراج ص (٣٢).

المفتوحة لتكون رصيدًا لا ينضب لرواتب الجيوش وتسليحهم وتنقلهم ولإعداد قضاياهم الإدارية كافة، بل ذهبت همته إلى أبعد من ذلك: تأمين السكن لهم.

ففي سنة سبع عشرة الهجرية «٦٣٨م» أرسل سعد بن أبي وقاص وفدًا إلى عمر بفتوح العراق، فلما رآهم عمر سألهم عن تغير ألوانهم وحالهم فقالوا: «**لوخومة البلاد عندنا**»، فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلًا ينزله الناس[1].

وقيل: بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر: «إن العرب قد رقَّت بطونها، وجفت أعضادها، وتغيرت ألوانها»، وكان حذيفة مع سعد، فكتب عمر إلى سعد: «أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم»، فكتب إليه سعد: «إن الذي غيرهم وخومة البلاد، وأن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان»، فكتب إليه عمر: «أن ابعث سلمان[2] وحذيفة[3] رائدين، فليرتادا منزلًا بريًّا بحريًّا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»، فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى أتى «**الأنبار**»، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة بن اليمان في شرقي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة ـ وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة ـ فأتيا عليهما فأعجبتهما البقعة، فلما رجعا إلى سعد وقدم كتاب عمر إليه ـ أيضًا ـ، كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبدالله بن المعتم أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده، وارتحل سعد من «**المدائن**» حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة الهجرية، فكتب إلى عمر: «إني قد نزلت بالكوفة منزلًا فيما بين الحيرة والفرات بريًّا وبحريًّا، تنبت الحلفاء[4] والنصيَّ[5]، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فمن أعجبه المقام في المدائن تركته فيها كالمسلحة»، ولما استقروا بها رجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم،

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٣).

(٢) سلمان الفارسي.

(٣) حذيفة بن اليمان.

(٤) الحَلْفَاء: نبات حمله قصب النشاب؛ **انظر**: التفاصيل في (لسان العرب) (١/٤٠٢).

(٥) النصي: نبت سبط من أفضل المراعي، واحده نصية.

فاستأذن أهل الكوفة في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل «**البصرة**» ـ أيضًا ـ التي استقر منزل المسلمين فيها في الشهر الذي نزل فيه أهل الكوفة مدينتهم، فكتب إليهم: «**إن العسكر أشد لحربكم وأذكر لكم، ما أحب أن أخالفكم**»، فابتنى أهل المصرين بالقصب، ولكن الحريق وقع في الكوفة والبصرة، فبعث سعد نفرًا منهم إلى عمر يستأذنونه في البنيان باللبن، فقال: «**افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة**»، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان وأهل البصرة بمثل ذلك، وقدر المناهج أربعين ذراعًا ما بين ذلك عشرين ذراعًا، والأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء، والقطائع ستين ذراعًا، وأول شيء خط في البصرة والكوفة مسجداهما، وقام في وسطهما رجل شديد النزاع فرمى في كل جهة بسهم وأمر أن يبنى ما وراء ذلك، وبنى ظلة في مقدمة مسجد الكوفة على إحاطين من رخام، فبنى المسجد في مربعة لاجتماع الناس فيها؛ لئلا يزدحموا، وبنوا لسعد دارًا بحياله وهي قصر الكوفة [١].

وعزل عمر عتبة بن فرقد السلمي [٢] عن الموصل وولاها عرفجة البارقي، وكان بها الحصن وبيع النصارى ومنازل لهم قليلة عند تلك البيع، فحصرها عرفجة وأنزل العرب منازلهم واختط لهم ثم بنى المسجد الجامع [٣]، كما أن عرفجة نزل «**حَدَيْثه الموصل**» [٤] وكانت قرية فيها بيعتان، فحصرها واختطها قبل الموصل الحدباء [٥].

وبنى أبو مدلاج التميمي «**حديثه الفرات**» [٦] في أيام عمر، وكان قد بعثه عمر

---

(١) الطبري (٣/١٤٧، ١٥١)، وابن الأثير (٢/٢٠٣، ٢٠٥).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٤١٥ - ٤٢٢).

(٣) البلاذري ص (٣٢٧)، ومعجم البلدان (٣/٢٣٤).

(٤) حديثة الموصل: بُلَيْدَةٌ كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/٢٣٤)، و(المشترك وضعًا) ص (١٢٣).

(٥) معجم البلدان (٣/٢٣٤).

(٦) حديثة الفرات: مدينة على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات، والماء محيط بها. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/٢٣٥) و(المشترك وضعًا) ص (١٢٣).

على رأس جيش يستقرئ ما فوق الفرات[١].

ولما فتحت الإسكندرية رأى عمرو بن العاص بيوتها وبناءها مفروغًا منها، فَهَمَّ أن يسكنها، وقال: «**مساكن قد كفيناها**»، فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول: «**هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟**»، قال: «**نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل**»، فكتب عمر إلى عمرو: «**أن لا أحب أن تُنزل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا في صيف**»، فتحول عمرو من الإسكندرية إلى «**الفسطاط**»[٢]، فاختطها عمرو وأسكنها المسلمين[٣].

وبنى معاوية بن أبي سفيان في عهد عمر «**جبلة**»[٤] بعد خرابها وإجلاء أهلها عنها، وكانت حصنًا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين «**حمص**»، وشحنها معاوية بالرجال وبنى حصنًا خارجًا عن الحصن الرومي، وسكن المسلمون هذه المدينة[٥].

وبنى عثمان بن أبي العاص «**توج**»[٦]، وبنى فيها المساجد وجعلها دارًا للمسلمين، وأسكنها عبد القيس وغيرهم وذلك في أيام عمر بن الخطاب[٧].

---

(١) معجم البلدان (٣/٢٣٥).

(٢) الفسطاط: سميت الفسطاط؛ لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرخ؛ فقال عمرو: (لقد تحرم منا بمتحرم)؛ فأمر به فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية، قالوا: (أين ننزل؟) فقالوا: الفسطاط (لفسطاط عمرو الذي خلفه)، وكان مضروبًا بموضع الدار التي تعرف اليوم بدار الحصى عند دار عمرو الصغيرة اليوم. **انظر:** فتح مصر والمغرب ص (١٣٣)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) فتح مصر والمغرب ص (١٣٣، ١٣٤)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٩ - ٣٨٤)، والمسالك والممالك، لابن خرداذبة ص (٨٤)، وأحسن التقاسيم ص (١٩٧)، **وانظر:** زبدة كشف الممالك ص (٣٠)، والبلدان، لابن الفقيه ص (٥٩).

(٤) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/ ٥٣).

(٥) **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/٥٣)، و(المشترك وضعًا) ص (٩٥، ٩٦).

(٦) توج: مدينة بفارس قريبة من كازرون. **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٤٢٦).

(٧) معجم البلدان (٢/٤٢٦).

لقد كانت شبه الجزيرة العربية قاعدة الفتح الإسلامي التي انطلقت منها جيوش المسلمين لفتح العراق وأرض الشام، فلما فتحت العراق والشام، كان لا بد من إنشاء قواعد متقدمة لانطلاق الفتح منها شرقًا وغربًا، فكانت الكوفة والبصرة القاعدتين الأماميتين لانطلاق الفتح نحو الشرق، وكانت مدن أرض الشام ومنها دمشق وجبلة القواعد الأمامية لانطلاق الفتح نحو الغرب.

وبعد فتح مصر، كانت الفسطاط القاعدة المتقدمة لانطلاق الفتح منها إلى إفريقية، وكانت «توج» وبعض مدن فارس القواعد المتقدمة لانطلاق الفتح إلى حدود الصين شرقًا وإلى السند جنوبًا وإلى حدود سيبيريا شمالًا، كما كانت مدينة الموصل القاعدة الأمامية لانطلاق الفتح منها إلى شمال العراق وإلى أذربيجان.

ولكن هذه المدن الجديدة كانت بالإضافة إلى ذلك معسكرات كبيرة للجيوش الإسلامية سكنها المسلمون واستقروا فيها وعوائلهم وذويهم، فأصبحت مواطن لهم بعد نزوحهم عن مواطنهم الأولى في الصحراء أو في حواضر شبه الجزيرة العربية.

لقد ضمن عمر أمر سُكْنَى الجنود وعوائلهم، فكان المسلمون في صدر الإسلام إذا فتحوا بلدًا جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه أو في مواضع مناسبة يختارونها، وكانوا يسمون هذه المراكز «**ثُكنًا**»[1]، وكان المسلمون إذا فتحوا مدينة قريبة من العدو أو عند ساحل وضعوا فيها حامية من الرجال لحمايتها، ولم تكن هذه المراكز العسكرية إلا معسكرات ومضارب خيام في بادئ الأمر، مَصَّرَهَا القواد فتحولت إلى مدن كبيرة على مر السنين: زاهرة بالعلوم والفنون والآداب، زاخرة بالمقاتلين من الجنود وبالسلاح والمؤن والتجهيزات، حافلة بالعيال، مواجة بالأيدي العاملة: فلاحين يعدون الغلات، وعمالًا يصنعون الأسلحة، وأرباب حرف يعدون النسيج ويخيطونه[2].

---

(١) ثكنة: اللواء ومجمع الجند، جمعها: ثكن وثكنات.

(٢) **انظر**: مقال (جيش المسلمين في عهد بني أمية) في المجلد الرابع، الجزء الثاني من مجلة المجمع العلمي =

١١- إن عمر ذهب إلى مدى أبعد من ذلك في الحرص على راحة المجاهدين وأمورهم كافة، فقد كتب ألا تحبس الجيوش بعيدة عن عوائلها أكثر من أربعة أشهر، فبينما كان يطوف في أرجاء المدينة ليلًا سمع امرأة تقول:

«**تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه**
فوالله لولا الله إني أراقبه لزحزح من هذا السرير جوانبه»

فقال عمر: «**مالك؟!**»، فقالت: «**أغزيت زوجي منذ أشهر، وقد اشتقت إليه**»، فقال: «**أردت سوءًا؟!**»، فقالت: «**معاذ الله**»، فقال: «فاملكي عليك نفسك، فإنما هو البريد إليه»، فبعث إليه، ثم دخل على حفصة أم المؤمنين ابنته فقال: «إني سائلك عن أمر قد أهمني، فافرجيه عني، كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟»، فخفضت رأسها واستحيت، فقال: «**إن الله لا يستحي من الحق**»، فأشارت بيدها ثلاثة وإلا فأربعة أشهر، فكتب عمر ألا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر[١].

بل كان عمر يخلف الغزاة في أهليهم[٢] يسهر على خدمتهم، ويكثر من رعايتهم.

ذلك هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين والقائد الأعلى للجيوش الإسلامية: يعد الخطط السوقية لجيوشه، ويسهر على مراقبة تنفيذ تلك الخطط، ويحشد أكبر عدد ممكن من الرجال قبل خوض المعارك ليضمن لهم النصر، ويمد جيوشه بالإمدادات المتعاقبة، ويوحد العرب في شبه الجزيرة العربية ليطمئن إلى سلامة قاعدته الأمينة، ويؤمن العطاء للمجاهدين ولذويهم، ويجعل الأرض المفتوحة كلها رصيدًا لبعض هذا العطاء، ويضمن السكن للجنود ولعوائلهم، ولا يترك الجنود بعيدين عن عوائلهم أكثر من أربعة أشهر حفاظًا على معنوياتهم ومعنويات عوائلهم، ويخلُف الغزاة

= العراقي الصادر في (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

(١) تاريخ الخلفاء ص (٩٦)، هناك رواية أن مدة بقاء المجاهد ستة أشهر.

(٢) تاريخ عمر ص (٤٧).

بأهليهم... ولست أعرف قائدًا أعلى كانت القيادة العليا بعض واجباته فَعَلَ أكثر مما فعله عمر في سبيل جيوشه ماديًّا ومعنويًّا.

لقد طبق عمر الحرب الاجتماعية(١) قبل أربعة عشر قرنًا، فلا يزعم أحد أن الألمان أول من طبقها في الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩- ١٩٤٥م».

لقد وضع المسلمون «**الضمان الاجتماعي**» للجنود موضع التنفيذ قبل أن تحلم به أوروبة وأميركا بأربعة عشر قرنًا، فلا يقولن قائل: إن من مزايا هؤلاء ضمان الرواتب للجنود ولأسرهم في حياتهم وبعد موتهم، وضمان سكناهم وراحتهم في كل أرض يحلونها، فقد كان نصيب المسلمين من كل ذلك في عهد عمر أوفر نصيب(٢).

إن أعمال عمر العسكرية يمكن أن تكون مثلًا أعلى لكل قائد أعلى، ويمكن أن تكون أعماله دروسًا في الكليات العسكرية وكليات الأركان في كل مكان.

إنها أروع ما سجله التاريخ العسكري في صفحاته للأمم كافة، وستبقى نموذجًا حيًّا ومثلًا أعلى يحتذيه كل قائد في أية أمة بكل زمان ومكان.

من وصايا القائد الفذ المجاهد الفاروق

كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرشد قواده وجنوده من خلال رسائله ووصاياه الدرر ومن أهمها:

١- مصابرة العدو: قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وكان مما قاله عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصبر لسعد بن أبي وقاص من بعث به إلى العراق: «واعلم أن لكل عدة عتادا، فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية

---

(١) الحرب الاجتماعية أو الحرب الاعتصابية: من التعابير العسكرية الحديثة؛ ومعناها: تحشيد الأمة ومرافقها المادية والمعنوية للحرب. **انظر:** الأمة في الحرب، للمارشال لودندروب.

(٢) **انظر:** مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع، الجزء الثاني ص (٦٥٠) مقال (جيش المسلمين في عهد بني أمية).

الله»[١]، كما كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح وهو بالشام قائلًا: «لقد أثنى الله على قوم بصبرهم، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨] فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة، واقرأ كتابي هذا على الناس، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله وليصبروا؛ كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة»[٢].

وكان مما قاله رضي الله عنه: «ائتزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الركب، وانزوا على الخيل وعليكم بالمعدية ـ أو قال العربية ـ، ودعوا التنعُّم وزيَّ العجم، ولن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسي»[٣].

٢ـ الرفق بجند الإسلام وحسن الرعاية من قِبل الفاروق المجاهد:

كتب الفاروق إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائلًا: «وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح[٤]، وحين بعث الخليفة عمر رضي الله عنه بمدد إلى جند الشام حمل ضعيفهم وزودهم وَأَمَّرَ عليهم سعيد بن عامر، وعندما هَمَّ بالمسير قال عمر: على رسلك حتى أوصيك، ثم سار عمر نحو الجيش راجلًا

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٣٠٦).

(٢) تاريخ فتوح الشام ص (١٨٣).

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري (٦/١٦٨).

(٤) المصدر السابق (٦/١٦٩).

وقال له: يا سعيد وليتك هذا الجيش ولست بخير رجل فيهم إلا أن تتقي الله، فإذا سرت فارفق بهم ما استطعت، ولا تشتم أعراضهم، ولا تحتقر صغيرهم، ولا تؤثر قويهم، ولا تتبع سواك، ولا تسلك بهم المغاور، واقطع بهم السهل، ولا ترقد بهم على جادة[١] الطريق، والله ـ تَعَالَى ـ خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين[٢].

٣ـ أن يتصفحهم عند مسيرهم: فقد كان الفاروق يتصفح الجيوش عند مسيرهم ويوصيهم بالأخلاق الرفيعة والقيم العظيمة، فقد أَمَرَ سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه بالوفاء مع الأعداء حين طلبهم للأمان، وأن لا يغدروا، وبين له أن الخطأ في الغدر هلكة ووهن له وقوة للأعداء، وَحَذَّرَهُ أن يكون شيئًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم[٣].

٤ـ عدم التعرض عند اللقاء لمن خالفه منهم؛ لئلا يحصل افتراق الكلمة والفشل:

ومن وصايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمرائه وقادته في هذا الباب قوله: لا يجلدن أميرُ جيش ولا سرية أحدًا الحْدَّ حتى يطلع الدرب؛ لئلا يحمله الشيطان أن يلحق بالكفار[٤].

وعندما بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالقائد سلمان بن ربيعة الباهلي على رأس جيش كان برفقته عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد الأسدي وحدثت بين عمرو بن معدي كرب وسلمان بن ربيعة أمورٌ بلغت عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر قائلًا: أما بعد: فقد بلغني صنيعك بعمرو، وإنك لم تحسن بذلك ولم تجمل فيه، فإذ كنت بمثل مكانك في دار الحرب فانظر عمرًا وطليحة وقربهما منك واسمع منهما فإن لهما بالحرب علمًا وتجربة، وإذا وصلت إلى دار السلم فأنزلهما منزلتهما التي أنزلا

---

(١) الجادة: معظم الطريق، والجمع: جواد.

(٢) تاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١٨٦).

(٣) الإدارة العسكرية (١/١٧٦).

(٤) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص (١٣١).

أنفسهما بها، وقرب أهل الفقه والقرآن[١] . وكتب إلى عمرو بن معدي كرب: أما بعد فقد بلغني إفحامك لأميرك وشتمك له، وإن لك لسيفًا تسميه الصمصامة، وإن لي سيفًا أسميه المصمم، وإني أحلف بالله لو قد وضعته على هامتك لا أرفعه حتى أقدك به، فلما جاء الكتاب لعمرو قال: والله إن هَمَّ ليفعلن[٢] .

يتجلى من النصين السابقين فقه الفاروق فيما ينبغي أن يتحلى به القائد في دار الحرب من الائتلاف للقلوب وخاصة وهم بإزاء العدو، وأن على القائد أن يستشير من له خبرة بالحرب، وهذا لا يعني انقطاع العلاقة والمودة بينهما حين عودة العسكر إلى دار السلام، وفي فتح الرها[٣] على يد عياض بن غنم قدم عليه مدد من الشام بقيادة بسر بن أبي أرطأة العامري، وجه به يزيد بن أبي سفيان بأمر من عمر رضي الله عنه وحدث بينهما خلاف وهم في دار الحرب، وكان عياض مستغنيًا عن المدد، فطلب إليه الرجوع إلى الشام، فكتب عمر رضي الله عنه إلى عياض طالبًا منه أن يوضح له سبب إرجاعهم وخاصة وهم ما قدموا إلا لمساندتك ولإعلام العدو أن الأمداد متواترة إليك، فتنكسر قلوبهم ويسارعوا إلى طاعتك، فأجابه عياض قائلًا: خشيت أن يحصل شيء من التمرد وتختلف قلوب العساكر، ولما كنت غنيًا عن مدده اعتذرت إليه وأمرته بالعودة، وهذا هو السبب في إعادته[٤] ، عندها صوبه عمر رضي الله عنه ودعا له خاصة وهم بإزاء العدو حتى لا تتفرق الكلمة ويتناحروا فيما بينهم ويحصل الفشل[٥] .

٥- حراستهم من غرة يظفر بها العدو في مقامهم ومسيرهم:

اهتم الفاروق بأمر الحراسة؛ ولذلك أمر قادته بالحرص والحذر من بيان العدو

---

(١)، (٢) الأوائل، للعسكري (٢/٤٥).

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.

(٤) فتوح الشام، لابن أعثم (١/٢٥٣ - ٢٥٥).

(٥) الإدارة العسكرية (١/١٨٨).

وأخذهم على غزة، وطلب منهم إقامة الحرس في حلهم وترحالهم، فمن ذلك قوله لسعد بن أبي وقاص: أذك حراسك على عسكرك، وتيقظ من البيان جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه؛ لترهب بذلك عدو الله وعدوك[١]. وكان ﷺ يوصي قادته باتخاذ العيون وبث الطلائع عند بلوغ أرض العدو حتى يكونوا على علم ودراية بحالهم وبنواياهم، فمما كتبه إلى سعد بن أبي وقاص قوله: وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخفى عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تثق به وتطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاشُ عينٌ عليك ليس عينًا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإذا لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك[٢].

ويتضح لنا من هذه الوصية القيمة أن الخليفة عمر ﷺ لم تقتصر عنايته باتخاذ العيون على الأعداء، بل اتخذها ـ أيضًا ـ في الجيوش الإسلامية في الرقابة الإدارية على الولاة والعمال والقادة والجند؛ ليتعرف أحوالهم وسيرتهم ومعاملتهم وسير أعمالهم العسكرية، فقد كانت له عيون في كل جيش ومعسكر ترفع إليه تقريرًا عما يدور فيه[٣]، وعندما شكا عمير بن سعد الأنصاري إلى الخليفة عمر حين قدم عليه وكان على طائفة من أهل الشام قائلًا: يا أمير المؤمنين إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها: عرب سوس[٤]، وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئًا ولا يظهروننا على

---

(١) نهاية الأرب (٦/١٧٠).

(٢) نهاية الأرب (٦/١٦٩).

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري، للدكتور صالح بن سليمان آل كمال، جامعة أم القرى (١/٣٩٦).

(٤) مدينة بالثغر من ناحية الحدث.

عوراتهم. فقال له عمر: فإذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بعير بعيرين ومكان كل شيء شيئين، فإن رضوا بذلك فأعطهم وَخَرِّبْهَا، فإن أبوا فأنب إليهم وأجلهم سنة ثم خربها[(١)]. ثم لما قدم عليهم عمير بن سعد عرض عليهم ذلك فأبوا فأجلهم سنة ثم خربها[(٢)].

٦ـ اختيار موضع نزولهم لمحاربة العدو: فقد كان الفاروق يوصي سعد بن أبي وقاص بأن لا يقاتل حتى يتعرف على طبيعة أرض المعركة كلها مداخلها ومخارجها ووفرة الماء والكلإ بها وما يجري مجرى ذلك[(٣)]، كما كتب إليه قبل القادسية بأن يكون أدنى حجر من أرضهم؛ لأنهم أعرف بمسالكها من عدوهم، فمتى كانت الهزيمة استطاع التمكن من الانسحاب بالجند فينجوا من القتل فلا يستطيع العدو اللحاق بهم لجبنه من اتباعهم وعدم معرفتهم بطرقها[(٤)]، وبالإضافة إلى ذلك فقد ولى الفاروقُ سعدَ بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان ريادة الجيش في اختيار موقع وموضع نزوله وإقامته، فقد قام الفاروق بتوزيع المهام الإدارية بين القادة[(٥)]، وكان الفاروق يشترط في إدارته العسكرية على قادته عند اختيارهم لموضع نزولهم وإقامة معسكراتهم الحربية أن لا يفصلهم عن مقر القيادة العسكرية العليا ماءٌ؛ وذلك لما لها من مركزية في التخطيط ولتسهيل الإمداد والتموين[(٦)]، كما كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح قائلًا: ولا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه[(٧)].

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (١/١٨٥).

(٢) المصدر نفسه (١/١٨٥)، والإدارة العسكرية (١/٣٩٧).

(٣) نهاية الأرب (٦/١٧٠)، والإدارة العسكرية (١/٢٠٥).

(٤) الإدارة العسكرية (١/٢٠٥).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٠٦).

(٦) الإدارة العسكرية (١/٢٠٦).

(٧) الإدارة العسكرية (١/٢٠٧) نقلًا عن تاريخ الطبري.

٧- **إعداد ما يحتاج إليه الجند من زاد وعلوفة:** كان عمر رضي الله عنه يبعث لجند المسلمين بالعراق من المدينة المنورة بالتموين من الغنم والجزور[١]، وحمى النقيع والربذة[٢] للنعم التي يحمل عليها في سبيل الله، كما اتخذ في كل مصر على قدره خيولًا من فضول أموال المسلمين عدة لما يعرض، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف فرس، وبالبصرة نحو منها، وفي كل مصر من الأمصار على قدره[٣]، ثم حين قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشام لمصالحة أهل بيت المقدس أنشأ إدارة لتموين الجيش عرفت باسم الأهراء[٤]، وكان عمر بن عبسة أول موظف عين لإدارة تموين الجيش[٥].

٨- **تحريضهم على القتال:** كتب الفاروق إلى أبي عبيدة يحرضه على الجهاد قائلًا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله عز وجل سرًّا وعلانية، وأحذركم من معصية الله عز وجل وأحذركم وأنهاكم أن تكونوا ممن قال الله في حقهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وصلى الله على خاتم النبيين وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين[٦].

فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين فعلموا أن أمير المؤمنين يحرضهم على القتال، ولم يبق أحد من المسلمين إلا بكى من كتاب عمر بن الخطاب، كما كتب إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق ومن معه من الأجناد يحرضهم على القتال

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (٢/٣١٤).

(٢) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز.

(٣) الإدارة العسكرية (١/٢١٧).

(٤) الهرى: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان، والجمع أهراء.

(٥) الإدارة العسكرية (١/٢١٧).

(٦) فتوح الشام، للواقدي (١/١١٧).

ويمنيهم ويأمرهم الالتزام بالفضائل ويحذرهم من ارتكاب المعاصي[١]، هذا وكان من مهام أمراء الأعشار في إدارة الفاروق رضي الله عنه التحريض في القتال[٢].

٩- أن يذكرهم بثواب اللَّه وفضل الشهادة: ففي عصر الفاروق قام سعد بن أبي وقاص في القادسية يُذَكِّرُ جُنْدَهُ بثواب اللَّه - تَعَالَى - وما أعد لهم في الآخرة من النعيم، ورغبهم في الجهاد، وأعلمهم ما وعد اللَّه نبيه من النصر وإظهار الدين، وبيَّن لهم ما سوف يكون بأيديهم من النفل والغنائم والبلاد، وأمر القراء أن يقرءوا سورة الجهاد «الأنفال»[٣]، كما قام أبو عبيدة بن الجراح في جند الشام خطيبًا وَمُذَكِّرًا إياهم بثواب اللَّه - تَعَالَى - ونعيمه ومخبرًا إياهم أن الجهاد خير لهم من الدنيا وما فيها[٤]، كما اشتهر عن عمرو بن العاص قوله لجند فلسطين: من قُتل كان شهيدًا ومن عاش كان سعيدًا. وأمر الجند أن يقرءوا القرآن وحثهم على الصبر ورغبهم في ثواب اللَّه وجنته[٥].

١٠- أن يلزمهم بما أوجبه اللَّه من حقوق: فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد يوصيه بقوله: أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى اللَّه على كل حال، فإن تقوى اللَّه أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله[٦].

١١- أن ينهاهم عن الاشتغال بتجارة وزراعة ونحوهما: فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد في أن يبلغوا العسكر أن عطاءهم قائم وأن

---

(١)، (٢) الإدارة العسكرية (١/٢٣٩).

(٣) تاريخ الطبري (٤/٣٥٦).

(٤) الإدارة العسكرية (١/٢٤٣).

(٥) فتوح الشام (١/١٨، ٢٠).

(٦) الفاروق عمر بن الخطاب، محمد رشيد رضا ص (١١٩).

رزقَ عيالهم سائلٌ، وأن ينهوهم عن الزراعة، حتى إنه عاقب من لم يمتثل ذلك[١]، كل ذلك حرصًا من الفاروق رضي الله عنه بتفريغ الجند للجهاد ونشر الإسلام؛ ولئلا يلتصقوا بالأرض حين يزرعون فيركنون إلى ذلك ويصبح قلبهم منشغلًا؛ ولذلك استطاع عمر رضي الله عنه أن يوجد جندًا متفرغًا للقتال جاهزًا لوقت الحاجة والطلب، وضمن عدم انتشارهم لجني الثمار والزراعة وما يتبعها من حصاد وحرث وتسويق[٢].

❑ القائد الفاروق المجاهد يدعو قوَّاده للعدل مع المجاهدين:

عن جرير رضي الله عنه أن رجلًا كان ذات صوت ونكاية على العدو مع أبي موسى الأشعري فغنموا مغنمًا، فأعطاه أبو موسى نصيبه ولم يفه، فأبى أن يأخذه إلا جميعًا فضربه عشرين سوطًا، وحلق رأسه، فجمع شعره وذهب به إلى عمر رضي الله عنه.

قال جرير: وأنا أقرب الناس منه، فأخرج شعرًا من جيبه، فضرب به صدر عمر، فكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى: سلامٌ عليك، أما بعد:

فإن فلان بن فلان أخبرني بكذا وكذا، وإني أقسم عليك إن كنتَ فعلتَ ما فعلتَ في ملإ من الناس، جلست له في ملإ من الناس فاقتص منك، وإن كنت فعلت ما فعلت في خلاء، فاقعد له في خلاء فليقتص منك. قال له الناس: اعف عنه، قال: لا واللَّه لا أدعه لأحد من الناس. فلما دَفَعَ إليه الكتاب قعد للقصاص، رفع رأسه إلى السماء، وقال: قد عفوت عنه لله ـ تَعَالَى ـ[٣].

❑ اهتمام الفاروق القائد المجاهد بحدود دولته:

كان عمر رضي الله عنه من خوفه على المسلمين وحدود الدولة الإسلامية لاتساعها وكرهه لقتال الروم يقول إذا ذكر الروم: واللَّه لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم،

---

(١)الإدارة العسكرية (٢٥٦/١).

(٢)المصدر السابق (٢٥٧/١).

(٣)**خبر حسن**: أخرجه ابن شبة في (تاريخ المدينة) (٨٠٩/٣)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٥٠/٨).

لنا ما دونه وللروم ما وراءه[١]. وقال الشيء نفسه حول حدود الدولة الإسلامية نحو الفرس: لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًّا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، وإني أوثر سلامة المسلمين على الأنفال[٢]. فأمر بإقامة قواعد عسكرية إسلامية لها عدة وظائف ومهام، والتي سبق وأشرنا إلى بعض منها، بالإضافة إلى كونها مراكز حربية في مواضع استراتيجية متقدمة على الحدود بينها وبين البلاد المفتوحة لترد أي عدوان خارجي، وكمراكز تجمع للجند ولنشر الإسلام، وكان في طليعتها مدينتا البصرة والكوفة في مجاورة الدولة الفارسية والفسطاط بمصر[٣]، وثغور أخرى بسواحلها وسواحل الشام لرد هجمات الروم من البحر، وَجَنَّدَ أربعة أجناد فيما بعد، فيقال: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، حيث كانت لاختصاصهم حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم؛ لتسهيل عملية إدارتهم في المهمات العسكرية، ولرعاية شئونهم والتي كانت منها العطاء[٤]، هذا إلى جانب المعسكرات والتحصينات التي بالثغور والتي سبق إجلاء العدو عنها واستولى عليها المسلمون واتخذوها قواعد عسكرية لهم وأسكنوا بها جندهم لحماية حدود الدولة الإسلامية[٥]، ثم صار المسلمون كلما تقدموا في الفتح أقاموا في نهاية توسعهم ثغرًا يحرس الحدود يشحن بالجند المرابطين ويتولى أمره قائد من أكفأ القواد[٦]، ومن أهم تلك الإجراءات التي اتخذها الفاروق رضي الله عنه بإقليم العراق والمشرق المسالح التي أقيمت بين المسلمين والفرس، فحينما بلغ اجتماع الفرس على يزدجرد للقائد المثنى

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/١٥٥).
(٢) تاريخ الطبري نقلًا عن الإدارة العسكرية (١/٣٥٢).
(٣) الإدارة العسكرية (١/٤٥٢).
(٤) فتوح البلدان (١/١٥٦).
(٥) تاريخ التمدن، جرجي زيدان (١/١٧٩).
(٦) الإدارة العسكرية (١/٤٥٣).

بن حارثة والمسلمين، كتبوا إلى الخليفة عمر بذلك فجاءهم الرد بقوله: أما بعد، فاخرجوا بين ظهراني الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم.. فنفذ المثنى الأمر[١]، كما أوصى الخليفة عمر رضي الله عنه سعدًا قبل القادسية بقوله: وإذا انتهيت إلى القادسية فتكون مسالحك على أنقابها[٢].

وفي جلولاء كتب عمر رضي الله عنه إلى سعد: إن هزم الله الجندين، جند مهران وجند الأنطاق فقدم القعقاع بن عمرو بثغر حلوان بجنود المسلمين لحماية المنطقة والحفاظ عليها من تقدم الأعداء وحتى يكون ردءًا لإخوانه من جند المسلمين الغازي منهم والمقيم[٣]؛ لذا كان القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعراق يطلب من الجند ويحثهم على التقدم نحو الفرس مخبرًا إياهم أن الثغور والفروج قد سدت بقوله: ليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذاتهم[٤]. والملاحظ أن هذه المسالح في عهد الفاروق لا تنشأ إلا بأمر من القيادة العليا المركزية للإدارة العسكرية وذلك في قول الخليفة عمر لقادة المسالح: اشغلوا فارس عن إخوانكم وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري[٥]. وقد بلغت ثغور الكوفة وحدها في عهد الفاروق أربعة ثغور هي: ثغر حلوان وعليه القعقاع بن عمرو التميمي، وثغر ماسبذان وعليه ضرار بن الخطاب الفهري، وثغر قرقيسيا[٦] وعليه عمر بن مالك الزهري، وثغر الموصل وعليه عبدالله بن المعتم العبسي، وكان لكل قائد من هؤلاء من ينوب عنه في ثغره لإدارته إذا توجه لمهمة ما.

ومن الجدير بالذكر أن جند المسلمين لا يبنون الثغور حصنًا ولا يمصرون مدينة إلا

---

(١) ، (٢) الإدارة العسكرية (١/٤٥٣).
(٣) المصدر نفسه (١/٤٥٤) نقلًا عن الطبري.
(٤) المصدر نفسه (١/٤٥٤).
(٥) المصدر نفسه (١/٤٥٤).
(٦) بلد على نهر الخابور، قرب مالك بن طوق، وعندها مصب الخابور في الفرات.

وأقاموا المسجد في المقدمة لما له من دور دعوي وتربوي وجهادي كما هو معروف[١]، وأما فيما يتعلق بحماية الحدود بين الروم والمسلمين في الجبهة الشامية في عهد عمر رضي الله عنه، فقد بدأت عنايته بها ـ أيضًا ـ منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام؛ حيث اتخذ لذلك إجراءات دفاعية كثيرة ومتعددة لحماية المنطقة، **منها**: بناء المناظر، وإقامة الحرس، واتخاذ المسالح بها، وتحصين المدن الساحلية إلى جانب الرباطات الدائمة، بالإضافة إلى الحصون المفتوحة وترتيب المقاتلة فيها ـ أي الجند الغازي ـ وسياسة التهجير أو النوافل، وجمعه الساحل الشامي كله تحت إدارة عسكرية موحدة، ففي السنة التي سار فيها عمر بنفسه إلى بلاد الشام لتوقيع الصلح مع أهل بيت المقدس تفقد بعض الثغور الشامية ووضع بها الحاميات والمسالح ورتب بها أمراء الأجناد والقادة، وسد فروجها ومسالحها وأخذ يدور بها ليرى احتياجاتها الدفاعية[٢]، ثم رجع إلى المدينة وخطب الناس قبل رجوعه قائلًا: ألا قد وليت عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم، فجندنا لكم الجنود هيأنا لكم الفروج وبوأنا لكم، ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم، فمن عَلمَ عِلْمَ شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله[٣].

وعندما فتح أبو عبيدة بن الجراح ثغر إنطاكية بالحدود الشامية الشمالية كتب إليه الخليفة عمر رضي الله عنه قائلًا: أن رتب بإنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء[٤]، فنقل أبو عبيدة قومًا من أهل حمص وبعلبك بها مرابطة بها لحماية حدود المنطقة من أي عدوان خارجي، وَعَيَّنَ على الثغر

(١) الإدارة العسكرية (١/٤٥٥).

(٢) الإدارة العسكرية (١/٤٥٧).

(٣) تاريخ الطبري (٤/٤٠).

(٤) فتوح البلدان (١/١٧٥).

حبيب بن مسلمة الفهري الذي اتخذ من ثغر إنطاكية قاعدة لانطلاقه لغزو ما خلف الحدود الإسلامية، فمنها كان يأتي المدد للخطوط الأمامية في الجبهة الرومية، وكان منها غزوه للجرجومة[١] التي صالح أهلها على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللكام ضد الروم[٢]، وكذلك عندما سار أبو عبيدة إلى ثغر بالس[٣] رتب به جماعة من المقاتلين، وأسكنه قومًا من عرب الشام الذين أسلموا بعد قدوم المسلمين لحفظ الثغر وضبطه من هجمات الروم[٤].

ومن التحصينات والوسائل الدفاعية التي اتخذها الوالي معاوية بن أبي سفيان لحماية الحدود الإسلامية لسواحل الشام في نهاية عهد عمر بن الخطاب وبداية عهد الخليفة عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - هو قيامه ببناء عدة حصون مثل أطرسوس[٥]، ومرقية[٦]، وبلنياس[٧]، وبيت سليمة، بالإضافة إلى قيامه بتطوير الحصون التي استولى عليها الجند المسلمون بسواحل الشام وشحنها جميعًا بالجند المقاتلة وأقطعهم القطائع بها وبنى المناظر ووضع بها الحرس لمراقبة اقتراب العدو، فتقوم كل منظرة بإشعال النار لإخبار الأخرى التي تليها إلى أن يصل الخبر إلى المدينة والثغر والمسلحة في زمن قليل فيسرعون نحو الجبهة التي أقبل منها العدو للتصدي له ومنعه من التسلل[٨].

وفيما يتعلق بحماية الحدود بين المسلمين والروم في الجبهة المصرية لإدارة عمر رضي الله عنه، فقد شملتها الرعاية والعناية كمثيلاتها من الجبهات الأخرى، فقد أَمَرَ

---

(١) الجرجومة: يقال لأهلها: (الجراجمة)، على جبل اللكام بالثغر الشامي.

(٢) معجم البلدان (٢/١٢٣).

(٣) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري (١/٢٢٤).

(٥) بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية.

(٦) مرقية: قلعة حصينة في سواحل حمص.

(٧) بلنياس: كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر.

(٨) فتوح البلدان (١/١٥٠ - ١٥٨).

عَمْرَو بن العاص ببناء الفسطاط كقاعدة عسكرية أولى لإيواء جند المسلمين بالمنطقة، وجعل لكل قبيلة محرسًا وعريفًا، فمنها كان المنطلق في الفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا بالإضافة إلى كونها إحدى الحاميات الدفاعية المهمة للثغر المصري إلى ما هنالك من مهام تضطلع بها، واشترط عمر رضي الله عنه في موقعها، كما اشترط في مواقع القواعد السابقة، بأن لا يفصل بينها وبين القيادة العليا المركزية بالمدينة ماء حتى يكون الاتصال بينهما مستمرًا وميسرًا[١]، وكان عمرو بن العاص يُذَكِّرُ جنوده بأن مقامهم بمصر عبارة عن رباط وذلك في قوله: اعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة؛ لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وفي الفترة التي استولى فيها جند المسلمين على الحصون والمسالح التي بالثغر المصري قاموا بتجديدها وترميمها والاستفادة منها في مرابطتهم؛ حيث شحنوها بالجنود، وكان العريش أول مسالح مصر وأعمالها[٢]، وقد أَمَرَ الفاروق بإقامة المسالح على سواحل مصر كلها[٣]، وحينما فتح عمرو بن العاص ثغر الإسكندرية جعل به ألف رجل من أصحابه مسلحة به لحفظه وحمايته، وكان عددهم لا يفي بالغرض المطلوب مما جعل الروم يعودون إليهم من البحر، فقتلوا من قتلوا من أصحاب المسلحة وهرب من هرب، فرجع إليهم عمرو بن العاص مرة أخرى وفتح الثغر، وجعل من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الجيش؛ كما جعل في السواحل الربع الآخر وأبقى معه بالفسطاط النصف الآخر[٤]، وكان الفاروق يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة المنورة بثغر الإسكندرية ويكاتب الولاة بأن لا تغفل عنها، وأن تكثف رابطتها إضافة إلى من جعل بها عمرو بن العاص من المرابطين[٥]؛

---

(١) فتوح مصر، لابن عبدالحكم، والإدارة العسكرية (٤٦٢/١).

(٢) تاريخ اليعقوبي ص (٣٣٠).

(٣) البداية والنهاية (١٠٣/٧).

(٤) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، سعاد ماهر ص (٧٧).

(٥) فتوح مصر ص (١٩٢)، الخطط، للمقريزي (١٦٧/١).

وبذلك استكمل عمر رضي الله عنه فقهه البعيد في حماية الحدود البرية وتحصينها في الجبهات الثلاث العراقية والشامية والمصرية[١]، ولم يقتصر الأمر على هذه الوسائل الدفاعية لحماية الحدود الإسلامية، بل أنشأ عمر رضي الله عنه نظام الصوائف والشواتي؛ وهي الحملات التي كانت تخرج بانتظام سنويًا كالدوريات المنظمة في فصل الصيف وفي فصل الشتاء[٢]، ولم تقتصر حملات الشواتي والصوائف على ثغور بلاد الشام بل شملت جميع حدود الدولة الإسلامية حينئذٍ، وكان يتولاها كبار القادة أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاوية بن أبي سفيان، والنعمان بن مقرن، وغيرهم كثير[٣]، وكان الفاروق يزيد في الأرزاق والأعطيات للجنود الذين يبعثون إلى الثغور للمرابطة بها؛ حتى تعينهم على تحمل بعدهم، ويقطعهم القطائع بها[٤]، ونرى قادة الفاروق رضي الله عنه في إدارتهم العسكرية للمعارك يقسمون لأهل المسالح من الفيء مثل الذي يقسم لهم؛ لأنهم كانوا ردءًا للمسلمين؛ لئلا يؤتوا من وجه من الوجوه[٥]، وحين حضرت الخليفة عمر رضي الله عنه الوفاةُ قال موصيًا الخليفة من بعده: وأوصي الخليفة من بعدي بأهل الأمصار خيرًا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم[٦].

❑ الفاروق القائد يستنصر لجنده:

لما أبطأ على عمر رضي الله عنه خبر نهاوند والنعمان بن مقرن، كان عمر رضي الله عنه يستنصر، وكان الناس يرون من استنصاره.

قال جُبير بن حيَّة: «كان عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ بالمدينة يدعو الله، وينتظر مثل

---

(١) ، (٢) الإدارة العسكرية (٤٦٤/١).

(٣) فتوح البلدان، للبلاذري (١٩٤/١، ١٩٥).

(٤) الفن الحربي في صدر الإسلام، عبدالرءوف عون ص (٢٠١)، الإدارة العسكرية (٤٦٥/١).

(٥) الإدارة العسكرية (٤٦٥/٢)، تاريخ الطبري (١٣٤/٤).

(٦) مناقب أمير المؤمنين، لابن الجوزي ص (٢١٩، ٢٢٠).

صيحة الحُبلى»[١]، وانظر إلى حزنه العميق عندما علم باستشهاد أئمة المجاهدين وصالحيهم في نهاوند، كما جاء في خبر جبير بن حية: «... فكتب حذيفة بالفتح مع رجل من المسلمين، فلما قدم عليه قال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتحٍ أعزَّ اللَّه فيه الإسلام وأهله، وأذل فيه الشرك وأهله.

قال عمر: النعمان بعثك؟ قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين. فبكى عمر، واسترجع، وقال: ومَنْ وعك؟ فقال: فلان، وفلان، وفلان. حتى عَدَّ الناس، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم. فقال عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ وهو يبكي: لا يضرهم أن لا يعرفهم عمر ولكن اللَّه يعرفهم»[٢]. هذا الحزن الصادق عرفه القاصي والداني وأرخت به الأيام حتى يقول سعيد بن المسيب: «إني لأذكر عمر بن الخطاب حين نعى النعمان بن مقرن»[٣].

❑ وانظر إليه وهو يؤدب جنده ويعلمهم صدق التوكل على اللَّه عز وجل واستنصاره:

عن عياض الأشعري ـ رحمه اللَّه ـ قال: شهدت اليرموك، وعلينا خمسة أمراء؛ أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض ـ وليس بعياض الأشعري ـ. قال: قال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا:

إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا وأحصن جندًا، اللَّه عز وجل فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نُصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تراجعوني.

قال: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، وأصبنا أموالًا»[٤].

---

(١) **حسن**: رواه ابن حبان (٤٧٣٦)، وفيه ابن فضالة، وهو صدوق.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤/٨)، وابن حبان (٤٧٣٦)، والطبري في (تاريخه) (١٤٣/٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير) (٥٦/١).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥/٨)، وابن حبان (٤٧٤٦)، والطبري في (تاريخه) (١٢٦/٣).

❑ الفاتح المجاهد في الشام يلقي الدرر على مسامع جنده:

قال طارق بن شهاب: «لـمّا قدم عمر الشام أتته الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وأخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحال؟! قال: فقال عمر: إنا قوم أعزَّنا اللَّه بالإسلام، فلن نلتمس العزَّ بغيره»(١).

وفي رواية أخرى يقول ابن شهاب:

لما قدم عمرُ الشام عَرَضَتْ له مخاضةٌ، فنزل عن بعيره، ونزع مُوقيه فأمسكهما بيده، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا. فصكَّ عمر في صدره، وقال: أوه! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس، وأقلَّ الناس، فأعزكم اللَّه بالإسلام، فمهما تطلبون العز بغيره يذلكم اللَّه ﷻ»(٢).

❑ فارس الإسلام وفاروقه يُخرج اليهود من جزيرة العرب:

كان مما أوصى به رسول اللَّه ﷺ قبل موته إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وقد قام بتنفيذ هذه الوصية الغالية فاروقُ الإسلام عمر بن الخطاب ﵁، عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أوصى النبي ﷺ عند موته فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(٣).

وقال عمر بن الخطاب ﵁: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»(٤).

وجزيرة العرب: هي مكة والمدينة، واليمامة واليمن.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٣٩/٨)، وابن عساكر (٢/٥٢).

(٢) صحيح: أخرجه ابن عساكر في (تاريخه) (٣/٥٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٨٥/٤، ١٢١)، ومسلم (١٦٣٧)، وأبو داود (٣٠٢٩)، والحميدي (٥٢٦)، وأحمد (٢٢٢/١)، وعبدالرزاق في (مصنفه) (١٩٣٧١)، والبغوي (٢٧٥٥).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٧)، وأحمد (٢٩/١)، وعبدالرزاق (٩٩٨٥)، (١٩٣٦٥)، والبغوي (٢٧٥٦).

وقال الأصمعي: جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جُدَّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام[(١)]، فكيف تم إخراج اليهود في عهد عمر رضي الله عنه.

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها، ولهم نصف الثمر. فقال رسول الله ﷺ: «**نقركم على ذلك ما شئنا**»، وفي رواية أخرى: «**نقركم ما أقرَّكم الله**»[(٢)].

فأقروا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء[(٣)] وأريحاء[(٤)].

فلما كان زمان عمر غشوا المسلمين، وألقوا ابن عمر من فوق بيت، ففدعوا[(٥)] يديه، فلما فدع أهل خيبر عبدالله بن عمر، قام عمر خطيبًا، فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: «**نقركم ما أقركم الله**»، وإن عبدالله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعُدي عليه من الليل، ففُدِعت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق وهو رئيسهم فقال:

يا أمير المؤمنين، أتخرجنا، وقد أقرنا محمد، وعاملنا على الأموال، وَشَرَطَ ذلك لنا؟! فقال عمر: أظننت أني نسيتُ قولَ رسول الله ﷺ: «**كيف بك إذا أُخرجت من**

---

(١) شرح السنة، للبغوي (١١/١٨١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣/١٤١، ٢٥٢)، ومسلم (٢٥٥١)، وأحمد (٢/١٤٩)، وعبدالرزاق في (مصنفه) (٩٩٨٩)، والبغوي في (شرح السنة) (٢٧٥٧)، والبيهقي في (الدلائل) (٤/٢٣٤)، و(السنن الكبرى) (٩/٢٠٧)، وابن عبدالبر في (التمهيد) (٦/٤٦٤).

(٣) تيماء: بلدة معروفة بين الشام والمدينة على سبع أو ثمان مراحل من المدينة.

(٤) أريحاء: هي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس.

(٥) الفدع: هو زيغ في الكفِّ بينها وبين الساعد، وفي الرجل بينها وبين الساق.

خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟»[١].

فقال: كان ذلك هُزيلة من أبي القاسم!

فقال: كذبت يا عدو الله. فأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر مالًا، وإبلًا، وعُروضًا من أقتاب، وحبال، وغير ذلك.

فأين نحن من عمر.. بل من شسع عمر... يهود ولا عمر لهم؟!

أهذه القدسُ والأقصى يزِّينها — مسرى النبي أفيها ساجدٌ عمرُ

أم أورشليمُ يهوذا بات يحكمها — وهيكل الظلم في أحضانها نضرُ

لعل اللَّه أن يمنَّ على المسلمين بمن يسير بهم على درب الفاروق فيخرج اليهود من بيت المقدس وفلسطين.

تمني الفاروق للشهادة ونيله إياها:

عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنها سمعت أباها يقول: اللهم ارزقني قتلًا في سبيلك، ووفاة في بلد نبيك. قالت: قلتُ: وأَني ذلك؟! قال: إن اللَّه يأتي بأمره أنى شاء. وفي رواية: يأتي به اللَّه إن شاء[٢].

فاستجاب اللَّه للفاروق، ونال ثواب الشهادة.

وفي رواية زيد بن أسلم ـ رحمه اللَّه ـ عن أبيه عن عمر رضي الله عنه قال: «**اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد نبيك**»[٣].

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣/٢٥٢)، والبيهقي في (الدلائل) (٤/٢٣٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مالك في (الموطإ) (١٠٢١)، والبخاري في (صحيحه) (١٨٩٠)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/٣٣١) وابن شبة في (تاريخ المدينة) (٣/٨٧٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن سعد (٣/٣٣١)، وابن شبة (٣/٨٧٨).

(٧)

المجاهد الشهيد

ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه

كانت الفتوحات في عصره كالماء المنهمر

المجاهد الشهيد ذو النورين عثمان بن عفان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحدًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أُحُد، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان**»[1].

ذو النورين المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله... يقوم رضي الله عنه بتجهيز جيش العسرة كله، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال، قال ابن شهاب: «**قدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسع مئة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا أتمَّ بها الألف**»، إنه عثمان المهاجر من ماله.

عن أبي عبدالرحمن السلمي أن عثمان رضي الله عنه حين حُوصِر أشرف عليهم وقال: «أَنْشُدُكُمُ الله، ولا أَنْشُدُ إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من حفر رومة فله الجنة**»، فحفرتُها؟ ألستم تعلمون أنه قال: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجهزته؟ قال: فصدقوه بما قال»[2].

وفي رواية أخرى: «**أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ قال في جيش العسرة: «من ينفق نفقة متقبلة، والناس مجهدون معسرون»**، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم»[3].

ومن حديث الأحنف بن قيس «... **أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله** صلى الله عليه وسلم نظر في موجوه القوم فقال: «**من يجهز هؤلاء غفر الله له**»؛ يعني: جيش

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣٦٧٥)، وأبو داود (٤٦٥١)، والترمذي (٣٦٩٧)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (٣٢)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (٢٤٦)، وفي (المسند) (٣/١١٢)، وأبو يعلى (٥/٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) **صحيح لشواهده**: رواه البخاري معلقًا (٢٧٧٨)، وذكر ابن حجر في (الفتح) (٥/٤٠٧): أنه موصول عند الإسماعيلي، ورواه الدارقطني موصولًا (٤/١٩٩).

(٣) عند النسائي (٦/٢٣٦، ٢٣٧)، والدارقطني (٤/١٩٩)، والترمذي (٣٦٩٩)، وابن حبان في (الموارد) (٢١٩٨).

العسرة، فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد»(١).

وعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن عثمان بن عفان جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار في كُمِّهِ حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره، فرأيت النبي ﷺ يُقلبها في حجره، ويقول: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**»(٢).

«**ما**»: نافية بمعنى ليس؛ أي: ليس عليه ولا يضره الذي يعمل في جميع عمره بعد هذه الحسنة، والمعنى أنها مكفرة لذنوبه الماضية والآتية.

رضِيَ اللَّه عن عثمان ذي النورين، لقد جهز جيش العسرة بأكمله في زمان القيظ، وقلة الماء، والحاجة إلى العدة والعتاد.

يسرت للعسرة العشواء غزوتها	بالخيل والعير فيها كل قرحان
وجئت بالمال في حِجْرِ النبي ولم	تكن على الملة الكبرى بمنانِ
ومن يعن ملة الإسلام في حرج	يكن له اللَّه حسبًا غير معوان
كأن مالك مال المسلمين متى	شاءوا فلست على شيء بخزان
فكنت عند رسول اللَّه ناصره	يجلك العرب من قاصٍ ومن دان(٣)

❑ الفتوح في عهد عثمان كماء منهمر:

لله در الخليفة الكهل الذي بلغ السابعة والسبعين من عمره يوم يفكِّر ويخطط، ويعزم ويحزم، وكأنما قد حل داخل إهابه شباب التاريخ!!

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٤٨٦/٧)، وابن حبان (٦٨٨١)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٠٣).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٧٨٥)، وأحمد (٦٣/٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٢٧٩)، والحاكم (١٠٢/٣) وصححه، وأقره الذهبي، والبيهقي في (الدلائل) (٢١٥/٥)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق).

(٣) نقلًا عن (أحسن القصص، لعلي فكري) (١٥٨/٣).

هذا الخليفة العظيم الكهل الذي يبهر بمضاء عزمه حتى يجهز الجيوش للبحر، وركب جنوده ثبج البحر مثل الملوك على الأسِرَّة في غزو قبرص، وفي غزوة ذات الصواري.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»[١].

وقال ﷺ: «**عجبت من قومٍ من أمتي يركبون البحر؛ كالملوك على الأسرة**»[٢].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**رأيت قومًا ممن يركب ظهر هذا البحر؛ كالملوك على الأسرة**»[٣].

وقال ﷺ: «**ناس من أمتي عُرِضُوا عليَّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبج[٤] هذا البحر ملوكًا على الأسرة**»[٥].

وقال ﷺ: «**غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البرِّ، ومن أجاز[٦] البحر فكأنما أجاز الأودية كلها، والمائد[٧] فيه؛ كالمتشحط[٨] في دمه**»[٩].

❑ سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان:

فمعاوية يُوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب «**القسطنطينية**» ذاتها، وإلى فارس،

---

(١) رواه البخاري عن أم حرام بنت ملحان.

(٢) رواه البخاري عن أم حرام.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود عن أم حرام، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٤٧٣).

(٤) ثبج: وسط.

(٥) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن أنس، وأحمد في (مسنده)، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن أم حرام.

(٦) أجاز: اخترق.

(٧) هو الذي يدار برأسه من ريح البحر واضطراب السفينة.

(٨) المذبوح المتلطخ بدمه.

(٩) **صحيح**: رواه الحاكم في (المستدرك) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٤١٥٤).

وكرمان، وسجستان، ومرو، يزحف ابن عامر، والأحنف بن قيس، والأقرع بن حابس، ومُهِّدت الأرض لزحف المسلمين حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في المشرق، وخلال عهده رضي الله عنه بلغت الفتوحات أبعد الآماد، وأرحب الآفاق[١].

سجل الفتوحات في عهد الشهيد ذي النورين

❑ سنة أربع وعشرين:

فيها افتتح أبو موسى الأشعريُّ الريَّ، وكانت قد فُتحت على يد حذيفة، وسويد ابن مقرن، فانتقضوا[٢].

وفيها: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان، وأرمينية؛ لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه، فسبى وغنم ورجع[٣].

وفيها: استمد أمراء الشام من عثمان رضي الله عنه مددًا، فأمدهم بثمانية آلاف من العراق، فمضوا حتى دخلوا إلى أرض الروم مع أهل الشام، وعلى أهل العراق سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري، فشنوا الغارات، وسبوا وافتتحوا حصونًا كثيرة[٤].

❑ سنة خمس وعشرين:

فيها سار الجيش من الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة إلى بَرْذعة، فقتل وسبى[٥].

وفيها: انتقض أهل الإسكندرية فغزاهم عمرو بن العاص أمير مصر وسباهم، فردَّ

---

(١) **انظر**: رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد.

(٢) **انظر**: تاريخ خليفة (١٥٧)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٣/٣٠٧).

(٣) **انظر**: تاريخ الطبري (٤/٢٤٦)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٠٩).

(٤) **انظر**: تاريخ الطبري (٤/٢٤٧)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٠٩).

(٥) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٢).

عثمان السبي إلى ذمتهم، وكان ملك الروم بعث إليها منويل الخَصيُّ في مراكب فانتقض أهلها - غير المقوقس - فغزاهم عمرو في ربيع الأول، فافتتحها عنوة غير المدينة، فإنها صلح[(١)].

وفيها: استأذن ابن أبي سرح عثمان في غزو إفريقية فأذن له[(٢)].

❑ **سنة ست وعشرين:**

فيها: فُتحت سابور وأميرها عثمان بن أبي العاص[(٣)].

❑ **سنة سبع وعشرين:**

فيها غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص، فركب البحر بالجيوش، وأكمل ابن أبي سرح غزو إفريقية[(٤)].

❑ **سنة ثمان وعشرين:**

فيها: غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم[(٥)].

وفيها: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان مرة أخرى، فصالح أهلها مثل صُلح حذيفة[(٦)].

❑ **سنة تسع وعشرين:**

فيها: افتتح عبدالله بن عامر إصطخر عنوة فقتل وسبى كثيرًا.

وفيها: انتقضت أذربيجان فغزاهم سعيد بن العاص فافتتحها[(٧)].

وفيها: غزا ابن عامر وابن بديل الخزاعي أصبهان[(٨)].

---

(١) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الطبري (٤/٢٥٠).
(٢) تاريخ الإسلام (٣/٣١٢).
(٣) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٥).
(٤) تاريخ خليفة (١٦٤)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٧، ٣١٩).
(٥) تاريخ الطبري (٤/٢٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٤).
(٦) تاريخ خليفة (١٦٠)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٤).
(٧) (٨) تاريخ خليفة (٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٦).

❑ سنة ثلاثين:

فيها فُتحت جور من أرض فارس على يد ابن عامر، فغنم كثيرًا.

وفيها: افتتح ابن عامر بلادًا كثيرة من أرض خراسان[١].

وسار الأحنف بن قيس في أربعة آلاف، فَجُمِعَ له أهل طخارستان، وأهل الجوزجان، والفارياب فاقتتلوا قتالًا شديدًا، ثم هزم اللَّه المشركين وكان النصر، ثم سار الأحنف بن قيس على بلخ فصالحوه، ثم أتى خوارزم فلم يُطقها ورجع، وفتحت هراة، وفتح ابن عامر مرو صلحًا[٢].

❑ سنة إحدى وثلاثين:

وفيها: فُتحت نيسابور صلحًا.

وفيها: معركة الأساور، فغزا عبداللَّه بن أبي سرح من مصر في البحر، وسار فيه إلى ناحية مصيصة[٣].

❑ سنة اثنين وثلاثين:

وفيها: كانت وقعة المضيق بالقرب من القسطنطينية، وأميرها معاوية رضي الله عنه[٤]

❑ سنة ثلاث وثلاثين:

فيها: غزا معاوية ملطية وحصن المرَّة من أرض الروم[٥].

وفيها: غزا ابن أبي سرح الحبشة[٦].

---

(١) تاريخ خليفة (١٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٩).
(٢) تاريخ خليفة (١٦٥، ١٦٦)، وتاريخ الطبري (٤/٢٦٩، ٣٠١)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٣٠).
(٣) تاريخ الطبري (٤/٢٨٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٦٣، ٣٦٤).
(٤) تاريخ الإسلام (٣/٣٧١).
(٥) تاريخ خليفة ص (١٦٧)، وتاريخ الإسلام (٣/٤١٥).
(٦) تاريخ الإسلام (٣/٤١٦).

❑ سنة أربع وثلاثين:

فيها كانت غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية وأميرها ابن أبي سرح[1].

❑ سنة خمس وثلاثين:

فيها: غزوة ذي خُشب، وأميرها معاوية رضي الله عنه.

وفيها: استشهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بمقتله؛ لينال أجر الشهادة رضي الله عنه.

* * *

(١) تاريخ خليفة (١٦٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٤٢٠).

(٨)

البطل الشهيد.. حيدرة الأبطال
الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول اللَّه ﷺ «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»[1].
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» «٧٤/٧»: «وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي».

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٧)، والترمذي (٣٦٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وأحمد في (المسند) (٢/ ٤١٩) وفي (فضائل الصحابة) (١٠٦١)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٣).

البطل الشهيد.. حيدرة الأبطال
الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

روى البخاري عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يَجْثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقال قيْس بن عباد: وفيهم أنزلت ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾الآية. قال: «**هم الذين تبارزُوا يوم بدرٍ: حمزةُ، وعليٌّ، وعبيدة ـ أو أبو عبيدة ـ بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعُتبة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة**»[(١)].

«**وعن علي قال: تقدم ـ يعني عُتبة بن ربيعة ـ وتَبِعَه ابنه وأخوه، فنادى: مَن يُبارز؟ فانتُدب له شبابٌ من الأنصار، فقال: مَنْ أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردْنا بني عمنا. فقال رسول الله ﷺ «قُمْ يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث»، فأقبل حمزة إلى عُتبة، وأقبلتُ إلى شَيْبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتانِ، فأثخن كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه، ثم مِلْنَا على الوليد، فقتلناه واحتملنا عُبيدة**»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» «٢٩٨/٧»: فيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لحمزة وعليٍّ وعبيدة بن الحارث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ.

وانظر ـ بربك ـ إلى الفارس الشاب.. علي بن أبي طالب، وإلى قتلاه يومَ بدرٍ، فقد قتل بعد شيبةَ، والوليد: العاصَ بن سعيد بن العاص، وعامر بن عبدالله النمري، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وزمعة بن الأسود بن المطلب، ونوفل بن خُويْلد بن أسد وهو أخو أم المؤمنين خديجة ـ وكان من شياطين قريش ـ، وعقيل بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث قتله صَبْرًا بعد المعركة، وعُمير بن عثمان بن عمرو،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٦٥)، وعزاه المزي للنسائي.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٦٦٥)، وأحمد (١١٧/١).

ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة، وأبا قَيس بن الفاكهة بن المغيرة، وحاجِبَ بن السائب بن عُوَيْمر، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجَّاج، وأَوْس بن مِعْيَرَ بن لَوْذَان؛ خمسة عشَرَ رجلًا قتلهم حَيْدَرَةُ.. علي بن أبي طالب في يوم بدر.

عن أبي إسحاق: «**سأل رجل البراء ـ وأنا أسمع ـ قال: أَشَهِدَ عليٌّ بدرًا؟ قال: بارز وظاهر**[1]»[2].

❑ وفي أحد:

ثبت علي رضي الله عنه مع النبي ثبات الأبطال، وقتل علي أبا أمية بن حذيفة بن المغيرة، وعبدالله بن حميد بن زهير.

❑ **قتل عليٍّ لعمرو بن عبد ود فارس قريش في يوم الأحزاب:**

كان عمرو بن عبد ود العامري كبش الكتيبة؛ قد حضر معركة بدر الكبرى، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جرح في المعركة، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسُه دُهنًا حتى يقتل محمدًا؛ ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخَنْدق نحو المسلمين، ومعه فوارس من قريش، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِق[3] نحوهم.

قال ابن إسحاق: «كان عمرو بن ود العامري ـ وهو كبش الكتيبة ـ قد قاتل يوم بدرٍ حتى أثبتتْهُ الجراحةُ فلم يشهد أُحُدًا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانُه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب».

وعند البيهقي في «**دلائل النبوة**»: «خرج عمرو بن عبد ود وهو مُقنَّع بالحديد، فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام علي بن أبي طالبٍ فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال: «**إنه عمرو، اجلسْ**»، ثم نادى عمرٌو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يُؤنِّبهم ويقول: أين جنتكم التي

---

(١) ظاهر: أي لبس درعًا على درع.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٠).

(٣) تُعْنِقُ؛ أي: تُسرع.

تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا، أفلا تبرزون إليَّ رجلًا؟! فقام عليٌّ فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «**اجلسْ**»، ثم نادى الثالثة فقال:

ولـقـد بُـحِـحْـتُ مـن الـنـداء ... لجَمْعِـهـم هـلْ مـنْ مُـبـارِزْ

ووقـفـتُ إذْ جَـبُنَ المشـجَّـعُ ... مـوقِـفَ الـقـرنِ المنـاجِـزْ

ولـــذاك إنـــي لم أزلْ ... متـسـرِّعًـا قـبـلَ الـهَـزَاهِـزْ

إنَّ الـشـجـاعـةَ في الـفـتـى ... والجود مـن خـيْـرِ الـغـرائِـزْ

قال: فقام عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، أنا. فقال: «**إنه عمرٌو**»، فقال: وإن كان عمرًا. فأذن له رسول اللَّه ﷺ، فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تَـعْـجَـلَـنَّ فَـقَـدْ أتـاكَ ... مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزْ

في نـــيَّـــةٍ وبـــصـــيـــرةٍ ... والـصـدقُ مَـنْـجَـى كـلِّ فـائـزْ

إنـــي لأرجُـــو أن أُقِـــيـــ ... ـمَ عـلـيـكَ نـائِـحَـةَ الجنـائِـزْ

مِـــن ضـــربـــةٍ نجـلاءَ يَـبْـــ ... ـقَى ذكرُها عندَ الـهزاهْز[1]

ولما مشى علي إلى عمرو ليبارزه قال له: يا عمرُو، إنك كنتَ تقول: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلا قبلتُها. قال له: أجل. فقال له: إني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله، وتُسلِمَ لرب العالمين. فقال عمرو: يابن أخي، أخِّرْ عني هذه. قال علي: وأخرى: ترجع إلى بلادك، فإنْ يكُ محمد رسول اللَّه صادقًا كنت أسعد الناس به، وإن يكُ كاذبًا كان الذي تريد. فقال عمرٌو: هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريش أبدًا، كيف وقد قدرتُ على استيفاءِ ما نذرتُ؟! ثم قال عمرٌو: فالثالثة، ما هي؟ فقال علي: البرازُ. فضحك فارسُ قريش عمرٌو ـ وكان فارسًا مشهورًا مُعَمَّرًا قد جاوز الثمانين ـ، ثم قال لعليٍّ: إن هذه الخصْلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعني بها. ثم قال لعليٍّ: مَنْ أنت؟ قال له: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ فقال عليٌّ: أنا علي بن أبي طالب. فقال عمرٌو: يا ابن أخي مِنْ أعمامك مَن هو أسنُّ

---

(١) الهزاهز: الحروب والشدة.

منك؛ فواللهِ ما أحب أن أقتلك. فقال علي: ولكني - والله - أحبُّ أن أقتلك. فعند ذلك غَضِبَ عمرٌو غضبًا شديدًا، ونزل فسل سيفَه، كأنه شُعْلةُ نارٍ، ثم أقبل نحو عليٍّ مُغضَبًا، واستقبله عليٌّ بدَرَقَته فضربه عمرو في دَرَقَته فقدها، وأثبت السَّيْف فيها، وأصابَ رأسَه فشجه، وضربه عليٌّ على حبل عاتِقِه فسقط، وثار العَجَاجُ، وَسَمِعَ رسول اللَّه ﷺ التكبير، فعرف الناس أنَّ عليًّا قد قتل عمرًا، فثمَّ يقول عليٌّ:

أعليَّ تقتحم الفوارسَ هكذا ... عني وعنهم أخروا أصحابي

اليوم يمنعني الفرارَ حفيظتي ... ومُصَمِّمٌ في الرأسِ ليسَ بنابي

وألقى عكرمة رمحه يومئذٍ وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت:

فــر وألــقَــى لــنــا رمحَــه ... لــعلَّك عِـكْـرِمُ لم تــفعـلِ

وولَّيْتَ تعدو كعدْوِ الظَّليـ ... ـم ما أن يحور عن المَعدِلِ

ولم تلوِ ظهرَك مستأنسًا ... كأنَّ قفاك قفا فَرْعَلِ[1]

قال عمر بن الخطاب: هَلا استلبت درعَه، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها. فقال: ضربته فاتقاني بِسَوْءَتِهِ فاستحيَيْتُ - ابنَ عمي - أن أسلبه.

وبعث المشركون إلى رسول اللَّه ﷺ يشترون جيفتَه بعشرة آلافٍ، فقال: **«ادفعوا إليهم جيفتَهُ؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية»**، فلم يقبل منهم شيئًا.

❑ عليٌّ رضي الله عنه صاحب الراية يوم خَيْبَر الذي يفتح اللَّه عليه:

عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم خيبر: **«لأُعطينَّ هذه الراية رجلًا يحب اللَّه ورسوله، يفتح اللَّه على يديْه»**. قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ. قال: فتساورت لها رجاءَ أن أُدْعَى لها. قال: فدعا رسول اللَّه ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إياها. وقال: **«امش ولا تلتفتْ، حتى يفتح اللَّه عليك»**، فسار عليٌّ شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول اللَّه على ماذا أقاتلُ الناس؟ قال: **«قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك**

---

(١) الفرعل: صغار الضباع.

دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»(١).

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح اللَّه على يديْه، يحبُّ اللَّه ورسوله ويحبُّه اللَّه ورسوله»**، قال: فبات الناس يدركون ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوْا على رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: **«أين علي بن أبي طالب؟»** فقيل: هو يا رسول اللَّه يشتكي عينيْه.

قال: فأرسَلوا إليه فأتي به، فبصق رسول اللَّه ﷺ في عينيْه ودعا له، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: **«انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ اللَّه فيه، فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»**(٢).

وعند البخاري عن سلمة، قال: «كان عليٌّ قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلَّف عن رسول اللَّه ﷺ؟! فخرج عليٌّ فلحِقَ بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها اللَّه في صباحها، قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: **«لأُعطينَّ الراية ـ أو ليأخذنَّ الراية ـ غدًا رجلًا يحبُّه اللَّه ورسوله ـ أو قال: يحبُّ اللَّه ورسوله ـ يفتح اللَّه عليه»**، فإذا نحن بعلي، وما نرجوه، فقالوا: هذا علي. فأعطاه رسول اللَّه ﷺ الراية، ففتح اللَّه عليه»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٥)، وأخرجه أحمد (٣٨٤/٢)، وفي (الفضائل) (١٠٣٠، ١٠٣١)، والنسائي في (الخصائص) (١٨، ١٩، ٢٠)، والقطيعي في (زيادات الفضائل) (١٠٤٤، ١٠٥٦، ١١٢٢)، والطيالسي (٢٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦)، والنسائي في (فضائل الصحابة)، وأحمد في (المسند) (٣٣٣/٥)، وفي (فضائل الصحابة) (١٠٣٧)، والنسائي في (الخصائص) (١٦)، وأبو يعلى (١/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).

وعن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول اللَّه ﷺ أخذ الراية فهزَّها، ثم قال: **«مَنْ يأخذها بحقِّها؟»** فجاء فلان فقال: أنا. قال: **«أمط»**، ثم جاء رجلٌ فقال: **«أَمِطْ»**، ثم قال النبي ﷺ: **«والذي كرَّم وجهَ محمدٍ، لأعطينَّهَا رجلًا لا يفرُّ، هاك يا عليُّ»**، فانطلَقَ حتى فتح اللَّه عليه خيبر وفَدَكَ، وجاء بعجْوتهما وقديدهما[1].

وفي حديث سلمة بن الأكْوع عند مسلم: «ثم أرسلني رسول اللَّه ﷺ إلى عليٍّ وهو أرمد، فقال: **«لأُعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ اللَّه ورسوله، أو يحبه اللَّه ورسوله»**. قال: فأتيتُ عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيتُ به رسول اللَّه ﷺ، فبصق في عينيْه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج «مرحب» فقال:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ ... شاكي السلاح بطلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

فقال عليٌّ:

أنا الذي سمَتْني أُمي حَيْدَرَهْ[2] ... كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المَنْظَرهْ
أُوفِّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأسَ «مرحب» فقتله، وكان الفتح على يديْه»[3].

ومَرْحب هذا: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية:

هذا سَيفُ مَرحَبْ ... من يَذُقْهُ يعطبْ

فضربه عليٌّ فقدَّ الحجر والمغفر رأسَه، ووقع السيف في الأضراس.

وقبله قتل علي أخا مَرحَب، وهو الحارث، وبارز عليٌّ قائدًا يهوديًّا - بعد مبارزة الزبير لياسر - وكان هذا القائد الفارس يُسمَّى عامرًا، فقتله عليٌّ أمام الحصن، قال رسول اللَّه ﷺ حين طلع عامرٌ: **«ترونه خمسةَ أذرع؟»** وكان طويلًا جسيمًا، فلما دعا

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد في (المسند) (٣/١٦)، وأخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (٩٨٧، ١٠٥٤).

(٢) حيدَرَة: الأسد.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٠٧).

للبراز، وخطر بسيفه، وعليه دِرعانِ، وهو مُقَنَّعٌ في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه عليٌّ فضربه ضرباتٍ، كل ذلك لا يصنعُ شيئًا، حتى ضرب ساقيْه فبرك، ثم ذفَّف[1] عليه فأخذ سلاحه»[2].

وفتح اللَّه على يد عليِّ بن أبي طالب حصن «**ناعم**» أقوى حصون خيبر.. فيا لعليٍّ مِن حَيْدَرة!!

وعن البراء قال: بعث النبي ﷺ جيشين وأمرَّ على أحدهما علي بن أبي طالب، وعلى الآخر خالد بن الوليد، وقال: إذا كان القتال فعليٌّ، قال: فافتتح عليٌّ حصنًا فأخذ منه جارية، فكتب معي خالد كتابًا إلى النبي ﷺ يَشي به، قال: فقدمت على النبي ﷺ فقرأ الكتاب فتغير لونه، ثم قال: «**ما ترى في رجل يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله**»، قال: قلت: أعوذ باللَّه من غضب اللَّه وغضب رسوله الله، وإنما أنا رسول. فسكت»[3].

«وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «**لأعطين الراية رجلًا يحبه اللَّه ورسوله - أو قال: يحبه اللَّه ورسوله**»، فدعا عليًّا وهو أرمد ففتح اللَّه على يديه»[4].

وعن جابر بن عبداللَّه رضي الله عنه قال: «**كان أمام هوازن رجل جسيم على جمل أحمر** في يده راية سوداء، إذا أدرك طعن بها، وإذا فاته شيء من بين يديه دفعها من خلفه فأنفذه، فصمد له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار كلاهما يريده، قال: فضربه عليٌّ على عرقوبيْ الجمل فوقع على عَجُزِه. قال: وضرب الأنصاري ساقه. قال فطرح قدمه بنصف ساقه فوقع واقتتل الناس»[5].

---

(١) ذفّف عليه؛ أي: أجهز عليه.

(٢) موسوعة الغزوات الكبرى (خيبر)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٢٢).

(٣) **صحيح بشواهده**: أخرجه الترمذي (٣٧٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢١٦٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي في (الخصائص) (٢١) وفي (فضائل الصحابة) (٤٧).

(٥) **حسن**: أخرجه أبو يعلى (٣/٣٨٨)، وأحمد (٣/٣٧٦).

❑ **السرايا التي بعثها النبي ﷺ تحت إمرة علي رضي الله عنه:**

هذه السرايا تدل على شجاعة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقيادته الفذة: ولذا اختاره النبي قائدًا على هذه السرايا:

سرية علي بن أبي طالب إلى فَدَك في السنة السادسة من الهجرة:

هذه السرية كانت مكونة من مئة رجل على رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرسلها النبي إلى فَدَكَ إلى بني سعد بن بكر في شعبان من السنة السادسة من الهجرة، وكان قائد الأعداء هو رئيس القبيلة، وكانت النتيجة إحباط حشدهم مددًا ليهود خيبر، فهرب بنو سعد، وخلفوا خمس مئة بعير وألفي شاة غنمها المسلمون(١).

سرية علي بن أبي طالب إلى الفلْس صنم طيئ في السنة التاسعة من الهجرة:

أرسل النبي ﷺ هذه السرية من مئة وخمسين رجلًا بإمرة علي بن أبي طالب على مئة وخمسين بعيرًا إلى محلة آل حاتم الطائي بأرض طيئ على جبلهم «أجأ» في ربيع الآخر من السنة التاسعة إلى الفلْس صنم طيئ، وكان قائد المشركين عدي بن حاتم الطائي قبل إسلامه، وهدم علي بن أبي طالب الفُلْس وعاد بالسبي والنَّعم والشاء(٢).

سرية علي بن أبي طالب إلى مَذْحِج في رمضان من السنة العاشرة:

وكانت قوة السرية ثلاث مئة فارس إلى مَذْحِج باليمن، وقاتلهم علي وانتصر عليهم، وغنم منهم النَّعَم والشاء وأسر الأسرى، ثم أعلنوا إسلامهم(٣).

❑ **قتال علي للمتأولين والمارقين والمبتدعة من الخوارج كلاب أهل النار:**

قال رسول الله ﷺ: **«الخوارج كلاب أهل النار»**(٤).

---

(١) قادة النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب ص (٦٥١).

(٢) المصدر السابق ص (٦٥٥).

(٣) المصدر السابق ص (٦٥٦).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم عن ابن أبي أوفى، وأخرجه أحمد والحاكم عن أبي أمامة، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٣٤٧)، و(تخريج المشكاة) (٣٥٥٤).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا ننتظر رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه فانقطعت نعله فتخلَّف عليها علي يخصفها، فمضى رسول اللَّه ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «**إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن؛ كما قاتلت على تنزيله**» فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر فقال: «**لا، ولكنه خاصف النعل**»، قال: فجئنا بنشره، قال: وكأنه قد سمعه[١].

وعن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذين ساروا إلى الخوارج.

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الناس إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية**»، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضي لهم على لسان نبيهم ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ لاتَّكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلًا له عضد، وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخْلفونكم في ذراريكم وأموالكم، واللَّه إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله. قال سلمة بن كهيل: فنزَّلني زيد بن وهب منزلًا حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذٍ عبداللَّه بن وهب الراسبي، فقال لهم: ألقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدونكم كما ناشدوكم يوم حروراء. فرجعوا فَوَحَّشوا برماحهم وسَلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم، قال: وقُتِل بعضهم

---

(١) **حسن**: رواه أحمد في (مسنده) (٣/٨٢)، وله شاهد عند الترمذي (٣٧١٥) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

على بعض، وما أصيب من الناس يومئذٍ إلا رجلان، فقال لهم علي رضي الله عنه: التمسوا فيهم المخدج. فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتِل بعضهم على بعض، قال: أخروهم. فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر ثم قال: صدق اللَّه وبلَّغ رسوله، قال: فقام إليه عبيدة السَّلْماني فقال: يا أمير المؤمنين: اللَّه الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ؟ فقال: أي واللَّه الذي لا إله إلا هو. حتى استحلفه ثلاثًا وهو يحلف له»[1].

وعن علي رضي الله عنه: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم حُدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**»[2].

وفي أكثر روايات الصحيحين: «**فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا**».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ وهو يقسم قسمًا؛ إذ أتاهُ ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ، فقال: يا رسول اللَّه اعدل. فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**»، فقال عمر: يا رسول اللَّه ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: «**دَعْه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر إلى رِصَافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيه ـ وهو قدحه ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيَتُهُمْ رجل أسود**

---

(١) أخرجه مسلم ص (٧٤٨)، وأبو داود (٤٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)، وأبو داود (٤٧٦٧)، والنسائي (١١٩/٧)، وأحمد (٨١/١، ١١٣، ١٣١) وفي (الفضائل) (١١٩٨)، وأبو يعلى (٢٢٥/١، ٢٢٦)، والنسائي في (الخصائص) (١٧٣، ١٧٤).

إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعة تدردر، ويخرجون على حين فُرقة من الناس». قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتُمِس فأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ الذي نَعَتَه»[١].

وقال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**إن من ضئضئ[٢] هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز[٣] حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون[٤] أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[٥].

وقال ﷺ: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم؛ يتلون كتاب اللَّه رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»[٦].

اجتمع الخوارج بعضهم إلى بعض في منزل عبداللَّه بن وهب الراسبي في الكوفة، وقال عبداللَّه بن وهب الراسبي: «**اخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أَهْلُهَا إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة**»، وقال حمزة بن سنان الأسدي: «**وَلُّوا أَمْرَكُمْ رجلًا منكم؛ فإنه لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها**»، فتولى عبداللَّه بن وهب القيادة، وتقرر الخروج إلى جسر النهراون، والكتابة إلى خوارج البصرة للانضمام إليهم، فاستجاب لهم خمس مئة من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا (١٦٩)، وأحمد (٣/٥٦).

(٢) أي: صلبه ونسله.

(٣) يتعدَّاها.

(٤) أي: يسالمونهم، من الموادعة.

(٥) **صحيح**: رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي سعيد.

(٦) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي سعيد.

خوارج البصرة، تولى قيادتهم مسعر بن فدكي التميمي، والتحق بهم آخرون، وهددوا أمن البلاد بشكل خطير، فلم يعد باستطاعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه تجاهلهم.

كانت خوارج الكوفة قد سبقت إلى «**جسر النهر**»، وأقامت معسكرها هناك، ثم سارت خوارج البصرة للانضمام إلى خوارج الكوفة، وعندما اقتربت من النهر، خرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه فتهددوه وأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟

قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ.

ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض ـ وكان سقط عنه لما أفزعوه ـ فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم. قالوا له: لا روع عليك! فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه عن رسول الله ﷺ، لعل الله ينفعنا به! فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ قال: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمنًا ويصبح فيها كافرًا، ويصبح فيها كافرًا ويمسي فيها مؤمنًا**»، فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرًا، وعادوا فسألوه: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أولها وفي آخرها. وسألوه: فما تقول في عليٍّ قبل التحكيم وبعده؟ فرد عليهم عبدالله بن خباب: «**إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقيًا على دينه، وأنفذ بصيرة**»، فقالوا له: «**إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدًا**»، فأخذوه، فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متمٌّ حتى نزلوا تحت نخل قد كَثُرَ حمله فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقذفها في فمه، فقال له أحدهم: بغير حِلِّها أخذتها وبغير ثمن. فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه، فمر به خنزير لأهل الذمة، فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير، فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم عبدالله بن خباب، قال: «**لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عَلَيَّ منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثًا، ولقد أمنتموني عندما قلتم: لا روع عليك!**»، فجاءوا به

فأضجعوه فذبحوه، وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: «**إني إنما امرأة، ألا تتقون الله!**»، فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

علم أمير المؤمنين علي بما فعله الخوارج، فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدي لمعرفة حقيقة ما حدث، فلما جاء الحارث إلى الخوارج قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، وأرسل علي ﷺ إلى الخوارج: «**ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعل اللَّه يقلب قلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم**»، فبعثوا إليه ردهم: «**لكننا قتلناهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم**».

ولما خرجت الخوارج على عليٍّ وكانوا ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس، ونزل بحروراء فناظرهم علي، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبداللَّه بن الكواء، فبعث عليٌّ إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا، فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلًا، ولا تظلموا أحدًا، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب.

قال عبداللَّه بن شدَّاد: فواللَّه ما قتلهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم الحرام، وذلك بقتلهم عبداللَّه بن خباب بن الأرت، وبقروا بطن سُرِّيَّتِهِ.

«**وفي «الأوسط، للطبراني»**: عن جندب بن عبداللَّه البجَلي، قال: لما فارقت الخوارجُ عليًا، خرج في طلبهم، فانتهينا إلى عسكرهم، فإذا لهم دَوِيٌّ كدويِّ النحل من قراءة القرآن، وإذا فيهم أصحاب البرانِس. أي: الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة. قال: فدخلني من ذلك شِدَّة، فنزلتُ عن فرسي، وقمتُ أصلي، فقلتُ: اللهمَّ إنْ كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذنْ لي فيه، فمرَّ بي عليٌّ، فقال لما حاذاني: تعوَّذْ باللَّه من الشكِّ يا جندب. فلما جئتُه أقبل رجلٌ على بِرْذَوْنٍ يقول: إنْ كان لك بالقوم حاجة، فإنهم قد قطعوا النهر. قال: ما قطعوه. ثم جاء آخر كذلك، ثم جاء آخر كذلك. قال: لا، ما قطعوه، ولا يقطعونه، ولَيقتلنَّ مَن دُونه عهدٌ من اللَّه

ورسوله. قلتُ: اللَّه أكبر. ثم ركبنا فسايرته، فقال لي: سأبعث إليهم رجلًا يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب اللَّه وسنة نبيهم، فلا يُقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبْل، ولا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة. قال: فانتهينا إلى القوم، فأرسل إليهم رجلًا فرماه إنسان، فأقبل علينا بوجهه فقعد، وقال علي: دونكم القومَ. فما قُتل منَّا عشرة ولا نجا منهم عشرة».

وفي رواية زيد بن وهب: «فقال عليٌّ: الْتمسوا فيهم المخْرَج. فالتمسوه فلم يجدوه، فقام عليٌّ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضُهم على بعضٍ، قال: أخِّروهم. فوجده ممَّا يلي الأرض، فكبَّر، ثم قال: صدَقَ اللَّه وبلَّغ رسولُهُ».

وفي رواية عبيداللَّه بن أبي رافع: «فلمَّا قتلهم عليٌّ قال: انظروا. فنظروا، فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا؛ فواللَّه ما كُذِبت، ولا كَذبتُ. مرتين أو ثلاثًا، ثم وجدوه في خَرِبة، فأتوا به حتى وضعوه بين يديْه»، [أخرجها مسلم].

وفي رواية للطبري من طريق زيد بن وهب: «فقال عليٌّ: اطلبوا ذا الثدية. فطلبوه فلم يجدوه، فقال: ما كُذبتُ ولا كَذبتُ، اطلبوه. فطلبوه، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض، عليه ناس من القتلى، فإذ رجل على يده مثل سبلات السِّنَّور، فكبَّر عليٌّ والناس، وأعجَبَه ذلك»[1]. وفرح الناس حين رأوه واستبشروا وذهب عنهم ما كانوا يجدونه.

وفي رواية أخرى: «تَوَجَّهَ قيس بن سعد بن عبادة في محاولة لتجنب سفك الدماء، وخاطب الخوارج فكان مما قاله لهم: عباد الله! أخرجوا إلينا طلبتنا منكم، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيمًا من الأمر، تشهدون علينا بالشرك، والشرك ظلم عظيم، وتسفكون دماء المسلمين وَتَعُدُّونَهُمْ مشركين!. فرد عليه عبداللَّه بن شجرة السلمي: إن الحق قد

---

(١) فتح الباري (١٢/٣١٠، ٣١١).

أضاء لنا؛ فلسنا نبايعكم أو تأتونا بمثل عمر. فقال لهم سعد: ما نعلمه فينا غير صاحبنا، فهل تعلمونه فيكم؟ نشدتكم باللَّه في أنفسكم أن لا تهلكوها؛ فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم!».

وخاطبهم أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، فقال لهم: «**عباد الله! إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنَّا عليها، ليست بيننا وبينكم فرقة، فَعَلَامَ تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدًا. فأجابهم أبو أيوب: أنشدكم اللَّه أن لا تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في قابل**».

وعاد أمير المؤمنين علي للتحدث إلى الخوارج فلما فشل في إقناعهم، وعجزوا عن مقارعته بالحجة والمنطق، تداعوا إلى السلاح، فكان لا بد من خوض المعركة، ولكن وقبل بدء الاشتباك رفع أمير المؤمنين علي «**راية الأمان**»، وأرسلها مع أبي أيوب الأنصاري، فقال أبو أيوب للخوارج: «**من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم**».

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: واللَّه ما أدري على أي شيء نقاتل عليًا، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتِّباعه. وانصرف في خمس مئة فارس.

وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلت الكوفة، وانضم إلى أمير المؤمنين علي منهم نحو من مئة، وهكذا لم يبق من الأربعة آلاف مقاتل الذين كانوا مع «**عبداللَّه بن وهب**» سوى ألفين وثمان مئة.

كان أمير المؤمنين عليٌّ قد نظم قواته، فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبث بن ربعي، ـ أو معقل بن قيس الرياحي ـ، وعلى الخيل ـ الفرسان ـ أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة ـ المشاة ـ أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبع مئة أو ثمان مئة رجل ـ قيس بن سعد بن عبادة.

وبالمقابل فقد نظم الخوارج قواتهم، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي،

وعلى ميسرتهم شريح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم - فرسانهم - حمزة بن سنان الأسدي، وعلى الرجالة - المشاة - حرقوص بن زهير السعدي.

وضع أمير المؤمنين عليٌّ قوة الفرسان في المواجهة، وصف الناس وراء الفرسان صفين، ووضع صفًّا - نسقًا - من الرماة أمام الصف الأول، وأصدر أمره: كفوا عنهم حتى يبدءوكم، فإنهم لو شدوا عليكم - وَجُلُّهُمْ من المشاة - لم يصلوا إليكم إلا وهم مرهقين - لاغبين - وأنتم رادون حامون.

وانطلق الخوارج بالهجوم، فتراجعت قوة فرسان أمير المؤمنين علي، ثم انقسمت إلى فرقتين؛ فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة، وأقبلوا نحو نساق المشاة، فاستقبلهم الرماة بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم المشاة بالرماح والسيوف، وما هي إلا جولة سريعة وخاطفة حتى أبيدت قوة الخوارج إبادة شبه تامة بعد أن أحيط بها من كل مكان، وجمع الجرحى فكان عددهم أربع مئة رجل، فأمر بهم أمير المؤمنين علي فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء[1].

ومما قاله أمير المؤمنين يحضُّ على الجهاد:

«أيها الناس! استعدوا للمسير إلى عدوكم، ففي جهاده القربة إلى الله، ودرك الوسيلة عنده، حيارى في الحق، جفاة عن الكتاب، نُكُبٌ عن الدِّين، يعمهون في الطغيان، ويعكسون في غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلًا، وكفى بالله نصيرًا».

وقال: «عباد الله! ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز؟ أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة - منزوعة - فأنتم لا تعقلون! وكأن

(١) الإمام القائد، لبسام العسلي ص (١١٩ - ١٢١) (دار النفائس).

أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون، لله أنتم! ما أنتم إلا أسود الشرى في الدَّعة، وثعالب رواغة حين تُدعون إلى البأس، ما أنتم لي بثقة أبدًا، وما أنتم بركب يصال بكم، ولا ذي عز يعتصم إليه، لعمر الله، لبئس حُشاش الحرب أنتم، إنكم تُكادون ولا تكيدون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل، وبات لذل من وادع، وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب».

فلقد أرسل علي بن أبي طالب معقل بن قيس لقتال الخرِّيت بن راشد ومن معه من الخوارج من بني ناجية وأتباعهم، فقتلوا الخريت، وقُتل معه سبعون ومئة، ومزِّق من بقي منهم شر ممزق.

لقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من أهل الشجاعة والإقدام، حتى قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته ـ يعني عليًا ـ يخطر بالسيف هام المشركين يقول: سنحنح الليل كأني جني[1].

وفي رواية أخرى لهذا الخبر قال: **«سمعمع كأنني من جني»**.

❏ إذا جالت الخيل يا أبا الحسن فأين نطلبك؟

قيل لعلي رضي الله عنه: **«إذا جالت الخيل فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني»**[2].

قال الأبشيهي وهو يعدد الشجعان: «منهم علي بن أبي طالب، آية من آيات الله،

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن الأثير في (أُسد الغابة) (٤/٩٧).
يخطر: يقال: خطر بسيفه ورمحه يخطر خطرانًا: إذا رفعه مرة، ووضعه أخرى.
والهام: الرءوس.
والمعنى: أن عليًا رضي الله عنه يقول: لا أنام الليل أبدًا، فأنا متيقظ.
فالسنحنح: العريض الذي يسنح كثيرًا، وأضافه إلى الليل، على معنى أنه يكثر السنوح فيه لأعدائه، والتعرض لهم لجلادته.
والسمعمع: السريع الخفيف، وهو في وصف الذئب أشهر.
والسمعمع: الصغير الرأس والجثة، الداهية.
(٢) المستطرف (١/٣١٦).

ومعجزة من معجزات رسول اللَّه ﷺ، مؤيَّد بالتأييد الإلهي، مثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدِّم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مِرْية ولا خلاف، وكان يقول: والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهونُ عليَّ من موتة على فراش.

وقال بعض العرب: «ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض»[(١)].

❑ شجاعة أبي الحسن وثبات قلبه:

ليس أدل على شجاعة أبي الحسن رضي الله عنه وثبات قلبه من أنه حمى الدعوة في شخص نبيها ﷺ، ونام في فراشه ليلة الهجرة في أصعب ليلة مرت بها الدعوة، رجل ينام في الفراش، وهو يعلم أن على الباب رجالًا معهم سيوفهم الصوارم لا يريدون إلا رأس النائم في الفراش.. فأي شجاعة ورباط جأش يفوق هذا.

فلن ينسى النبي له صنيعًا ... عشية ودع البيت الحراما
عشية سامه[(٢)] في اللَّه نفسًا ... لغير اللَّه تكبر أن تُساما
فأرخصها فدى لأخيه لما ... تسجى في حظيرته وناما
وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب اللَّه تنتحمُ انتحاما[(٣)]
فلم يأبه لها أنَفًا عليٌّ ... ولم تقلق بجفنيه مناما
وما زأموا الفتى ولربَّ بأسٍ ... لهم يقضي به الليث ازوئاما[(٤)]
وأغشى اللَّه أعينهم فراحتْ ... ولم تر ذلك البدر التماما

ويرحم اللَّه من قال:

---

(١) المستطرف (١/٣١٤، ٣١٥).

(٢) سامه الشيء: طلبه منه.

(٣) الانتحام والانتهام بمعنى؛ وهو: علو النَّفَس من غضب أو خوفٍ أو نحوهما، ومنه صوت الأسد والهر الذي يشبه الغطيط.

(٤) زأمه: أفزعه، والازوئام افتعالٌ منه.

وبـاتَ دُوِّيـنـهُ في الـفـراشِ   مُـوطِّنَ نَفْسٍ عـلى الأصعبِ

الراية مع علي يوم بدر، ومعه جبريل وميكال:

عقد النبي يوم بدر لواءً أبيض ودفعه إلى مصعب بن عمير، وكان أمامه رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب، والثانية مع سعد بن معاذ، وقيل: مع الحباب بن المنذر.

هـذا عـليٌّ في اللواء ومصعبٌ   والنصر في عِطفيهما يترنحُ
حملا لِوَائَيْهِ فلو صدح الهدى   في مشهد جللٍ لأقبل يصدحُ

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «قيل لعليٍّ[1] ولأبي بكر يوم بدر: مع أحد كما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال: يشهد الصف».

يا لجلال هذا المشهد الوضيء.. وانظر إلى الحديث الآخر الذي لا يقوم لجماله أي جمال، عن هبيرة بن مريم قال: سمعت الحسن بن علي قام فخطب الناس فقال: «يا أيها الناس لقد فارقكم أمس رجل ما سبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية، فما يرجع حتى يفتح الله عليه، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره»[2].

ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبع مئة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا»[3].

---

(١) القائل: هو رسول الله ﷺ كما هو واضح في رواية أبي يعلى والحاكم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/١٤٧)، وأبو يعلى (١/٢٨٣، ٢٨٤)، والحاكم (٣/١٣٤)، وقال: (هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وأشار الذهبي إلى أنه على شرط مسلم، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٢١٧)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/١٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٠٠٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٢٢١١)، وأحمد (١/١٩٩)، والبزار (٢٥٧٤- الكشف)، والطبراني في (المعجم الكبير) (١/١٣١/١)، والنسائي في (الخصائص) رقم (٢٥) نحوه، وابن عساكر (١٢/ ١/٢١٥ - ٢).

❑ قتل علي لأحد حملة اللواء العبدري:

بعد أن قُتل من حملة اللواء العبدري «**لواء المشركين**» ستة من بيت واحد - وهو بيت أبي طلحة عبدالله بن عثمان بن عبد الدار - صُرعوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمل اللواء بعدهم - من بني عبدالدار - أرطاة بن شرحبيل فلم يمهله علي بن أبي طالب بل قتله(١).

❑ حامل لواء المسلمين يوم بني قريظة هو علي رضي الله عنه:

عندما اعتزم الرسول ﷺ التحرك بجيشه نحو بني قريظة أعطى اللواء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان هذا اللواء هو نفس اللواء الذي قاتل المسلمون تحته أيام الخندق، لم يُحَلَّ من ساريته(٢).

❑ ويضرب أعناق بني قريظة بعد حكم سعد بن معاذ بضرب أعناقهم:

لقد تولى علي رضي الله عنه والزبير - كما سيأتي ذكره فيما بعد - عملية قتل يهود بني قريظة، وتوليا قتل جميع هؤلاء الخونة في ليلة واحدة على ضوء مشاعل سعف النخل وكان عددهم ما بين ست مئة إلى سبع مئة أو ثمان مئة إلى التسع مئة.

❑ وفي سريته إلى طيئ لهدم «الفلس» قال أحمد محرم في ديوانه «مجد الإسلام»:

إلى طَيِّئٍ يابنَ عمِّ النبي ... إلى معشر يعبدون الصَّنَمْ
إلى الفُلسِ في جُندِك الغالبين ... فلن يَلبثَ الشِّركُ أن يُصطلَمْ(٣)
أضل العُقولَ وأعْمَى القلوب ... وأشقى النُّفوسَ وهدَّ الهِمَمْ
أرى طَيِّئًا خَذلَتْ ربَّها ... فما من مَلاذٍ، ولا مُعتصَمْ
فيا لَكَ ربًّا يذوقُ الهوان ... فيُغضى عليه ولا يَنْتقِمْ

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (أحد) ص (١٠٢).
(٢) موسوعة الغزوات (قريظة) ص (١٤٥).
(٣) اصطلم الشيء: استأصله.

مـضـى عـزُّه وانـطَـوى مـجـده
فَـزالَ الجلالُ وبَـادَ الـعـظَـمْ

وأصـبـح تَـذْرُوه هُـوجُ الـريـاح
فَـتـلـكَ تَـفـارِيـقُـه مـا تُـلَـم

وهـاتـيـك أسـلابُـه أطـلِـقَـتْ
وكـانـت حـبائسَ منذُ الـقِـدَمْ

سُـيوفٌ بَـقـينَ طِوالَ الـعُـصور
ودائـــعَ لـلـــوارثـــينَ الأُمَمْ

مَلَلْنَ لدى الفُلسِ عهدَ الظلام
فأصبحن مِيراثَ ماحِي الظُّلَمْ

أضـاءَ الـرَّسُـوبُ بـه والـيـمـانـي
وأشـرقَ في راحَـتَـيْـهِ الخَذِمْ

ومـا نَـظـرتْ أعـيُنُ الـدَّراعـين
كـأدراعـه الـغـالـيـاتِ الـقِـيَـمْ

رَجـعْـتَ بـهـا يـابـنَ عـمِّ الـنـبيّ
وبـالـشـاء مـجـلـوبـةً والـنَّـعَـمْ

وبـالـسَّـبْـيِ مُـغْـتَـنَـمًـا مـا رأى
خُـمـاةَ الحـارمِ إذ يُـغْـتَـنَـمْ

❑ وفي سرية علي رضي الله عنه إلى «مِذحج» قال أحمد محرم:

بني مِذْحجٍ ما ثَمَّ من مُترددٌ
هُوَ الدينُ أوَ حدُّ الحُسامِ المُهنَّدِ

ألا فانظروا سيف الإمام وبأسَهُ
ترَوْا عجبًا من مشهدٍ ليس بالدَّدِ[1]

بُلِيتُمْ بمعقودِ اللواءِ على يدٍ
يَشُدُّ عليها مالكُ المُلكِ باليدِ

بني مِذْحجٍ ما ظنُّكم بمُدجَّجٍ
تُعممهُ للحرب كفُّ مُحمَّدِ

غزاكم بمن لا تَعرِفُ الحربُ غيرهم
إذا انتسب الأبطالُ في كل مشهدِ

أصابوا من الأسلاب والسَّبْي ما ابْتغوا
وأنتم بمنأى بين صَرْعَى وهُجَّدِ

فلما لَقُوكم قال صاحبُ أمرِهم
هوُ الحقُّ مَن يُؤثِرْهُ يَرشَدْ ويهتدِ

فإن تُسلِمُوا فاللّه بيني وبينكم
وإن تُعرِضُوا فالسيفُ عَضْبُ المجرَّدِ

صددتم صُدودَ الجاهلينَ وَردَّكم
عَنِ الحقِّ رأيٌ طائشٌ لم يُسدَّدِ

جَرى النبلُ يهوي واسْتطارَت حِجارةٌ
تتابعُ شتَّى بين مَثنى وموَحَدِ

رَمَيْتُم بها جُندَ النبيِّ وإنَّما
رميتم بأحلام عَوازبَ شُرَّدِ[2]

مضى السيفُ يجزيكم على الشرِّ مِثلَهُ
فلا دَمُكم بَسْلٌ ولا هُو مُعتَدِ[3]

---

(١) الدَّد: اللعب.

(٢) أحلام عوازب؛ أي: عقول خالية أو زاهية، من عزب: غاب وبعد وذهب.

(٣) البسل: الحرام.

فَوليتمُ الأدبَار وارتدَّ جَمعُكم شرادمَ شتَّى كالشَّعاعِ المُبَدَّدِ[1]
وآمنَ منكم معشرٌ عادَ جَدُّهم سعيدًا ومن يرغبْ إلى اللهِ يَسْعَدِ
وجاءوا فقالوا هذه صدقاتنا فَخُذْها بإحسانٍ وإن شئتَ فازْدَدِ
نَدينُ بأنَّ البِرَّ لا شيءَ مثله ونبذلُ حقَّ اللهِ غيرَ مُنكَّدِ[2]
وأنَّا لكم عَونٌ على ما وراءنا نناجِزُ منهم كلَّ غاوٍ ومُفْسِدِ
وندعو إلى الإسلامِ نَنشرُ نَورَهُ ونُوردُ منه قومَنا خيرَ مَوردِ
لك الشكر فَارْجِعْ يا عليُّ مظفَّرًا وبَشِّرْ رسولَ اللَّه يَشكُرْ ويَحْمَدِ

❑ ولله در الشاعر محمد عبد المطلب إذ يقول:

فكَمْ طابت به للحق نفْسٌ بطيْبة حين أوطنها مُقاما
وكم شهدتْ له الزَّوراء يوما وكم حمد الحنيفُ له مَقَاما
فسائل في المواطن عن فتاها إذا حَبكَتْ عواصفُهَا القَتَاما[3]
إذا لمعتْ سيوفُ اللّه فيها تَقُطُّ خَواصرًا وتَقُدُّ قاما[4]
وخيل اللّه في الجلبات شعثٌ تدكُّ السهلَ أو تطسُ الرضاما[5]
سل الرايات كَمْ رَاءتْ عليًا يصرف تحتها الجيشَ اللهاما[6]
كأني بابن عتبة يوم بدر يُعاني تحت مجْثَمه جُثاما[7]
ولو عَلم الوليد بمَنْ سيلقى لألقَى قبل مصرعه السلاما
رُوَيْدَ بني ربيعة قد ظلَمْتُم بني الأعمام والرَّحم الجراما
وصلناكُمْ بها وقطعتموها فكان الحزمُ أن تَردوا الحَمَاما

---

(١) شراذم: جماعات ممزقة، والشعاع المتفرق من كل شيء.
(٢) المنكد: القليل العسر.
(٣) القتام: الغبار.
(٤) الخواصر: جمع خاصرة. والقام: القامات.
(٥) الجلبة: صوت الناس في الحرب ونحوها. وشعث: جمع أشعث؛ أي: أغبر. وتطس: تضرب بحوافرها. الرضام: الحجارة.
(٦) راءت: رأت. واللهام: الغزير.
(٧) ابن عتبة: هو الوليد، وهو قرن علي يوم بدر. والجثام ـ بالضم ـ: الكابوس.

فهل ينشون للفرقان يومًا   سقاهُمُ من صوارمنَا سمَاما[1]
لقد ظنوا بنا الظنونَ فخابُوا   وكان عليهمُ يومًا عُقاما[2]
وهل وجَدُوا كفتيتهم عليًّا   إذا لَبسُوا القَوَانسَ والعماما[3]
وما صهْر النبي إذا تنادوا   كمن يدعُو ربيعة أو هشاما
ومن تُهدي البتولُ له عروسا   بَنى في النَّجْم بيتًا لا يُسَامى

☐ يوم أحد

فسائلْ عنه في أحُد العَوالي   وقد حَلك العَجَاجُ بها وآما[4]
وجاءت في زمازمها قريش   يهزُّون المثقِّف والهُذاما[5]
فقَطر كبشَها وهَوَى صريعًا   على الدَّقعَاء يلتهم الرَّغَامَا[6]
هوَى من تحت رايتهم فخرت   بأم الأرض ترتطمُ ارتطاما[7]
وحطَّم غمْدَهُ وهَوَى إليهم   هُوي الباز يعتبطُ الحمَاما[8]
فطاروا عن مواقفهم شَغَاعًا   وطاحُوا في مصارعهم خُطاما[9]
وألفى ثمَّ أحمد في رحاها   بجند الكفر يصطدمُ اصطداما

☐ يوم الخندق

فذاك ولَوْ تَرَى إذ جاب قوم   على الإسلام خندقه اقتحاما

---

(١) الفرقان: يوم بدر.

(٢) يوم عُقَام ـ بالضم ـ: شديد.

(٣) القوانس: جمع قونس؛ وهو: أعلى البيضة، مجاز فيها. والعمام: جمع عمامة.

(٤) حلك: أسود. والأوام والإيام: الدخان، وآم فعل منه.

(٥) الزمازم: جمع زمزمة ـ بالفتح ـ؛ وهي: الصوت البعيد ذو الدوي. والمثقف: الرمح. والهذام ـ بالضم ـ: السيف.

(٦) قطر الفارس: صرعه. والكبش: حامل اللواء، وكان من بني عبد الدار في أحد. والدقعاء: الأرض. والرغام: التراب.

(٧) أم الشيء: أصله. وارتطم: اصطدم؛ كارتضم، يقال: أم رأسه، والمجرة أم النجوم، ونحوه كثير.

(٨) اعتبطه الموت: غشيه.

(٩) طاروا شَغَاعًا ـ بالفتح ـ: تفرقوا مع التلاشي. وطاحوا: هلكوا. والحطام: الكُسَارة.

وأقبل في لباس البأس عَمْرُو يزيدُ على مخيلته غُمَرانا
يدافع نفسه ولها غطيطٌ حَذَارَ الموت تنتهمُ انتهاما
ردى حسبي هَنَاةٌ يوم بدر بها ألبستنى ذمًّا وذامَا[١]
لقد أكلت نساء الحي عرضي فلا لحمًا تَركْن ولا عظاما
ملأنَ بطاحَ مكة بي حديثا مَسَحْنَ به مناقبي القدَما[٢]
فثاروا للأسنة والمواضي ودوي الهوْلُ بينهُمُ ودَاما[٣]

قتله مَرْحَبَ بن منسية

أقبل مَرْحَبُ في البأس يحبو وكان البأس صاحبه الأزاما[٤]
يميلُ إذا انتمى صَلَفًا وكبرًا كراكب لجة يشكو الهُدَاما[٥]
ألم أكُ مرحبًا يوم التنادي إذا ما الليثُ من فزَعٍ ألاما[٦]
ألست لآل إسرائيل غوثا إذا نَشَدوا بي البطل الهُذَاما[٧]
وما علم الفتى أنَّ المنايا خَطَطْنَ بذي الفقَار له مَناما
وأن له من الكرار يوما عَبُوسَ الجو يحتبكُ الإياما[٨]
سلا ابن الخيبرية يوم وافى وليت اللّه يرقُبهُ رَغَاما[٩]
ضفا حَلَقُ الحديد عليه مَثْنَى وظاهَرَ فوق بيْضته الرخاما[١٠]

---

(١) الذام: العيب.
(٢) القدام ـ بالكسر ـ: جمع قديم.
(٣) دوّى بالتضعيف لا غير. ودام: استمر.
(٤) الصاحب الأزام ـ بضم الهمزة ـ: الملازم.
(٥) الصلف: كالكبر. والهدام ـ بالضم ـ: دوار البحر.
(٦) ألام: فعل ما يلام عليه.
(٧) الهذام: الشجاع.
(٨) الإيام ـ بالكسر ـ: الدخان. واحتبك: عقد.
(٩) المراد به مرحب بن منسية المشار إليه. والرَّغام ـ بالفتح ـ: حدة النظر.
(١٠) ضفا: سبغ وطال. وظاهر بين الدرعين: جعل بطن إحداهما على ظهر الأخرى؛ أي: لبسها فوقها. جاء مرحب إلى علي، وقد لبس درعين، وتقلد سيفين ورمحين، ولبس فوق البيضة أخرى من الرخام.

ولم أر قبل مَرْحب من كميّ ... يُثَنى في الوغى يفا ولاما[١]

فشد على الإمام بذي سطام ... نضاهُ لكل جاحمة سطاما[٢]

فزال مَجنّ حيدر لا لوَهْن ... ولا ضعفتْ لحمَله سُلَامى[٣]

ومال بطرفه فإذا رتاجٌ ... هناك تخالُهُ جبلًا تسامى[٤]

فسَلْ يُسراه كيف تلقفتْهُ ... وقد أعْيَا تَحمُّلُهُ الفئاما[٥]

يُقبله بها ترسًا ويغشى ... بيمنا الفتى مرنا زؤاما[٦]

يُقبله بها ترسًا ويغشى ... بيمناهُ لعادَ بها هَيَاما[٧]

فلم يعصمه من حينْ رُخام ... ولم يجد الحديدَ له عصاما

وليس أخو اللثام وإن تزكى ... لسيف اللَّه في الهيجا لئاما[٨]

رأى ابن الخيبرية كيف لاقى ... بحيدر ذلك الأسد الرزاما[٩]

وعادت خيبرُ لله فيئًا ... يُقَسّمُ في كتائبه اقتساما[١٠]

زعامته في المواطن

فدع عنك المواطنَ والمغازي ... ومن سلَ الظُبا فيها وشاما[١١]

---

(١) اللَّامُ بتسهيل الهمزة: جمع اللَّأْمَةِ؛ وهي: أداة الفارس وشكته.

(٢) السطام الأولى: حد السيف، والثانية: ما يُقَلَّبُ به الحداد نار الكير. ونضاه: جرده.

(٣) السلامى: أصول الأصابع في الراحة.

(٤) الرّتاجُ - بالكسر -: الباب العظيم.

(٥) الفئام - بالكسر -: الجماعة من الناس.

(٦) الزؤام - بالضم -: الشديد.

(٧) رضوى: جبل. والْهَيَام - بالفتح -: الرمل المهيل.

(٨) لئام الأولى: جمع لئيم، والثانية: المثلُ.

(٩) الرّزام - بالفتح -: البروك على فريسته.

وحاصل القصة: أن مرحبًا لمَّا اشتد على الإمام، طار مجنُّهُ من يده؛ فمال إلى باب كبير هناك، لم يستطع حمله بعد ذلك إلا سبعون رجلًا، وتترس به لمرحب، ثم صعقه بالسيف صعقةً فَلَقَ بها البيضتين، وما وقف السيف إلا في فكه الأسفل، وَخرَّ صريعًا، وكان قد رأى في رُؤًى في المنام أن ليثًا افترسه، فلما سمع عليًا يقول: (أنا الذي سمتني أمي حيدرة)، تحقق تأويل رؤياه.

(١٠) الفيء: المغنم.

(١١) شَامَ السيف: هنا أغمده، فهو ضد.

فَجبةَ للطغَاة بها وجوها وجَدَع للضلال بها حثاما[١]
ومن أجرى عتاق الخَيلْ قَبًا فأوطاها المتالعَ والحثاما[٢]
يخوضُ بها المواطن مُعْلمات ونصر اللّه كان لها عَلاَما
فما وجدت كحيدرة إماما غداة الروع يقدمها إذاما[٣]

وَلَقِيَ أميرُ المؤمنين عَلِيّ اللهَ شهيدًا على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي أشقى الآخرين كما قال رسول اللّه ﷺ.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرًا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ورحّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمبينا
إذا استقبلتَ وجه أبي حسين رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمتْ قريش حيث كانت بأنك خيرُها حسبًا ودينًا

وقال بكر بن حسان الباهري:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة هدمت للدين والإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم وأعظم الناس إسلامًا وإيمانًا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعًا وتبيانًا
صهر النبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نورًا وبرهانًا
وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمرانا
قد كان يخبرهم هذا بمقتله قبل المنية أزمانًا فأزمانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلتُ سبحان رب العرش سبحان

---

(١) جَبَّة وَجَبَة بالتضعيف والتخفيف: ضرب الجبهة. والحثمة: أرنبة الأنف، يأتي الأكمه. والجدع: قطع الأنف.

(٢) قبأ؛ أي: ضوامر. والمتالع: التلال ونحوها.

(٣) الروع: الخوف. والإدام: قدوة القوم الذي به يُعْرَفُونَ.

إني لأحسبه ما كان من إنس ... كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا اللَّه عنه سوء فعلته ... ولا سقى قبر عمران بن حطان
يا ضربة من شقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي أوردته لظى ... وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدًا بضربته ... إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا[1]

* * *

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٣/١٩٩).

٩

عبدالرحمن بن عوف الزهري

صاحب رسول الله ﷺ

وأحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد إحدى سرايا النبي ﷺ

عبدالرحمن بن عوف الزهري

صاحب رسول الله ﷺ وأحد العشرة
المبشرين بالجنة وقائد إحدى سرايا النبي ﷺ

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، وصلى خلفه النبي ﷺ في غزوة تبوك، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين إلى الحبشة، وإلى المدينة المنورة، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم، وأخبر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض، وهو الذي أخرج نفسه من الخلافة، واختار للمسلمين خليفتهم عثمان.

❑ جهاده

١- في غزوة بدرٍ الكبرى:

خرج المسلمون من المدينة إلى موقع «بَدْرٍ» يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية الهجرية [١]، وكانت إبل المسلمين سبعين بعيرًا، فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرجلين والثلاثة والأربعة، فكان بين أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بعير يعتقبونه [٢]، قال عبدالرحمن: «عَبَّأنا رسول الله ﷺ بليلٍ، فصنَّفنا، فأصبحنا ونحن على صفوفنا [٣]، وبينما أنا واقف في الصف يوم بدرٍ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، فتمنَّيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عمِّ! أتعرف أبا جَهْل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يابن أخي؟ قال: أُنْبِئْتُ أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده، لو رأيته لا يفارق سواده

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢/٢).

(٢) مغازي الواقدي (٢٤/١)، والدرر (١١١)، وجوامع السيرة (١٠٨)، وابن الأثير (١١٨/٢).

(٣) مغازي الواقدي (٨٨/١).

سواده[١] حتى يموت الأعجل منا. وغمزني الآخر، فقال مثلها، فلم ألبث أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان! هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتداره بأسيافهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. قال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا. فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله**»[٢]، وقد استُشهد هذان البطلان الصغيران يوم بدرٍ، وهما ابنا عَفْراء: عَوْف بن الحارث الخزرجي الأنصاري[٣]، ومُعَوِّذ بن الحارث الخزرجي الأنصاري[٤].

كما روى عبدالرحمن قصة قتل أُميَّة بن خلف فقال: «كان أُمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي: عَبْد عَمْرو، فتسميت حين أسلمت: عبدالرحمن ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عَبْد عَمْرو، أرغبتَ عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول: نعم. فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. فكان إذا دعاني يا عبدَ عَمْرو لم أُجبه! فقلت: يا أبا عليٍّ! اجعل ما شئت! قال: فأنت عبدالإله، قلت: نعم! فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله. فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدرٍ مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أُمية آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها. فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو! فلم أجبه! فقال: يا عبدالإله! فقلت: نعم. قال: هل لكَ فيِّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط!!!

---

(١) السواد: الشخص أو الشبح.

(٢) الاستبصار (١٥٦).

(٣) **انظر**: تفاصيل سيرته في (طبقات ابن سعد) (٤٩٢/٧)، و(الإصابة) (٤٢/٥)، و(أُسْد الغابة) (٤/ ١٥٥)، و(الاستيعاب) (١٢٢٥/٣).

(٤) **انظر**: تفاصيل سيرته في (طبقات ابن سعد) (٤٩٢/٧)، و(الإصابة) (١٢٩/٦)، و(أُسْد الغابة) (٤/ ٤٠٢)، و(الاستيعاب) (١٤٤٢/٤).

أما لكم حاجة في اللَّبن [١]؟! وقال لي أُميَّة بن خلف: يا عبدَالإله! مَنْ الرَّجلُ المُعْلَمُ بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبدالمطلب! قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! فواللَّه إني لأقودهما؛ إذ رآه بلالٌ معي، وكان هو الذي يُعَذِّب بلالًا بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رَمْضاء [٢] مكة إذا حميت، فَيُضْجِعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد. فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ! فلما رآه قال: رأسُ الكفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا! فقلت: أيْ بلال! أبأسيرِي؟ قال: لا نجوتُ إن نجا! ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأس الكفر أُميَّة بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا. فأحاطوا بنا، حتى جعلونا كالمَسَكَة [٣]؛ وأنا أَذبُّ عنه، فأخلف رجل السَّيف [٤]؛ فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أُميَّة صيحة ما سمعتُ بمثلها قط، فقلت: انْجُ بنفسك ولا نَجَاء بك، فواللَّه ما أُغني عنك شيئًا! فَهَبَرُوهما [٥] بالسُّيوف حتى فرغوا منهما، فكان عبدالرحمن يقول: يرحم اللَّه بِلالًا! ذهبت أدراعي، وفَجَعَني بأسِيري» [٦].

وقد أسر السَّائبَ بن أبي حُبَيْش الأسدي يوم بدر [٧]؛ كما قتل السائب بن أبي رفاعة من بني أُمية بن المُغِيْرة من بني مَخْزوم [٨].

لقد كان عبدالرحمن بدريًّا [٩] من البدريين الفاعلين، قاتل وقَتَل وأسر وغنم مما

---

(١) يريد باللبن: أنَّ مَنْ أسرني افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللبن؛ **انظر:** سيرة ابن هشام (٢/٢٧٢).

(٢) الرمضاء: الرمل الشديد الحرارة من الشمس.

(٣) المسكة: السوار من عاج أو ذبل. والذبل: جلدة السلحفاة البرية.

(٤) يقال: أخلف الرجل إلى سيفه: إذا رَدَّ يده إليه فسله من غمده.

(٥) هبروهما: قطعوا لحمهما؛ تقول: هبرت اللحم: إذا قطعته قطعًا كبارًا.

(٦) سيرة ابن هشام (٢/٢٧١ - ٢٧٣)، **وانظر:** مغازي الواقدي (١/٨٢، ٨٣)، وابن الأثير (٢/١٢٧).

(٧) مغازي الواقدي (١/٧٩)، وأنساب الأشراف (١/٣٠٢)، والسائب بن عبد العزى من بني أسد.

(٨) مغازي الواقدي (١/١٥٠)، وأنساب الأشراف (١/٣٠٠).

(٩) سيرة ابن هشام (٢/٣٢٧)، ومغازي الواقدي (١/١٥٥)، وجوامع السيرة (١١٧)، والدرر (١٢٣)، وطبقات ابن سعد (٣/١٢٨).

يدل على أثره البارز في هذه الغزوة الحاسمة.

٢ـ في غزوة أُحُد:

وكانت هذه الغزوة في شهر شَوال من سنة ثلاث الهجرية(١).

وثبت رسول اللَّه ﷺ يوم أُحُد في عصابة صبروا معه: أربعة عشر رجلًا؛ سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، وكان عبدالرحمن أحد السبعة المهاجرين الذين ثبتوا يوم أُحُد مع رسول اللَّه ﷺ(٢)، فجُرح يومئذٍ إحدى وعشرين جُراحة، وجرح في رجله وسقطت ثنيتاه(٣)، وجُرح في رجله فكان يعرج منها، وسقطت ثنيتاه فكان أَهْتَم(٤)، وقتل أَسِيْد بن أبي طلحة(٥)، وهو من بني عبد الدار من قريش، فكان مَنْ قُتل في هذا اليوم من بني عبد الدار عشرة نفرٍ ومولى لهم(٦)، وقيل: إنه قتل كلاب بن أبي طلحة ـ أيضًا ـ من بني عبدالدار(٧)، وعرج عبدالرحمن من جراحة برجله إلى أن مات(٨).

لقد كان عبدالرحمن بحق أحد أبطال المسلمين في غزوة «أُحُد»، فقد استقتل في الدفاع عن النبي ﷺ وثبت ثبات الرواسي في المعركة في موقف خطير للغاية، فأدى واجبه في الدفاع عن النبي ﷺ وفي الثبات على أحسن ما يكون عليه الدفاع البطولي والثبات العنيد.

---

(١) جوامع السيرة (١٥٦)، والدرر (١٥٣).
(٢) مغازي الواقدي (١/٢٤٠)، وأنساب الأشراف (١/٣١٨).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).
(٤) أسُد الغابة (٣/٣١٤).
(٥) المعارف (١٦١).
(٦) المعارف (١٦٠، ١٦١)، والدرر (١٦٥).
(٧) الدرر (١٦٥).
(٨) الدرر (١٥٨)، وهكذا تركت عاهة مستدامة منه.

٣ـ في الغزوات الجديدة:

أ ـ شهد غزوة الحُدَيْبِيَّة التي كانت في ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية، فساق قوم من أصحاب رسول اللّه ﷺ الهَدْي[١] من أهل الغنى، منهم عبدالرحمن[٢]، وكان أحد شهود صلح الحُدَيْبِيَّة بين المسلمين وقريش[٣]، ثم نحر بَدَنات له ساقها من المدينة[٤]، وعاد مع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

ب ـ وشهد غزوة خَيْبَر التي كانت في شهر المحرم من السنة السابعة الهجرية[٥]، فوقع سهم عبدالرحمن مع قسم من الصحابة في «الشِّقِّ»[٦] من خيبر، وقد جعل على كلِّ مئة رأس من المسلمين رأس يُعْرَف يَقْسِم على أصحابه ما خرج من غلتها، فكان عبدالرحمن أحد الرؤساء[٧].

ج ـ وشهد غزوة فتح مكة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية[٨]، فلما طلعت كتيبة رسول اللّه ﷺ الخضراء، ومر رسول اللّه ﷺ على ناقته القَصواء بين أبي بكر وأُسَيْد بن حُضَيْر وهو يحدِّثهما، فقال العباس لأبي سفيان بن حرب: هذا رسول اللّه ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، فيها الرايات والألوية، مع كل بطن من الأنصار راية ولواء، في الحديد لا يُرى منهم إلا الحَدَق. ويقال: كان في الكتيبة ألف دارع. وأعطى رسول اللّه ﷺ رايته سعد بن عُبادة وهو

---

(١) الهَدْي: ما يُهدى إلى الحرم من النَّعَم، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٧٢، ٥٧٣).

(٣) مغازي الوقدي (٢/٦١٢)، وسيرة ابن هشام (٣/٣٦٨)، وابن الأثير (٢/٢٠٥).

(٤) مغازي الواقدي (٢/٦١٤)، والبدنات: جمع بَدَنَة؛ ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمونها لذلك.

(٥) الدرر (٢٠٩)، وجوامع السيرة (٢١١).

(٦) مغازي الواقدي (٢/٦٨٩)، وسيرة ابن هشام (٣/٤٠٤)، والدرر (٢١٧)، وجوامع السيرة (٢١٤).

(٧) مغازي الوقدي (٢/٦٨٩).

(٨) الدرر (٢٢٧).

أمام الكتيبة، فلما مر سعد براية النبي ﷺ نادى: يا أبا سفيان! اليوم يوم المَلْحَمَة[١]، اليوم تُسْتَحلُّ الحُرمة! اليوم أذل اللّه قريشًا! فأقبل رسول اللّه ﷺ حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله! أمرتَ بقَتْل قَوْمك؟! زعم سعد ومَنْ معه حين مر بنا قال: يا أبا سفيان! اليوم يوم المَلْحمة! اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرمة! اليوم أذلَّ اللّه قريشًا! وإني أنشدك اللّه في قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. قال عبدالرحمن بن عوف وعُثمان بن عفان: يا رسول الله! ما نأمن سعدًا أن يكون منه في قريش صولة. فقال رسول اللّه ﷺ: «**اليوم يوم المَرحمة! اليوم أعز اللّه فيه قريشًا**»، وأرسل رسول اللّه ﷺ إلى سَعْدٍ فعزله، وجعل اللِّواء إلى قيس بن سعد بن عُبادة[٢].

د ـ وبعد فتح مكة بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على سرية داعيًا لا مقاتلًا[٣]، إلى بني جَذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كِنانة، فلما رآه القوم أخذوا السِّلاح، فقال خالد: «**ضعوا السِّلاح فإن الناس قد أسلموا**»[٤].

٤ـ في الغزوات الأخرى:

شهد عبدالرحمن تحت لواء النبي ﷺ المشاهد كلها[٥]، فشهد غزوة بني النَّضِيْر من يهود التي كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة الهجرية[٦]، فأعطى له رسول اللّه ﷺ «**سُؤَالَة**» وهو الذي يقال له: مال سُلَيْم[٧].

كما شهد غزوة الخندق[٨] التي كانت في شهر شوال من السنة الخامسة

---

(١) الملحمة: الحرب الشديدة وموضعها، والجمع: مَلَاحِم.
(٢) مغازي الواقدي (٢/٨٢١، ٨٢٢).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/٥٣).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/٥٣)، وطبقات ابن سعد (٢/١٤٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٢٨)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠٠).
(٦) الدرر (١٧٤).
(٧) مغازي الواقدي (١/٣٧٩).
(٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).

الهجرية[١]، وشهد غزوة بني المُصْطَلِق «غزوة المُرَيْسِيع» التي كانت في شعبان من السنة الخامسة الهجرية، وكان فارسًا[٢].

وشهد غزوة بني قُرَيْظَة من يهود التي كانت في شهر ذي القعدة من سنة خمس الهجرية، وكان فارسًا[٣]، فأعطى النبي ﷺ يومئذٍ للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا واحدًا[٤]، ولما سُبِيَ بنو قُرَيْظة، باع رسول اللَّه ﷺ منهم من عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف طائفة[٥].

وشهد غزوة «ذي قَرَد»[٦] التي كانت في شهر جمادى الأولى من السنة السادسة الهجرية[٧]، وكان لعبد الرحمن إبل ترعى في «الغابة»[٨]، كما كانت لرسول اللَّه ﷺ لِقَاح[٩] ترعى في الغابة ـ أيضًا ـ، فأغار عُيَيْنَة بن حِصْن في أربعين فارسًا على سَرْح المدينة، فأخطأ مكان إبل عبدالرحمن بن عوف واهتدى إلى لقاح رسول اللَّه ﷺ فاستاقها، فطارده المسلمون[١٠] وهرب المشركون[١١].

٥ـ قائد سرية دُومَة الجَنْدَل[١٢].

كانت في شهر شعبان من سنة ست الهجرية، فقد دعا النبي ﷺ عبدالرحمن بن

---

(١) الدرر (١٧٩).
(٢) مغازي الواقدي (١/٤٠٤ ـ ٤٠٥).
(٣) مغازي الواقدي (٢/٤٩٦ ـ ٤٩٨).
(٤) مغازي الواقدي (٢/٥٢٢).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٥١٣).
(٦) ذو قرد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان، وقيل: على مسافة يوم منها.
(٧) سيرة ابن هشام (٣/٣٢٣).
(٨) الغابة: موضع شمالي المدينة.
(٩) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات الألبان.
(١٠) مغازي الواقدي (٢/٥٣٩).
(١١) **انظر**: التفاصيل في (الدرر) (١٩٨، ١٩٩)، و(جوامع السيرة) (٢٠١ ـ ٢٠٣).
(١٢) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة؛ **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٤/١٠٦ ـ ١٠٩).

عوف، فأقعده بين يديه وعمَّمَه بيده، وقال: «**اغْزُ بسم اللَّه وفي سبيل الله، فقاتل مَنْ كفر بالله، لا تَغُلْ، ولا تغدر، ولا تقتل وليدًا**».

وبعثه إلى بني كَلْبٍ بِدُوْمَة الجَنْدَل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبي، وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام مَنْ أقام على إعطاء الجزية، وكان الأَصْبَغ نصرانيًا.

وكان النبي ﷺ قد قال لعبد الرحمن: «**إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم**»، فتزوج عبدالرحمن تُمَاضر بنت الأَصْبَغ، وقدم بها إلى المدينة، وهي أم أبي سَلَمَة بن عبدالرحمن بن عوف[(١)].

ولا نعلم شيئًا عن عدد أفراد هذه السرية، وهي على كلِّ حال من سرايا الدعوة، أدى فيها عبدالرحمن واجبه أداءً كاملًا.

ولكن خالدًا وجد السِّلاح على بني جَذِيمة، فسألهم: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون، قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبَنَيْنَا المساجد في ساحاتنا، وأَذَّنَّا فيها. قال: فما بال السِّلاح عليكم! فقالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوةً، فخفنا أن تكونوا هم، فأخذنا السِّلاح! قال: فضعوا السِّلاح! فوضعوه، فأسرهم وفرقهم في أصحابه، فلما كان في السَّحَر نادى خالد: مَنْ كان معه أسير، فَلْيُدافِّه. والمدَّافة الإجهاز عليه بالسيف، فأما بنو سُلَيْم فقتلوا مَنْ كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فبلغ النبي ﷺ ما صنع خالد فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»، وبعث علي بن أبي طالب، فودى لهم قَتْلاهم وما ذهب منهم، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فأخبره[(٢)].

وقد كان بين خالد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام في ذلك، فقال له عبدالرحمن: عَمِلتَ بأمر الجاهلية في الإسلام. فقال: إنما ثأَرْتُ بأبيك. فقال

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٨٩)، وسيرة ابن هشام (٣/٣٢٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٤٧ - ١٤٨).

عبدالرحمن: كذبتَ، قد قتلتُ قاتل أبي، ولكنَّك ثأرتَ بعمِّك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شرٌّ، وبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: **«مَهْلًا يا خالد! دَعْ عنك أصحابي، فواللَّه لو كان لك أُحُدٌ ذهبًا، ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركتَ غدوةَ رجلٍ من أصحابي ولا رَوْحَتَهُ»**[(١)].

وكان الفاكه بن المغيرة بن عبداللَّه بن عمر بن مخزوم، وعوف بن عبد عوف، وعَفَّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس قد خرجوا تجارًا إلى اليمن، ومع عفان ابنه عثمان، ومع عوف ابنه عبدالرحمن، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جَذيمة بن عامر هلك باليمن إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له: خالد بن هشام، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبَوْا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فَقُتِلَ عوف بن عبد عوف، والفاكه بن المغيرة، ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة، ومال عوف بن عبد عوف، فانطلقوا به، وَقَتَلَ عبدُ الرحمن بن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه، وهمت قريش بغزو بني جَذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم على مَلإٍ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم، ولم نعلم، فنحن نَعْقِلُ[(٢)] لكم ما كان لكم قِبَلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب[(٣)].

هـ - وشهد غزوة حُنَيْنٍ التي كانت في شهر شوال من السنة الثامنة الهجرية وحصار الطائف التي كانت في شوال من السنة الثامنة الهجرية - أيضًا -، فنال عبدالرحمن امرأة من سبي هوازن[(٤)]، فلما أمر النبي ﷺ بإعادة السبي إلى هوازن أعاد عبدالرحمن المرأة التي كانت عنده إلى أهلها[(٥)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٥٦)، وانظر: أيضًا في الواقدي (٣/٨٨٠، ٨٨١).
(٢) عقل القتيل: وَدَاهُ، فعقل ديته بالعُقُل في فناء ورثته، وكانت في الجاهلية من الإبل. والعقل: الدية.
(٣) سيرة ابن هشام (٤/٥٦، ٥٧).
(٤) مغازي الواقدي (٣/٩٤٣).
(٥) مغازي الواقدي (٣/٩٥٢).

و ـ وشهد غزوة تبوك التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية[١]، فحض رسول اللَّه ﷺ المسلمين على القتال والجهاد وأمرهم بالصدقة، فحمل عبدالرحمن من جملة من حمل إلى النبي ﷺ مالًا، مئتي أوقية[٢]، وهي أربعة آلاف درهم[٣] - كما يبدو.

وفي طريق النبي ﷺ من المدينة إلى تبوك صلَّى رسول اللَّه ﷺ خلفه في سفرة[٤] سافرها ركعة من صلاة الفجر[٥].

قال المغيرة بن شعبة: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر، فلما كان في السَّحَرِ، ضَرَبَ عُنُقَ راحلتي؛ فظننت أن له حاجة، فعدلت معه، فانطلقنا حتى تبرزنا عن الناس، فنزل عن راحلته ثم انطلق فتغيب عني حتى ما أراه، فمكث طويلًا ثم جاء. فقال: «**حاجتك يا مُغِيْرَة!**» قلت: ما لي حاجة! قال: «**فهل معك ماء؟**» قلت: نعم، فقمت إلى قربة أو قال: سطيحة[٦] معلقة في آخر الرحل، فأتيته بها، فصَبَبْتُ عليه، فغسل يديه فأحسن غسلهما، وأشُكُّ دَلَكَهُمَا بتُراب أم لا، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يحسر عن يديه وعليه جُبَّة شامية ضيِّقة الكم، فضاقت، فأخرج يديه من تحتها إخراجًا، فغسل وجهه ويديه، ثم مسح بناصيته ومسحَ على العمامة ومسح على الخُفَّين، ثم ركبنا، فأدركنا الناس وقد أقيمت الصلاة، فتقدمهم عبدالرحمن بن عَوْف، وقد صلَّى ركعة وهم في الثانية، فذهبت أُوذنه فنهاني،فصلينا الركعة التي أدركنا، وقضينا التي سَبَقَتْنا»، وكان هذا في تبوك، وكان المغيرة يحمل وضوء رسول اللَّه ﷺ وقال النبي ﷺ حين صلَّى خلف عبدالرحمن بن عَوْف: «**ما قُبض نبي قط،**

---

(١) طبقات ابن سعد (١٦٥/٢).

(٢) مغازي الواقدي (٩٩١/٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٢١٠/٤).

(٤) أُسْد الغابة (٣١٤/٣)، والإصابة (١٧٧/٤).

(٥) الإصابة (١٧٧/٤)، والبداية والنهاية (١٦٤/٧).

(٦) السطيحة: المزادة تكون من جلدين لا غير.

حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته»[١].

❑ جهاده بالمال

كان عبدالرحمن كثير الإنفاق في سبيل الله[٢]، وقد تصدق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف درهم، ثم تصدق بأربعين ألفًا من الدراهم، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمس مئة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمس مئة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة[٣]، وكان كثير المال محظوظًا بالتجارة[٤].

وحين حمل إلى النبي ﷺ أربعة آلاف درهم قال: كان عندي ثمانية آلاف، فأمسكت أربعة آلاف لنفسي وعيالي، وأربعة آلاف أقرضها ربي عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**»[٥]، فنزلت في عثمان بن عفان وفي عبدالرحمن الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا هو مبلغ جهاد عبدالرحمن المُعْلَن بالمال الذي كان معروفًا في أيام النبي ﷺ، وهو مبلغ جسيم ولا شك، وبخاصة في تلك الأيام، ولا بد أن يكون له جهاد غير مُعْلَن بالمال، لا يعلمه غير الله، لقد أدى عبدالرحمن واجبه مجاهدًا بالأموال والنفس.

وما تقول في ابن عوف رضي الله عنه وسقاه من سلسبيل الجنة، الذي ذكروا عنه أنه أعتق

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٢٨، ١٢٩)، **وانظر**: مغازي الواقدي (٣/١٠١٢).
(٢) أُسْد الغابة (٣/٣١٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).
(٣) أُسْد الغابة (٣/٣١٦)، والإصابة (٤/١٧٧).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).
(٥) الرياض النضرة، للمحب الطبري (٢/٣٧٩).

ثلاثين ألف نسمة في حياته؟![1].

عبدالرحمن بن عوف القائد

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب عن الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه:

أثبت عبدالرحمن بن عوف كفاية قتالية متميّزة في كلِّ غزوة خاضها تحت لواء الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، فأسر في بعض تلك الغزوات أسرى من المشركين، وقتل منهم قتلى، وباشر القتال في الصفوف الأمامية، وثبت مع عدد قليل من المسلمين ثبتوا إلى جانب الرسول ﷺ واستقتل في الدفاع عن النبي ﷺ حتى أصيب بأكثر من عشرين جرحًا، أحدها في ثنيتيه فهُتم، وفي رجله فعرج كل حياته، فكان عَرَجُهُ بعد إصابته برجله يوم أُحُد شاهدًا على ثباته العنيد ووسامًا على شجاعته وبطولته.

لقد أبلى بلاءً حسنًا في كل غزوة خاضها، وبخاصة غزوة أُحُد، وأبدى شجاعة نادرة في تلك الغزوة وفي غيرها من الغزوات حتى أصبح معدودًا من شجعان المسلمين المعدودين الذين يشار إليهم بالبنان، ويرشحون لقيادة السرايا على عهد النبي ﷺ، وقيادة الجيوش بعد انتقاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الرفيق الأعلى.

ولم يكن مجاهدًا من الطراز الأول بنفسه فحسب، بل كان مجاهدًا من الطراز الأول بماله ـ أيضًا ـ، وقد ذكرنا جهاده بالمال نقدًا وإبلًا وخيولًا.

«كان عارفًا بمبادئ الحرب، مطبِّقًا لها، يختار مقصده اختيارًا دقيقًا، وكان قائدًا تعرضيًّا، يطبق مبدأ المباغتة على خصمه، ويحرمه من تطبيق هذا المبدإ على رجاله، يحشد قوته قبل المعركة، ويقتصد بالمجهود ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويحرص على أمن رجاله حرصًا بغير حدود، خططهُ مرنة، يتعاون تعاونًا وثيقًا مع القيادة من جهة

---

(١) الإصابة (٤/١٧٧)، وحلية الأولياء (١/٩٩).

ومع رجاله من جهة أخرى، ويديم معنويات قواته، ويؤمِّن لها أمورها الإِدارية.

يتحلى بالطاعة والضبط المتين، ولا يخالف الأوامر التي تصدر إليه، ولا يحب الفتنة ولا يحب أهلها، ولا يسعى إليها بسيفه أو يده أو لسانه أو بها جميعًا، فمصلحة المسلمين ووحدة كلمتهم وصفوفهم هي هدفه الأعلى الذي يسعى إلى تحقيقه بكلِّ ما يستطيع من قوة وتصميم وعزم.

ولم يكن يحب الإمارة ولا يسعى إليها، ولكنه لا يمتنع عن تولِّيها باعتبارها تكليفًا لا تشريفًا[١].

---

(١) قادة النبي ﷺ ص (٢٩٥، ٢٩٦).

١٠

الصحابي الجليل
أبو محمد طلحة بن عُبيدالله التيمي، الشهيد

أحد العشرة المبشرين بالجنة، المقاتل دون رسول الله ﷺ قتال جيش كامل في أحد، فيوم أحد كله لطلحة رضي الله عنه

الصحابي الجليل أبو محمد
طلحة بن عُبيدالله التيمي، الشهيد

«قاتل طلحة بن عُبيدالله التيمي يوم أحد دون رسول اللَّه ﷺ قتالَ جيشٍ كاملٍ، ولعل قتال طلحة - يوم انهزم الناس عن النبي - كان أروع وأصدق قتال؛ فقد روى البيهقي في الدلائل عن أبي الزبير عن جابر، قال: «**انهزم الناس عن رسول الله** ﷺ يوم أحد، وبقي معه أحد عشر رجلًا من الأنصار، وطلحة بن عبيدالله، وهو يصعد في الجبل، فقال النبي ﷺ: «**أَلَا أَحَدٌ لِهَؤُلَاءِ؟!**» فقال طلحة: أنا يا رسول الله. فقال: «**كما كنت يا طلحة**»، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله. فقاتل عنه، وصعد رسول اللَّه ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتِلَ الأنصاري، ولحقوا رسول الله، فقال: «**أَلَا رَجُلٌ لِهَؤُلَاءِ؟**» فقال طلحة مثل قوله، فقال له رسول اللَّه مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله. فقاتل وأصحابه يصعدون، ثم قتل؛ فلحقوا رسول الله، فَيَرَلُ يقول مثل قوله الأول، وطلحة يقول: أنا يا رسول الله. فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار، فيأذن له، فيقاتل مثل مَنْ كان قبله، حتى قُتلوا جميعًا، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا طلحة حتى غشيهم المشركون، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**من لهؤلاء؟**»، فقال طلحة: أنا. فقاتل قتال جميع من كان قبله»[1].

وفي رواية أخرى: «عن جابر قال: لما كان يوم أحد، وَوَلَّى الناس، كان رسول اللَّه ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلًا، منهم طلحة، فأدركهم المشركون، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ للقوم؟**»، قال طلحة: أنا. قال: «**كما أنت**»، فقال رجل: أنا. قال: «**أنت**»، فقاتل حتى قُتل، ثم التفت فإذا المشركون، فقال: «**مَنْ لهم؟**»، قال طلحة: أنا. قال: «**كما أنت**»، فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «**أنت**»، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي اللَّه طلحةُ، فقال: «**مَنْ للقوم؟**»، قال طلحة: أنا. فقاتل

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحد)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٤٢).

طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه، فقال: «**حَسِّ**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لو قلت: «بسم الله»، لرفعتْك الملائكة، والناسُ ينظرون**»، ثم رَدَّ اللَّه المشركين.

وعند الطبراني: «**لو قلتَ: «بسم الله»، لطارت بك الملائكة، والناس ينظرون إليك**»[1].

وعند النسائي والبيهقي في الدلائل: «**حتى تَلِجَ بك في جوِّ السماء**».

لِلَّهِ دَرُّ أَبِي مُحَمَّدٍ.. مَا فَعَلَ، حتى لو نطق بـ «**بسم الله**»، لطارت به الملائكة، حتى تَلِجَ به السماءَ؟!

«وقد جُرِحَ طلحة البطل وهو يذود المشركين عن رسول اللَّه ﷺ أكثر من سبعين جُرْحًا».

فقد روى أبو داود الطيالسي عن أم المؤمنين عائشة، قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد، قال: ذاك كله لطلحة. ثم أنشأ يحدث... قال: «**كنتُ أول مَنْ فاء يوم أحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل اللَّه دون رسول الله، فقلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني. وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول اللَّه منه، وهو يخطف المشي خطفًا، لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول اللَّه** ﷺ وقد كُسِرت رباعيته وشُجَّ في وجهه، ودخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر؛ فقال ﷺ: «**عليكما صاحبكما ـ يريد طلحة ـ**»، وقد نزف، فأتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية، وإذا به قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه»[2].

---

(١) **حسن**: أخرجه النسائي، والطبراني، والحاكم، وابن شاهين، والبيهقي في (الدلائل)، وقال الذهبي: رواته ثقات. وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٥/٢٠٤): (ورجال إسناده ثقات، كلهم على شرط مسلم، لَكِنْ أبو الزبير مدلس، وقد عنعنه، وبالجملة: فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق. والله أعلم).

(٢) البداية والنهاية (٤/٣٠)، وموسوعة الغزوات (أُحد) ص (١٤٢، ١٤٣).

ومن المواقف العظيمة لطلحة رضي الله عنه قتله لحامل لواء المشركين الجلاس بن طلحة بعد مقتل إخوته حملة اللواء من قبله، فقد طعنه طلحة بن عبيد اللّه طعنة أودت بحياته[١].

عن قيس بن أبي حازم قال: «**رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شُلَّتْ**»[٢].

وعند البخاري[٣]: «**رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد**».

وعن المعتمر ـ وهو ابن سليمان ـ قال: سمعت أبي، عن أبي عثمان، قال: «لم يبق مع رسول اللّه ﷺ في بعض تلك الأيام[٤] التي قاتل فيهن غير طلحة وسعد. عن حديثهما[٥]»[٦].

«وعن عائشة وأمِّ إسحاق بنَتْي طلحة، قالتا: جُرح أبونا يومَ أحدٍ أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجة مربعة، وقطع نساه ـ يعني العِرْق ـ، وشُلَتْ إصبعه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغشْيُ، ورسول اللّه ﷺ مكسورةٌ رباعيتُه، مشجوجٌ في وجهه، قد علاه الغشي، وطلحة مُحتَمِلُه، يرجع به القَهْقَرَى، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشِّعْب»[٧].

---

(١) موسوعة الغزوات(أُحُد) ص (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٤)، وابن ماجه (١٢٨)، وابن سعد في (الطبقات) (١٥٥/١/٣)، وأحمد في (المسند) (١٦١/١) وفي (فضائل الصحابة) (١٢٩٤).

(٣) البخاري (٤٠٦٣).

(٤) قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٣٦٠/٧): المراد يوم أحد.

(٥) قال النووي في (شرح مسلم) (٢٨٠/٥): معناه: وهما حدثاني بذلك. وبنحوه قال الحافظ في الفتح (٣٦٠/٧).

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٢٢، ٣٧٢٣)، ومسلم (٢٤١٤).

(٧) سير أعلام النبلاء (٣٢/١).

طلحة ممن قضى نحبه

قال ـ تعالى ـ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء يسأله عمَّنْ قضى نَحْبَه: من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ، ويوقِّرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعتُ من باب المسجد ـ وعليَّ ثيابٌ خُضْر ـ، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «**أين السائل عمن قضى نحبه؟**» قال الأعرابي: أنا. قال: «**هذا ممن قضى نَحْبَه**»(١).

وقال ﷺ: «**طلحة ممن قضى نحبه**»(٢).

وعن طلحة رضي الله عنه، قال: عُقرتْ يوم أحد في جميع جسدي، حتى في ذَكري(٣).

ولله در حسان بن ثابت حين يقول في طلحة:

وطلحة يوم الشِّعْب واسى محمدا ... لدى ساعة ضاقتْ عليه وسُدَّت

وقاهُ بكفَّيه الرماح فقُطَعتْ ... أصابعُهُ تحت الرماح فشُلَّتِ

قتله لحامل لواء المشركين في أحد «الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة»

لما حمل لواءَ المشركين الجلاسُ بن طلحة بن أبي طلحة بعد مقتل إخوته لم يمهله طلحة بن عبيدالله حتى طعنه طعنة أودت بحياته(٤).

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي في (المناقب) (٣٧٤٢)، وقال: (حسن غريب)، وأبو يعلى (٢/٢٦، ٢٧)، والطبراني في (الكبير)، وابن سعد، والطبري في (التفسير) (٢١/٩٣)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٩٩)، وسنده حسن.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وابن ماجه عن معاوية، وابن عساكر عن عائشة، وابن سعد والترمذي وأبو يعلى والضياء عن طلحة، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٩١٦)، و(الصحيحة) رقم (١٢٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/٣٩).

(٤) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحد)، لباشميل ص (١٠٢).

قال موسى بن طلحة: «إن طلحة رجع بسبع وثلاثين أو خمس وثلاثين بين ضرْبة وطعنة ورمية، تَرصَّع جبينه، وقُطِعت سَبَّابته، وشَلت الإصبع التي تليها»[١].

قال طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه لما كان يوم أحد ارتجزت بهذا الشعر:

نحنُ حُماةُ غالبٍ ومالك نَذبُّ عن رسولنا المبارك

نضربُ عنه اليوم في المعارك ضرْب صفاح الكُوم[٢] في المبارك

فلما انصرف النبي ﷺ يوم أحد، قال لحسان: «**قلْ في طلحة**» فأنشأ حسان وقال:

وطلحة يوم الشِّعْب آسى محمدا على سالكٍ ضاقت عليه وشَقَّتِ

يقيه بكفَّيْه الرماح وأسلمتْ أشاجِعُهُ تحت السيوفِ فشلَّتِ

وكان إمام الناس إلا محمدا أقام رحى الإسلام حتى استقلّت[٣]

❑ «أَوْجب طلحة حين صُنع برسول اللَّه ﷺ ما صنع»

عن الزبير رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول يومئذٍ: «**أوجب طلحة حين صُنع برسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ ما صنع**»[٤] ومعنى أوجب؛ أي: عمل عملًا أوْجب له الجنة.

ولفظ الترمذي: «**كان على رسول اللَّه** ﷺ يوم أحد درعان، فنهض إلى صخرة فلم يستطع: فأقعد تحته طلحة فصعد النبي ﷺ حتى استوى على الصخرة، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أوجب طلحة**»[٥].

---

(١) رواه الحاكم (٣/٢٥، ٢٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) الكوم: الضراب، وأصله من الارتفاع.

(٣) الحاكم (٣/٢٥).

(٤) **حسن**: رواه أبو يعلى، واللفظ له في (مسنده) (٢/٢٣)، والترمذي (٣٧٣٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، وأخرجه أحمد (١/١٦٥)، وابن حبان (موارد الظمآن) (٢/٢٢)، والحاكم في (المستدرك) (٣/٣٧٤)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/١٥٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٩٧، ١٣٩٨)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٩١)، وابن أبي شيبة (١٢٢٠٩).

(٥) وهي عند ابن حبان أيْضًا، وإسناده حسن.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**طلحة شهيد يمشي على الأرض**»[١]، وقال ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبدالله**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه عن جابر، وابن عساكر عن أبي هريرة وأبي سعيد، وأخرجه الطيالسي، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٢٥)، و(صحيح الجامع) رقم (٣٩١٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي، والحاكم في (المستدرك) عن جابر، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٢٦)، و(صحيح الجامع) رقم (٥٩٦٢).

١١

أول من سل سيفه في الإسلام

الزبير بن العوام

حواري النبي ﷺ

أول من سل سيفه في الإسلام
الزبير بن العوام حواري النبي ﷺ

هو أول من سل سيفًا في الإسلام، بأبي هو وأمي، من فَدَّاه النبي ﷺ بأبويه.

ولله در أحمد محرم حين يقول عن الزبير يوم أحد:

ألا برز الزبير فأيُّ وصفِ حواريُّ الرسول يفي ويكفي

برزت لخالدٍ حتفًا لحتفِ تصد قواهُ عن كرٍّ وزحفِ

وتدفعه إذا ابتعث الرعيلا[1]

جاء الزبير بسيفه في بداية الدعوة بمكة، فقال له الرسول ﷺ: ما لك؟ قال: أخبرت أنك أُخذت. قال: «فكنت صانعًا ماذا؟!»، قال الزبير: كنت أضرب به من أخذك. فدعا له ولسيفه؛ وكان أول سيف سُلَّ في سبيل اللَّه - تعالى -[2].

❑ في يوم بدر

كان الزبير أحد مغاوير الإسلام وأبطاله في يوم الفرقان، وكان على الميمنة، وقد قَتَلَ الزبير في هذا اليوم العظيم عبيدة بن سعيد بن العاص، كما قَتَلَ السائب بن أبي السائب بن عابد[3]، ونوفل بن خويلد بن أسد عَمَّهِ. وفلَّ فلة في سيفه وجُرح جرحين غائرين، بأبي وأمي فارس رسول اللَّه ﷺ وحواريه، مَنْ نزلتْ بسِيمَاهُ الملائكة في يوم بدر، وجمع له رسول اللَّه ﷺ بين أبويْه.

---

(١) ديوان مجد الإسلام ص (١٢٨).

(٢) حلية الأولياء (٨٩/١) والمستدرك (٤٠٧/٣) ومختصر تاريخ دمشق (١٣/٨، ١٤)، والأوائل ص (٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٤٥/١).

(٣) موسوعة الغزوات الكبرى ص (١٧٨، ١٨١).

وفي رواية ابن هشام (٧١١/١): أن السائب هذا أسلم وحسن إسلامه.

أخرج الحاكم بسنده (٤٠٧/٣) عن علي بن أبي طالب قال: «كانت أولَ غزوة في الإسلام بدرٌ، ما كان معنا إلا فَرَسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد»، وكان فرس الزبير يوم بدر يقال له: اليعسوب. انظر: الكامل (٨٢/١).

عن عروة بن الزبير قال: كانت على الزبير يوْم بدرٍ عمامةٌ صفراءُ، فنزل جبريل على سيماء الزبير.

وفي هذا يقول عامر بن صالح بن عبدالله بن الزبير:

جَدِّي ابنُ عمةِ أحمدٍ ووزيُرهُ   عند البلاءِ وفارسُ الشَّقْراءِ
وغداة بدرٍ كان أوَّلَ فارسٍ   شَهِدَ الوغَى في اللَّامَةِ الصَّفراءِ
نَزَلتْ بسيمَاهُ الملائكُ نُصْرَةً   بالحوْضِ يَوْمَ تألُّبِ الأعداءِ

عن الزبير قال: لقيتُ يوم بدر عُبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مُدجَج لا يُرى إلا عيناه، وكان يُكنى: أبا ذات الكرش، فحملتُ عليه بالعنزة، فطعنتُه في عينه، فمات. فأُخْبرت أن الزبير قال: لقد وضعتُ رجلي عليه، فكان الجهْدُ أن نزعتُها ـ يعني الحربة ـ، فلقد انثنى طرفُها. رواه البخاري.

❑ وفي أُحُد فدَّاه النبي ﷺ بأبويْه

كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، وقد كان حملته الواحد تلو الآخر من بني عبد الدار من صناديد قريش، وكانت الإطاحة باللواء ـ وخاصة في ذلك العصر ـ تُعَجِلُ بالهزيمة؛ ولهذا كان لا يتحمل مسئولية حمل اللواء في تلك المعارك إلا الأبطال المغاوير، كما قال أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة أحدُ حملة لواء قريش.

إن على أهل اللواء حقًا   أن تخضب الصعدة[1] أو تندقا

وقبيل المعركة بلحظات قال أبو سفيان قائد المشركين: **«يا بني عبد الدار قد وُليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه»**، فغضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان هذا أشد الغضب، وهمُّوا به وتواعدوه، وقالوا له: **«نحن نسلم إليك لواءنا؟؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع»**[2].

(١) الصعدة: نوع من الرماح.
(٢) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحُد) لباشميل ص (٩٠).

وبرزت نساء قريش أمام حملة لواء مكة العبدريين وهن يُنْشِدْنَ الأشعار المحرضة الموجهة إليهم بصفتهم الخاصة والتي منها.

ويهًا بني عبد الدار ويهًا حماة الأدبار
ضربًا بكل بتار(١)

❑ مصرع قائد حملة لواء مكة بيد الحواري

كان أول وقود المعركة قائد حملة لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، وكان يوم أحد راكبًا جملًا ومعه لواء مكة، وكان المسلمون لشجاعته يسمونه كبش «**كبش الكتيبة**»، فقد دعا طلحةُ العبدري هذا المسلمين إلى البراز، فأحجم الناس عنه، ولكن الزبير بن العوام أجابه إلى البراز، ولما كان طلحة راكبًا جملًا لم يمهله الزبير حتى ينزل إلى الأرض، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض وبرك عليه، ثم عاجله بطعنة من سيفه فصلت رأسه عن جسده.

وكان النبي القائد يرقب صراع الزبير مع قائد حملة لواء مكة، فلما قَتَلَ الزبيرُ طلحةَ بن أبي طلحة ـ وهو كبش الكتيبة كما يقول ابن سعد في «**طبقاته**» ـ سُرَّ النبي ﷺ سرورًا عظيمًا، ورفع صوته بالتكبير، فكبر المسلمون لتكبيره، وذكر ابن كثير في «**البداية والنهاية**» أن النبي ﷺ أثنى على الزبير بن العوام لقتله حامل لواء المشركين، فقال في حقه: «**إن لكل نبي حواريًا، وحواريي الزبير**»(٢)، وأنه ﷺ قال ـ أيضًا ـ بعد أن صرع الزبير حامل اللواء: «**لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت أنا إليه، لما رأيت من إحجام الناس عنه**»(٣).

---

(١) المصدر السابق ص (٩٥).

(٢) أخرجه البخاري، والترمذي عن جابر، والترمذي، والحاكم في (المستدرك) عن علي.

(٣) البداية والنهاية (٤/٢٠)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (المغازي) ص (١٧٢، ١٧٣)، والسيرة الحلبية (١٨/٢)، وموسوعة الغزوات (أُحد) ص (١٠٠، ١٠١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**الزبير ابن عمتي، وحواريي من أمتي**»(١)، والحواري: الناصر كما قال سفيان.

وفي هذا يقول أحمد محرم:

من الداعي يصيحُ على البعير أما لي في الفوارس من نظير

أروني همَّة البطل المغير إليَّ فما بمثلي من نكير

أنا الأسد الذي يحمي الشُّبولا

تحدَّاه الزبيرُ وفي يديْه قضاءٌ خفَّ عاجلُه إليهِ

رمى ظهر البعير بمنكبيْهِ وجرَّعه منيَّته عليه

فأسلم نفسه وهوى قتيلَا

ألا بُعْدًا لطلحة حين يهذي فيأخذه الحواري(٢) شرَّ أخذِ

أُصيب بقسوري البأس فذٍّ يُعَدُّ لكل طاغي النفس مُؤذِ(٣)

يُعالج داءه حتى يزولا(٤)

وبعد قتل حملة اللواء أبي شيبة، وأبي سعيد ومسافع حمل اللواء بعدهم كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقضَّ عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله(٥).

«ورأى النبيُّ يوم «**أحد**» رجلًا يقتل المسلمين قَتْلًا عنيفًا، فقال: «**قمْ إليه يا زبير**» فَرَقِي إليه الزبير، حتى إذا عَلَا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده)، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٨٧٧) و(صحيح الجامع) رقم (٣٥٨٣).

(٢) في ديوان (مجد الإسلام): (فيأخذه علي) أبدلناها بـ(الحواري)؛ فهو قاتل طلحة. وفي ديوان (مجد الإسلام) ص (١٣٠): (طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار، حامل لواء المشركين، طلب المبارزة وجعل يهذي بكلام منه: (يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار)، وفي رواية: (إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفي إلى الجنة، كذبتم واللات والعزى)، خرج إليه الزبير؛ فقتله).

(٣) القسوري نسبة إلى القسور؛ وهو: الأسد.

(٤) ديوان مجد الإسلام ص (١٣٠).

(٥) موسوعة الغزوات (أُحُد)، لباشميل ص (١٠٢).

الأرض، فوقع الزبيرُ على صدره وَقَتَلَه»[١].

❏ **ومن شجاعته وبطولته الفذَّة يوم أحد فدَّاه بأبوْيه**

عن عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **«جمع لي رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ أبويه يوم أحد»**[٢].

❏ **الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح**

عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢]، قالت لعروة: يابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ ما أصاب يوم أُحُد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: **«من يذهب في إثرهم؟»**، فانتدب منهم سبعون رجلًا كان فيهم أبو بكر والزبير»[٣].

وعند مسلم عن عروة قال: **«قالت لي عائشة كان أبواك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح»**[٤].

❏ **شجاعة الزبير وبطولته يوم الأحزاب وتفدية الرسول له بأبويه في هذا اليوم**

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: **«من يأتينا بخبر القوم؟»**، فقال الزبير أنا. ثم قال: **«مَنْ يأتينا بخبر القوم؟»**، فقال الزبير: أنا. ثم قال: **«من يأتينا بخبر القوم؟»**، فقال الزبير: أنا. ثم قال: **«إن لكل نبي حواريًّا، وإن حواريي الزبير»**[٥].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٣٥٨/٥).

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه أحمد في (مسنده) (١٦٤/١)، وفي (فضائل الصحابة) (١٢٦٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٢١١)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١١٠).
وعند ابن أبي شيبة أيضًا أن ذلك كان يوم قريظة.

(٣) رواه البخاري (٤٠٧٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٨)، وابن سعد في (الطبقات) (٧٣/١/٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٤)، والترمذي (٣٧٤٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (١٢٢)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٧)، وأخرجه أحمد (٣٠٧/٣،

وعن عبدالله بن الزبير ﷺ قال: «**كنت يوم الأحزاب جُعلتُ أنا وعُمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلفُ. قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: «من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟»**، فانطلقت فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ أبويه فقال: «**فداك أبي وأمي**»[1]، وما أحلاه من تاج يرصِّع به النبيُ ﷺ هَامَ وجبين الزبير الفارس المقدام الجسور في يوم زاغت فيه الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

وعن ابن أبي الزناد قال: ضرب الزبير يوم الخندق عثمان بن عبدالله بن المغيرة بالسَّيف على مِغْفَره، فقطعه إلى القَرَبُوس[2]، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريد أن العمل ليده لا للسيف[3].

❑ ويل ليهود بني قريظة من عليٍّ والزبير

لما حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة بحكم الله من فوق سبع سماوات عاد النبي إلى المدينة في اليوم السابع من ذي الحجة سنة خمس للهجرة، وقد أمر النبي ﷺ بيهود بني قريظة فأُدخلوا إلى المدينة.. دخلت بهم جميعًا قوة من الحرس النبوي بقيادة محمد بن مسلمة وعبدالله بن سلام.

وقد أمر النبي ﷺ بحبس الرجال في دار أسامة بن زيد، وشرع النبي ﷺ في إجراءات تنفيذ حكم الإعدام في هؤلاء اليهود، فأمر بحفر خنادق عميقة لتدفن

٣١٤، ٣٣٨، ٣٦٥)، وأبو يعلى (١٩/٤، ٦٣)، وعبد بن حميد في (المنتخب) (١٠٨٦)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٦٤)، وابن سعد في (الطبقات) (٧٤/١/٣)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٢١٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦)، والترمذي مختصرًا (٣٧٤٣)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) مقدم السرج ومؤخره.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٥/١)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (المغازي) ص (٣٠١).

جثث هؤلاء الخونة بعد إعدامهم، وكان المكان الذي اختير لإعدامهم ودفنهم هو سوق المدينة الذي يغلب على الظن أنه المُسمَّى اليوم بـ«**سوق المناخة**».

وبعد أن انتهت عملية حفر الخنادق المعدَّة لدفن اليهود جلس النبي ﷺ في المكان المُعدِّ لإعدامهم ومعه كبار الصحابة، ثم أمر بإحضار الرجال من بني قريظة المحكوم عليهم، فأمر بإعدامهم، فأعدموا دفعة بعد دفعة حتى لم يبق منهم أحدٌ، وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا بهم في الخنادق وواروهم بالتراب حتى انتهوا منهم.

وقد اختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم، فالبعض يقول: إنهم ما بين ست مئة إلى سبع مئة. والبعض الآخر يقول: إنهم ما بين الثمان مئة إلى التسع مئة[١]. ولقد أُعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة، وقد جرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل، وكان الذي تولى عملية قتل هؤلاء اليهود والخونة هو علي بن أبي طالب والزبير بن العوام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -[٢].

لله در سعد بن معاذ، وعلي، والزبير.. واللَّه إن الأمة اليوم في حاجة إلى شسع نعالهم.. أو طيف من خيالهم.

أتى[٣] فأقرَّ حكم اللَّه فيهم ... وآل الأمرُ أحسن ما يئولُ
عليٌّ والزبير لكلِّ عَضْبٍ ... صقيل منهما عَضْبٌ ثقيلُ
هما استبقا نفوس القوم نهبًا ... وروح اللَّه بينهما رسيلُ[٤]

* * *

تقدَّمْ يا حُييُّ فلا محيصٌ ... وردْ يا كعبُ ما ورد الزميلُ

---

(١) سمط النجوم العوالي، لعبد الملك بن حسين العصامي (٢/١٣٨).
(٢) السير الحلبية، لابن برهان الدين (٢/١٢٠).
(٣) أي: سعد بن معاذ رضي الله عنه.
(٤) الرسيل: المرسل، والموافق في النضال وغيره.

لبئس السيدان لشرِّ قوم هُمُ البُرَحاء والداء الدخيلُ(١)
منابت فتنة خبثت وساءتْ فلم تطب الفروع ولا الأصولُ
قلوبٌ من سواد القوم عُمْيٌ وألباب من الزعماء حُولُ
لعمرُ الهالكين لقد تأذَّى ترابٌ في حفائرهمْ مهيلُ
طوى رجسًا تكادُ الأرض منه تمورُ بمن عليها أو تزولُ

واللَّه إن ذكر هذا اليوم الأغرّ الذي أطاح فيه سيف الزبير وسيف علي بهذه الرقاب النجسة ليجدد الأمل في المستقبل الزاهر لهذه الأمة، لقد أطاح سيف الزبير بثلاث مئة أو أربع مئة تولى تنفيذ حكم اللَّه فيها الحواري النَّبِيلُ.

إذا ذُكِرَت مناقبه الغوالي تعالت أمةٌ واعتز جيلُ
مناقب ما يزالُ لها طلوعٌ إذا الأقمارُ أدركها الأفولُ
لها من نابه الأدبِ انبعاث فما يُخفي زواهرَها الخمولُ
لعل اللَّه يجعلها ربيعًا لألباب أضرَّ بها المحولُ
فوا أسفا أتُطعمني القوافي فيُخلِفُ مَطمعٌ ويخيب سولُ
وواحربا أما يُرجى فِكاكٌ لأسرى ما تفارقها الكبولُ(٢)؟

❑ الزبير يقتل ياسر أخا مرحب بطل خيبر أمام حصن ناعم

أعنف قتال شهدته خيبر هو القتال الذي دار حول حصن ناعم وهو حصن آل مرحب، وبلغ من اعتداد اليهود المرابطين في هذا الحصن بأنفسهم أنهم خرجوا أكثر من مرة وهاجموا المسلمين حتى كشفوهم وطاردوهم حتى ألجئوهم إلى مقر قيادة النبي ﷺ، وبالرغم من تمكن علي رضي الله عنه من قتل مرحب بطل خيبر وكبير القادة المدافعين عن الحصن، فإن الحصن لم يستسلم للمسلمين في الحال، بل ظل اليهود محتفظين به يدافعون عنه بضراوة.. يدلنا على ذلك أن ياسر الذي خلف أخويه -

(١) البرحاء: الأذى الشديد.
(٢) ديوان مجد الإسلام ص (٢٣٦ - ٢٣٩). يقصد الأمم الإسلامية المغلوبة على أمرها في أيامنا هذه.

مرحبًا والحارث في القيادة - ظل يدافع عن الحصن بضراوة، بل قد ذهبت به الشجاعة والجرأة - بعد أن لقي أخواه مصرعهما - إلى أن يتحدى المسلمين؛ حيث خرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة من اليهود، وركز رمحه أمام الحصن، وأخذ يجول بفرسه وهو يطلب المبارزة قائلًا.

قد علمت خيبر أني ياسرُ　　شاكي السلاح بطل مغامرُ
إذا الليوث أقبلت تبادرُ　　وأحجمت عن صولتي المخاطِرُ
إنَّ حماتي فيه موت حاضر

وكان اليهودي ياسر من أشجع قادتهم وأشدهم بأسًا، وكانت معه حربة يحوش[1] بها المسلمين حوشًا، فبرز له علي فقال الزبير: أقسمتُ عليك إلَّا خلَّيت بيني وبينه. ففعل عليٌّ، وأقبل ياسر يسوق بها الناس، فبرز له الزبير، فخشيت عليه صفية عمة رسول اللَّه ﷺ فقالت: يا رسول اللَّه - إنه يقتل ابني. فقال النبي ﷺ: **«بل ابنك يقتله إن شاء الله..»**، وقد ردَّ الزبير على شعر ياسر بقوله:

قد علمت خيبر أني زبَّار　　قِرْم لقِرْم غيرُ نِكْس فوَّار
وابن حماة المجد وابن الأخيار　　ياسر لا يغررك جمع الكفَّارِ
فجمعهم مثل السراب الجرَّار

فتجاولا برهة بعدها تمكن الزبير من قتل خصمه ياسر[2]، وبقتله فقد المدافعون عن حصن ناعم قادتهم الكبار الثلاثة، فأثر ذلك تأثيرًا كبيرًا في معنوياتهم الأمر الذي يَسَّرَ للمسلمين اقتحام الحصن وفتحه بقيادة علي بن أبي طالب، وبعد أن قَتَلَ الزبيرُ قائدَ اليهودِ ياسرًا، قال النبي ﷺ للزبير: **«فداك عمٌ وخالٌ، لكل نبي حواري، وحواريي الزبير»**.

---

(١) يحوش: يسوق.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٣٣٤)، وإمتاع الأسماع ص (٣١٦)، والسيرة الحلبية (٢/١٦٣)، وزاد المعاد (٢/٣٢٩).

قال ابن كثير في «**البداية والنهاية**»: فكان الزبير إذا قيل له: إن كان سيفك يومئذٍ لصارمًا، فيقول: ما كان صارمًا، ولكنني أكرهته[١].

ولله در القائل:

تــوثَّــب يــاســرٌ فــتــلــقَّــفــتــهُ ... مـخـالِـبُ فاتـكٍ أَلِـف الـوثـابا
أما سمعتهُ خيبر حين يهذي ... فصدَّتْ عنه تُوجعُه عتابًا
ولـو تَـسـطـيـعُ لاتَّـخَـذَت حيـاءً ... مِن البيض الرقاقِ لها نقابا
غُرَابُ الشُّؤْمِ يَفزعُها نعيبًا ... فيا لك بومَةً وَلَدتْ غُرابا
فتًى شاكي السلاح ولا سلاحٌ ... لِمَنْ يبغي من الموت اقترابا
ألا إن الــزبـيـــر لــذو بــلاءٍ ... وإن خشيتْ صفيَّةُ أن يُصابا
حــواريُّ الـرسـولِ يـكـون مـنـه ... بحيث يريدُ صبرًا واحتسابًا[٢]

❑ شهود الزبير لفتح مكة

عن عروة بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن الزبير قال: والله! ما خرج رسولُ اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مخرجًا في غزوةٍ غزاها ولا سرية إلا كنت فيها[٣].

وفي فتح مكة كان الزبير على مجنبة الجيش اليسرى وكان معه إحدى رايات المهاجرين الثلاثة[٤]، وفي رواية: أنه كان على كل المهاجرين والأنصار[٥].

فكان رضي الله عنه أحد قادة المسلمين في فتح مكة، وكان المقداد بن الأسود على المجنبة اليمنى، فلما دخل رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مكة، وهدأ الناس، جاء الزبير والمقداد بفرسيهما، فقام رسول اللَّه ﷺ يمسحُ الغبار عن وجوههما بثوبه وقال: «**إني جعلت للفرس سهمين، وللفارس سهمًا، فمن نقصهما نقصه الله**»[٦].

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (خيبر) ص (١١٦، ١١٧).
(٢) ديوان مجد الإسلام ص (٣٠٣).
(٣) المستدرك على الصحيحين (٤٠٧/٣).
(٤) طبقات ابن سعد (١٠٤/٣، ٢٦/٤)، والطبري (٣٣٤/٢).
(٥) تاريخ الطبري (٣٣١/٢).
(٦) طبقات ابن سعد (١٠٤/٣).

❑ ويوم حنين يخشى قائد هوازن مالك بن عوف النصري أسر الزبير له فيفرُّ منه في الشعاب:

كان الزبير بن العوام ممن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ حين فرَّ الناس، وكان عثمان بن عفان، وعلي، وأبو دجانة، وأيمن يقاتلون بين يدي رسول اللَّه ﷺ، واستبسل قائد قبيلة هوازن وملكها مالك بن عوف النصري وقبيلته بني نصر، وقاتلوا بشراسة وشجاعة وثبات، حتى كادوا أن يفنوا عن آخرهم، ولم ينسحب مالك بن عوف من الميدان إلا بعد أن رأى أن الهزيمة ماثلة أمام عينيه، وانسحب من الميدان في كوكبة من الفرسان هم كبار قادته وهيئة أركان حربه وحرسه، وكان الذي تولى مطاردة مالك وصحبه الزبير بن العوام في الخيل، وقد ذكر المؤرخون أن القائد العام مالكًا لما رأى أن الزبير هو الذي يتولى مطاردته نزل عن فرسه واختفى بين الأشجار في الشعاب؛ لئلا يقع أسيرًا في يد الزبير؛ لأن مالكًا يعلم أن الزبير لن يتركه يفلت من يده.

فقد جاء في كتب التاريخ والسير أن مالك بن عوف ـ عقب انهزامه ـ وقف على مرتفع من الأرض ومعه فُرسَانٌ من أصحابه، فأمرهم أن يقفوا مكانهم حتى يمرَّ الضعفاء من استطاع النجاة من الذراري قائلًا: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم حتى تلتئم أخراكم.

وبعد أن مرَّ الضعفاء وأصبحوا بمنجى في مرتفعات الجبال قال لأصحابه ـ طالبًا الاستطلاع ـ: انظروا ماذا ترون؟ قالوا: نرى قومًا على خيولهم واضعين رماحهم على آذان خيولهم. قال ـ وكان خبيرًا عسكريًّا واسع الاطلاع على عادات القبائل ـ: أولئك إخوانكم بنو سليم وليس عليكم منهم بأس. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟ قالوا: نرى رجالًا أكفالًا[1] قد وضعوا رماحهم على أكفال خيولهم. قال: تلك الخزرج، وليس عليكم منهم بأس، وهم سالكون طريق إخوانهم. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟

---

(١) قال في لسان العرب: الكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب. والأكفال جمع كفل ـ بالتحريك ـ وهو العجز. وقيل: ردف العجز.

قالوا: نرى قومًا كأنهم الأصنام على الخيل. قال: تلك كعب بن لؤي وهم مقاتلوكم. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟ قالوا: نرى رجلًا بين رجلين معلمًا بعصابة صفراء، يخبط برجليه الأرض واضعًا رمحه على عاتقه. قال: ذلك ابن صفية، الزبير بن العوام، وأيم اللَّه لينزلنكم عن مكانكم.

وفي رواية: «**هذا الزبير بن العوام، وأحلف باللَّه ليخالطنكم، فاثبتوا. فلما انتهى الزبير إلى أسفل الثنية، أبصر القوم، فعمد إليهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزالهم عنها**»[1].

وفعلًا هاجم الزبير مالكًا وأصحابه حتى كاد يطوقهم، فلما غشيت مالكًا الخيلُ نزل عن فرسه مخافة أن يقع في الأسرى، ثم أخذ يلوذ ويتستر بالشجر كي لا يراه أحد من أصحاب الزبير، ثم سلك في يسوم «**جبل بأعلى نخلة**» فأعجزهم هربًا، وما زال ملك هوازن وقائدهم موغلًا في الهرب، حتى وصل وادي لية[2]، وهناك تحصن في قصر له، وبلغ النبيَ ﷺ تحصنُ مالك بن عوف في قصر لية فلم يأمر بتعقبه أو إزعاجه؛ لأنه كان يطمع في أن يهديه اللَّه للإسلام، وفعلًا بعث الرسول ﷺ إلى ملك هوازن مبعوثًا خاصًّا يبلغه أن الرسول ﷺ سيعفو عنه وسيعيد إليه أهله وأمواله إن هو دخل في الإسلام، فأسلم مالك وحسن إسلامه وصار خير عون للإسلام في محاربة من تبقى على الشرك[3].

❑ انظر إلى الزبير ومنزلته العظيمة عند رسول اللَّه ﷺ:

كان الزبير يقول: «**جمع لي رسول اللَّه ﷺ** أبويه مرتينْ: في أُحد وفي قريظة»[4]

---

(١) **انظر:** مختصر تاريخ دمشق (١٨/٩).

(٢) بكسر أوله وثانيه (لية).

(٣) مغازي الواقدي (٩١٧/٣)، وسيرة ابن هشام (٩٧/٤)، وتهذيب ابن عساكر (٣٥٩/٥)، والبداية والنهاية (٣٣٦/٤، ٣٣٧)، وموسوعة الغزوات (حنين) (١٢٨ - ١٣٠).

(٤) الرياض النضرة، للمحب الطبري (٣٥٧/٢) والاستيعاب (٥١٣/٢)، وأُسْد الغابة (١٩٧/٢).

وكان الزبير أحد ثمانية تُوفي النبي وهو عنهم راض كما قال عمر بن الخطاب.

❑ جهاده مع الصديق

بعد أن ارتدت العرب، أنذر أبو بكر أهل المدينة بالخطر، وحشد المقاتلين بعدة القتال في المسجد، وجعل على مداخل المدينة علي بن أبي طالب، والزبير، وعبدالله بن مسعود[1]، ولم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثة أيام حتى زحف عليهم مانعو الزكاة، فأحس العسس[2] المقيمون على مداخل المدينة قدوم القبائل، فأرسل علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة بن عُبيد الله بالخبر إلى أبي بكر، فأجابهم: «**الزموا أماكنكم**»، وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بلغ مواقع القبائل المهاجمة[3]، فاستطاع التغلب عليهم ودفع خطرهم عن المدينة[4].

❑ ثبات الزبير في يوم اليمامة وحسن بلائه وشجاعته

عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِلزُّبَيْرِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ: أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدَّ مَعَكَ. فَقَالَ: إِنِّي إِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ. فَقَالُوا: لَا نَفْعَلُ. فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجَاوَزَهُمْ وَمَا مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا فَأَخَذُوا بِلِجَامِهِ فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى عَاتِقِهِ بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضُرِبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ عُرْوَةُ: كُنْتُ أُدْخِلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ. قَالَ عُرْوَةُ: وَكَانَ مَعَهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، فَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ وَوَكَّلَ بِهِ رَجُلًا[5].

قال الذهبي في السِّير معلقًا: «هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله؛ فإن عبدالله كان إذْ ذاك ابن عشر سنين»[6].

---

(١) الطبري (٢/٤٧٦، ٤٧٧)، وابن الأثير (٢/١٣١).

(٢) العسس: الخفراء والحراس الليليون. وعَسَّ: طاف بالليل. وَعَسَسٌ: جمع عاسس.

(٣) الطبري (٢/٤٧٧).

(٤) الطبري (٢/٤٧٧ - ٤٧٩)، وابن الأثير (٢/١٣١، ١٣٢).

(٥) رواه البخاري (٣٩٧٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (١/٦٢، ٦٣).

وذكر ابن كثير أن الموقعة هي «**اليرموك**»، ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين.

ويا لروعة إقدام الزبير حين يحجم الأبطال من صحابة رسول الله ﷺ ولا يصبرون معه.

❑ الزبير أحد الذين أشاروا على الصديق بغزو أرض الشام

كان الزبير أحد كبار المهاجرين من أمثال عمر، وعلي، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، الذين كانوا يؤلفون هيئة شورى أبي بكر، وكان مركز القيادة العامة قويًّا بهم وبما يضعون من خطط ويدبرون من أمور، فكان الزبير أحد الذين أشاروا على أبي بكر بغزو الشام[١].

❑ في يوم اليرموك يحمل الزبير على الروم ويشق صفوفهم

سار الزبير مع المجاهدين في أيام أبي بكر إلى أرض الشام، فشهد معركة اليرموك الحاسمة قائدًا لأحد الكراديس[٢]، فحمل على الروم حتى شق صفوفهم، ثم عاد أدراجه وقد جُرح جرحًا غائرًا[٣].

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبيرُ بن العوام، وهو أفضل مَنْ هناك مِنَ الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ، فقالوا: ألا تحملُ فنحمل معك؟ فقالوا: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوفَ الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذٍ جُرحَيْنِ بين كتفيْه. وفي رواية: جُرْحٌ»[٤].

ويقول ابن كثير مرة أخرى: «خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليَرْمُوكَ،

---

(١) قادة فتح الشام ومصر، لمحمود شيت خطاب ص (٢٠٧).
(٢) الطبري (٢/٥٩٤)، وتهذيب ابن عساكر (٥/٣٥٥).
(٣) فتح الباري (٧/٢٣٣، ٢٣٤).
(٤) البداية والنهاية (٧/١١).

فتشرَّفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء، والهمة العليا، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتَيْنْ، مِن أولهم إلى آخرهم»[١].

❑ الزبير قائد جيش المدد لفتح مصر، وفاتح حصن بابليون[٢]، والساعد الأيمن لفتح مصر

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتْحها كانت معه قوَّات تبلغ ثلاثة آلافٍ وخمس مئة رجل[٣]، كتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه[٤]، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا[٥]، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلمة بن مُخَلَّد. وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع[٦]. وكتب إليه: إني أمددتك بأربعةِ آلافٍ، على كل ألفٍ منهم رجل مقام ألفٍ. وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»[٧].

وكان الزبير قد هَمَّ بالغزو وأراد إتيان إنطاكية، فقال له عمر: «يا أبا عبدالله! هل لك في ولاية مصر؟ فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أَخْرُجُ مجاهدًا، وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عَمْرًا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به، وإن وجدته في جهاد كنت معه. فسار على ذلك»[٨].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده مُحاصِرًا حصن «**بابليون**»، فلم يلبث الزبير أن

---

(١) البداية والنهاية (٧/٢٦٠).

(٢) بابليون: اسم عام لديار مصر بلغة القدماء، وقيل: هو اسم لموضع الفسطاط خاصة، وهذا الحصن هو موضع مدينة الفسطاط يقع في القاهرة القديمة.

(٣) البلاذري ص (٢١٤).

(٤) فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم ص (٩١).

(٥) البلاذري (٢١٤)، وفتوح مصر والمغرب ص (٩٢).

(٦) فتوح مصر والمغرب ص (٩٢)، ومعجم البلدان (٦/٣٨٧).

(٧) فتوح مصر والمغرب ص (٦١)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٦).

(٨) البلاذري ص (٢١٤).

ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرق الرجال حول الخندق[١]، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهرٍ، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون»، فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[٢].

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: «إني أَهِبُ نفسي لله، أرجو أن يفتح اللَّه بذلك على المسلمين»، فوضع سُلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سُوق الحمَّام ثم صَعِد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوْفًا من أن ينكسر، فلما رأى الرُّوم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فَتَحَ حصنُ بابليون أبوابه للمسلمين؛ فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر»[٣].

«وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المُقَوْقِس في معركة «**بابليون**» الحاسمة التي فتحت للعرب المسلمين أبواب مصر على مصراعيها»[٤].

ولله دَرُّ حسان حين يقول:

أقام على عهد النبِّي وهَدْيهِ   حواريُّه والقوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ
أقام على منهاجه وطريقِهِ   يوالي وليَّ الحقِّ والحق أعْدَلُ
هو الفارِسُ المشهورُ والبطلُ الذي   يصولُ إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حَشَّهَا   بأبيض سباق إلى الموت يُرْقل[٥]
وإنَّ امرأ كانت صفيةُ أمَّهُ   ومِن أَسدٍ في بيتها لَمُؤَثَّل

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص (٩٢).
(٢) طبقات ابن سعد (١٠٧/٣)، والبلاذري ص (٢١٥).
(٣) فتوح مصر والمغرب ص (٩٤)، ومعجم البلدان (٣٧٨/٦)، والبلاذري ص (٢١٥).
(٤) قادة فتح الشام ومصر ص (٢٠٩، ٢٢٧).
(٥) يقال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالًا: أسرعوا. والإرقال: ضرب من الخبب؛ وهي: سرعة سير الإبل.

له من رسول اللَّه قربى قريبةٌ ومن نُصْرة الإسلام مجْدٌ مُؤَثَّلُ
فكمْ كُرْبَةٍ ذَبَّ الزبيرُ بسيفِهِ عن المصطفَى واللهُ يُعْطي فيُجزلُ
ثناؤُكَ خيرٌ من فَعالِ معاشرٍ وفعلُكَ يابنَ الهاشِمِيةِ أفضلُ
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس يكون الدهر ما دام يذبُلُ[1].

الزبير وسيفه

قال الإمام سفيان الثوري: نجدة الصحابة: حمزة، وعليٌّ، والزبير.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الزبير ركن من أركان الدين[2].

وقال عامر الشعبي: «أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير في الجنة»[3].

قال الإمام الذهبي معلقًا بقوله: «**لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، من البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر ـ تَعَالَى ـ أنه رَضِيَ عَنْهُمْ ورضوا عنه؛ ولأن الأربعة قتلوا، ورزقوا الشهادة، فنحن محبون لهم، باغضون للأربعة الذين قَتَلُوا الأربعة**».

وقيل لعلي بن أبي طالب وهو في مسجد الرسول ﷺ: «**من أشجع الناس يا أبا الحسن؟**»، فقال: «**ذاك ـ وأشار إلى الزبير ـ الذي يغضب كالنمر وَيَثِبُ وُثُوبَ الأسد**»[4].

وسأل أبو بكر الصديق عمرو بن العاص عن الزبير فقال: «**شجاعٌ جَسِرٌ**»[5].

قال عروة بن الزبير: وقال لي عبدالملك بن مروان حين قُتل عبدالله بن الزبير: يا عروة هل تعرف سيف الزبير؟ قلت: نعم. قال: فما فيه؟ قلت: فَلَّة فُلَّها يوم بدر. قال:

---

(١) ديوان حسان (١٩٩، ٢٠٠) (ط/ دار صادر البيروتية). ويذبل: جبل مشهور بنجد.
(٢) الكامل (٢/١٠٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/٦٢).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٥/٣٦٢).
(٥) اليعقوبي (٢/١٠٧).

صدقت «**بِهِنَّ فلول من قراع الكتائب**»، ثم ردَّه على عروة[١].

«وهو من المدح في معرض الذم؛ لأن الفلَّ في السيف نقص حِسِّيٌّ، لكنه لما كان دليلًا على قوة ساعد صاحبه كان من جملة كماله».

وكان في صدره أمثال العيون من الطعن والرمي[٢]. كما قال علي بن زيد عمن رأى الزبير: لقد تحمَّل الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سبيل اللَّه ما تحمَّل حتى لم يبق عضو من أعضائه إلا وقد جُرِح مع رسول اللَّه ﷺ حتى انتهى إلى فرجه[٣].

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب: «إن شجاعة وإقدام الزبير كانا مضرب الأمثال، وهما المزيتان البارزتان من بين مزايا قيادته، والحق أنه كان جنديًّا ممتازًا يتحلى بكل مزايا الجندي الممتاز: عقيدة راسخة، وضبط متين، وعقلية متزنة، وشجاعة شخصية، وتدريب جيد، وقابلية بدنية، ومعنويات عالية، وبهذه المزايا برز الزبير بطلًا في كل معركة خاضها في أيام النبي ﷺ وبعده. وقد تولى منصب قيادة المدد في أيام عمر، فكان لشجاعته أثر حاسم في انتصار المسلمين في معركة بابليون الحاسمة»[٤].

❑ حبه للشهادة وتمنيه لها، وشهادة النبي له بأنه شهيد

عن عروة بن الزبير قال: قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عُبيد اللَّه التيمي يُسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد عُلم أن لا نبي بعد محمد، وإني أُسمِّي بَنِيَّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يُسْتَشْهَدُوا. فسمى عبداللَّه بـ«عبداللَّه بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، والمنذر بـ«المنذر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وحمزة بـ«حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وجعفرًا بـ«جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، ومصعبًا بـ«مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وعبيدة بـ«عبيدة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وخالدًا بـ«خالد بن سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وعَمْرًا بـ«عمرو بن سعيد بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قُتل يوم

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم (٣٩٧٣).

(٢) صفة الصفوة (١٣٤/١).

(٣) أُسْد الغابة (١٩٧/٢).

(٤) قادة فتح الشام ومصر ص (٢٢٧، ٢٢٨).

اليرموك[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «**اهدأ فما عليك إلا نبي، أو صِّديق، أو شهيد**»[٢].

رجع الزبير لم يشهد معركة الجمل، فقال له رجل من كلب: أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما، فإن أحدًا من الناس لا يقدم عليك وأنت فارس أبدًا. فتعقبه عمرو بن جرموز التميمي، وطعنه من خلفه وهو متوجه يصلي وقتله.

ولما أتى قاتل الزبير عليًّا برأسه يستأذن عليه، لم يأذن له.

عن زر بن حبيش قال: استأذن ابن جرموز على علي رضي الله عنه وأنا عنده، فقال علي رضي الله عنه: بشر قاتل ابن صفية بالنار. ثم قال علي رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبي حواريًّا، وحواريي الزبير**»[٣].

قال: قال أبي: سمعت سفيان يقول: الحواري: الناصر.

وحين أدخلوا على علي سيف الزبير، قبلّه الإمام علي وأمعن في البكاء وهو يقول: «**سيفٌ طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله..!!**»، أو «**إن هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله ﷺ**»[٤]. وقال بنو تميم قوم ابن جرموز يخاطبونه: «**فضحت والله اليمن بأسرها؛ قتلت الزبير رأس المهاجرين، وفارس رسول الله،**

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٧)، والترمذي (٣٦٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وأحمد (٢/٤١٩)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٣).

(٣) **حسن**: رواه أحمد (١/٨٩)، وأخرجه الترمذي مختصرًا مقتصرًا على المرفوع (٣٧٤٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأخرجه أيضًا أحمد (١/١٠٢، ١٠٣)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٨٨)، والطيالسي (١٦٣)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٧٢، ١٢٧٣)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/٧٣).

(٤) أسْد الغابة (٢/١٩٩).

وحواريه، وابن عمته، والله لو قتلته في حرب لعزَّ ذلك علينا وَلَمَسَّنَا عارُك، فكيف وهو في جوارك وذمتك؟! والله ليزيدنك عليَّ أن يشرك بالنار».

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجة الزبير ترثيه وتذكر غدر ابن جرموز به:

غدر ابن جرموز بفارس بُهْمة يوم اللقاء وكان غير معرّد[1]
يا عمرو لو نبّهته لوجدته لا طائشًا رعش الجناد ولا اليد
إن الزبير لذو بلاءٍ صادق سمح سجيته كريم المشهد[2]

ولقد أوصى الزبير بثلث ماله يُنْفَقُ في سبيل الله، وكان جَمِيعَ مالِ الزبيرِ خمسون ألف ألف ومئتا ألف[3].

سَلَامٌ عَلَى الزُّبَيْرِ فِي مَمَاتِهِ بَعْدَ مَحْيَاهُ... سَلَامٌ عَلَيْهِ وَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ الشَّهَادَةَ وَمَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ... سَلَامٌ ثُمَّ سَلَامٌ عَلَى حَوَارِيِّ رَسُولِ اللَّه.

* * *

(١) بهمة: الجيش، وفلان فارس بهمة؛ أي: شديد البأس.
(٢) خزانة الأدب (٤/٣٥٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٠٨، ١٠٩)، وصفة الصفوة (١/١٣٥).

١٢

أمين الأمة

أبو عبيدة بن الجراح القرشي

فاتح أرض الشام

أمين الأمة
أبو عبيدة بن الجراح القرشي

فاتح أرض الشام

أمين الأمة..

أول من لقب بـ «أمير الأمراء»..

مَنْ أَمَّرَهُ رسولُ اللَّه ﷺ في حياته على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات، على جيش فيه أبو بكر وعمر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إنَّ لكلِّ أمةٍ أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلًا أمينًا. فقال: **«لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين»**، فاستشرف له الناسُ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩)، وأحمد (٣/١٣٣، ١٨٩، ٢٤٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٤٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٩٦)، وأبو يعلى (٥/١٩٠، ١٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٧٥).

وفي رواية لمسلم عن أنس: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلًا يعلمنا السُّنة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»، وأخرجها ابن سعد (٣/١/٣٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٣/١٢٥)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٩)، والحاكم (٣/٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨١)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذي (٣٧٩٦)، وابن ماجه (١٣٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة»، وأحمد في «المسند» (٥/٤٠١)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٦)، والطيالسي (٤١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٧٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٢٩٩، ٣٠٠)، وابن أبي شيبة (١٢٣٤٧، ١٢٣٤٨).

(٣) **حسن:** أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٣٠٠).

«وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا... يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعًا»(١).

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر.

وعن عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**»(٢).

أُنْزِلَ في فضله قرآن يُتلى إلى يوم القيامة:

فلقد كان له الموقف الزاهر الباهر في يوم بدر يوم أن قَتَلَ أباه؛ من أجل العقيدة.

عن عبدالله بن شوذب قال: «جعل أبو أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجرَّاحُ، قصده أبو عبيدة؛ فقتله؛ فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]»(٣).

ما يمكن أن يَعْزِمَ أبو عبيدة هذه العزمة إلا بروح من الله تَنْفُضُ عن قلبه الطاهر

---

(١) رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد ص (٢٦٢)، دار الريان للتراث.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١/١٩٣)، وفي «فضائل الصحابة» (٢٧٨)، والترمذي (٣٧٤٧) وأبو يعلى (٢/١٤٨).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٢٦٥)، وسكت عنه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٩/٢٦) «كتاب السير - باب المسلم يتوقى في الحرب قتل أبيه، ولو قتله لم يكن به بأس»، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر. **انظر**: الدر المنثور (٦/١٨٦).

السليم كلَّ عرض من أعراض الدنيا الفانية، وتجرده من كلِّ رابطة وآصرة إلا رابطة العقيدة.

هذه صورة أمين هذه الأمة، صورة وضيئة للذي فعل ما لم يفعله أي بشر.

هذا مقام الأمين، وهو مقام عال رفيع .. انقطع عن كل شيء، ووصل نفسه بالله؛ فتقبله في كنفه، وكتب الإيمان في قلبه، وأفسح له في جنابه، وأشعره برضاه فرضي .. رضيت نفسه بهذا القرب، وَأَنِسَتْ به، واطمأنت إليه.

قال ابن كثير: «نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قَتَلَ أباه يوم بدر»[1].

لله دَرُّك يا أبا عبيدة.. هذا موقف منك لا يشاركك فيه أحد.

اللَّـه لا ولـد أحـبُّ ولا أبٌ ... مـنـه، فـأيـن المنـتـأى والمنـزَحُ[2]

أفـمـا رأيـتَ أبـا عـبـيـدةَ ثـائـرًا ... وأبـوه في يـده يُـتَـلُّ ويُـسـطَـحُ[3]

هل قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر؟! رأي آخر لشُرَّاب:

يقول الأستاذ محمد محمد حسن شُرَّاب: «لقد تناقلت كتب المغازي، والتاريخ، والتفسير: أن أبا عبيدة قَتَلَ أباه يوم بدر كافرًا، وَتَمَسَّكَ بهذا الخبر كثيرٌ من الوعاظ، وخطباء المساجد، ورجال الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، وأذاعوه شاهدًا لجواز أو وجوب خروج الابن على أبيه إذا اختلفا في الاتجاه السياسي أو المشرب الحزبي مع اتفاقهما في أصل الدين.

فهل يصح شيء من الطرق القائلة بأن أبا عبيدة قَتَلَ أباه يوم بدر؟!

الجواب: أن أبا عبيدة لم يقتل أباه يوم بدر، وليس في هذا خبر صحيح، أو حسن، أو ضعيف؛ فقد نُقِلَ الخبر في «**تاريخ دمشق**»، قال: وأخرج الحافظ من طريق البيهقي

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٣)، **وانظر**: الإصابة (٤/١١، ١٢)، والسيرة الحلبية (٢/١٧٨).

(٢) المنتأى: محل البعد. والمنزح: مِنْ نَزَحَ إِذَا بَعُدَ.

(٣) يتل ويسطح بمعنى: يصرع.

عن عبدالله بن شوذب. وقال ابن حجر في «**الإصابة**»: وهو فيما أخرجه الطبراني عن عبدالله بن شوذب. وقال السيوطي في «**أسباب النزول**»: وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة حينَ قَتَلَ أباه يوم بدر ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وأخرجه الحاكم من طريق ضمرة بن ربيعة الفلسطيني عن عبدالله بن شوذب.

فكل طرق الخبر تنتهي عند عبدالله بن شوذب، وعبدالله بن شوذب وُلِدَ سنة (٨٦هـ)، وتوفي سنة (١٥٧هـ)، قالوا: إنه ثقة في رواية الحديث. وَلَكِنَّهُمْ يوثقون روايته عندما تكون مسندة متصلة الإسناد إلى الصحابي الذي سمع من رسول الله، ولو أنه قال: قال رسول الله... دون إسناد، ما قَبِلَ أحدٌ روايتَهُ؛ فهو ليس تابعيًّا صغيرًا، ولا تابعيًّا كبيرًا، وهم لا يقبلون مرسل التابعي الكبير؛ فكيف يقبلون معضل تابع التابعين؟! وإذا كانوا يتشددون في الأحاديث التي تتعلق بالحلال والحرام، ويتساهلون فيما عداها، فإن هذا الخبر يتصل أيضًا بِسُنَّةٍ جهاديةٍ، وهو متصل بالسيرة النبوية؛ لأن القصة حصلت في معركة بدر التي شهدها رسول الله ﷺ؛ وكل ما حصل في المعركة عَلِمَ به رسول الله ﷺ، وسكوته عليه يجعله سُنَّةً، ومن الحق ألا نقبل مثل هذا الخبر إلا إذا كان صحيحًا، وهذا الخبر لا يصح سندًا ولا متنًا.

أما السند: فهو معضل؛ لأن عبدالله بن شوذب بعيد جدًّا عن زمن الحدث، وهو رجل خراساني بصري شامي، لم يرحل إلى المدينة منبتِ الأخبار التي حصلت في العصر النبوي.

ولا يصح متنًا؛ لأن ابن عساكر نقل عن المفضل بن غسَّان أن الواقدي كان ينكر أن يكون أبو أبي عبيدة أدرك الإسلام، ويُنكر قول أهل الشام أن أبا عبيدة لقي أباه في زحفٍ؛ فقتله، وقال: سألت رجالًا من بني فِهْرٍ[1]؛ منهم: زفر بن محمد وغيره فقال:

---

(١) قوم أبي عبيدة بن الجراح.

توفي أبوه قبل الإسلام.

فالخبر ـ إذن ـ نشأ في الشام، وذاع في الشام، ولم يعرفه أهل الحجاز، ومثل هذا الخبر لو كان حصل، لتناقله أهل المدينة، ولكان ذاع بين قبيلة بني فهر؛ لأنه خبر غريب، وتميل النفوس إلى سماع الغرائب وروايتها.

قد يُقَالُ: إن الواقدي غير موثوق عند المحدثين.

قلتُ: ولكنه إخباري واسع الاطلاع، وينقلون عنه؛ لترجيح الآراء، وقد وُصِلَ خبره بسؤال بني فهر عن شيخهم.

فعبد اللَّه بن شوذب ثقة، خبره منقطع معضل، والواقدي ضعيف، خبره موصول، فإذا جعلنا الخبرين سواء في المنزلة، نخلص إلى القول: إن الخبر لا أصل له»[١].

«ثم ينقل قول الزمخشري في سبب نزول الآية وقوله: إنها نزلت في أبي بكر حين صَكَّ والده لما سَبَّ رسول اللَّه ﷺ كما زعموا.

وقوله: إنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح؛ قتل أباه الجراح في يوم أحد.. وليس في يوم بدر...

وقال شراب: «وقد فهم بعض العلماء أن الآية ترسم المنهج في التعامل مع الفاسقين الذين ينتمون إلى المسلمين، ولا يطبقون تعاليم الإسلام، فَنُقِلَ عن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبدالعزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور ـ الخليفة العباسي ـ في الطواف، فلما عرفه هرب منه، وَتَلَا الآية... لقد عرض عبدالرحمن الباشا قصة أبي عبيدة في «صور من حياة الصحابة» عرضًا أدبيًّا، ومن شأن الأدباء أن يختاروا العناصر المثيرة في ترجماتهم، وأن لا يتحروا صحة

(١) أبو عبيدة عامر بن الجراح، لمحمد محمد حسن شراب ص (٧١ـ ٧٤) «دار القلم ـ سلسلة أعلام المسلمين».

الأخبار، فلما وصل إلى قوله: «فلما ضاق به ذرعًا ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته فلقتين؛ فخرَّ الرجل صريعًا بين يديه».

وقال الباشا: «لا تحاول أيها القارئ الكريم أن تخمن من يكون الرجل الصريع؟! أما قلت لك: إن عنف التجربة فاق حسبان الحاسبين وجاوز خيال المتخيلين، ولقد يتصدع رأسك إذا عرفت أن الرجل الصريع هو عبدالله بن الجراح والد أبي عبيدة»، ثم قال الباشا: «لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه...» إنه تبرير أدبي، لا يمنع انغلاق رأس قارئ قصة أبي عبيدة، يستوي في ذلك المؤمن والكافر[١].

❑ جهاده في أحد، وثباته مع النبي ﷺ:

شهد أبو عبيدةَ أُحُدًا، وثبت مع رسول الله ﷺ حين انهزم الناس وولوا؛ قال أبو بكر الصديق: «لما كان يوم أحد، ورُمِيَ رسول الله ﷺ في وجهه حين دخلت في وجنتيه حلقتان من المِغْفَر[٢]، فأقبلت أسعى إلى رسول الله ﷺ، وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يطير طيرانًا، فقلت: اللهم اجعله طاعة، حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني، فقال: أسألك بالله أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ. فتركته؛ فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المِغْفَرِ؛ فنزعها، وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى، فسقطت؛ فكان أبو عبيدة في الناس أثرم»[٣].

وثبت أبو عبيدة في ميدان المعركة وأبلى بلاء حسنًا[٤].

---

(١) المصدر السابق ص (٧٦، ٧٧، ٧٨).

(٢) المغفر: زرد يلبس فوق الرأس عند الحرب.

(٣) طبقات ابن سعد (٤١٠/١٣). والثرم ـ بالتحريك ـ: سقوط الثنية؛ وهي: واحدة الأسنان الأربع، **وانظر**: سيرة ابن هشام (٢٨/٣)، ونقل ابن عساكر عن الواقدي: أن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله هو عقبة بن وهب بن كلدة، ورجحه، ونقل ذلك عن ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٤٩٢/٢).

(٤) مغازي الواقدي (٢٤٠/١).

❏ سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصَّة في ربيع الآخر من السنة السادسة من الهجرة:

لما أجمع «**بنو محارب**» و«**ثعلبة**» وأغاروا على مواشي المدينة وهي ترعى بـ«**هيفاء**»(١)، بعث رسول اللَّه ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلًا، فساروا حتى وصلوا إلى «**ذي القصة**»(٢)، فأغاروا على أولئك القوم، وأخذ أبو عبيدة بعض ما لديهم من النعم، ولكن المشركين أعجزوهم هربًا في الجبال، وَأَسَرَ أبو عبيدة رجلًا واحدًا من المشركين؛ فأسلم(٣).

❏ بَعْث النبي لأبي عبيدة على رأس مدد فيهم الصديق والفاروق:

بعث رسول اللَّه ﷺ أبا عبيدة في المهاجرين الأولين ـ فيهم أبو بكر وعمر ـ مددًا لعمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، وقال له: «**لا تختلفا**»، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم على عمرو، قال له عمرو: «إنما جئت مددًا لي»؛ قال أبو عبيدة: «لا، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه»؛ فقال عمرو: «بل أنت مدد لي»؛ فقال أبو عبيدة: «يا عمرو، إن رسول اللَّه ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك»(٤).

❏ سرية أبي عبيدة في رجب من السنة الثامنة من الهجرة إلى القَبَلِيَّةِ:

بعث رسول اللَّه أبا عبيدة في ثلاث مئة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى حي من «**جهينة**» بـ«**القَبَلِيَّة**» مما يلي ساحل البحر؛ فأصابهم في الطريق جوع شديد حتى أكلوا الخبط(٥)، فابتاع لهم قيس بن سعد جزرًا، ونحرها لهم،

---

(١) هيفاء: موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٢) ذو القصة: موضع عل بُعْدِ أربعة وعشرين ميلًا من المدينة.

(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٢، ٤١١/٣)، وعيون الأثر في فنون المغازي والسير (١٠٥/٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٢٩٩/٣)، وطبقات ابن سعد (١٣١/٢)، والإصابة (١٢/٤).

(٥) الخبط: ورق الشجر.

وألقى لهم البحرُ حوتًا عظيمًا فأكلوا منه، ثم انصرفوا دون أن يلقوا كيدًا[١].

❑ غزوة سِيفِ[٢] البحر أو غزوة الْخَبَطِ[٣]:

عن جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه قال: «بعث رسول اللَّه ﷺ بعثًا قِبَلَ الساحل، وَأَمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاث مئة؛ فخرجنا وكُنَّا ببعض الطريق فَنِيَ الزادُ؛ فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فَجُمِعَ؛ فكان مِزْوَدَيْ[٤] تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلًا قليلًا حتى فَنِيَ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة[٥]؛ فقلتُ: ما تغني عنكم تمرة[٦]؟ فقال: لقد وجدنا فَقْدَهَا حين فَنِيَتْ. ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظَّرِبِ[٧]، فأكل منه القوم ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فَنُصِبَا، ثم أمر براحلة فَرُحِلَت، ثم مَرَّتْ تحتهما، فلم تصبهما»[٨].

وقال جابر بن عبدالله: بعثنا رسول اللَّه ﷺ ثلاث مئة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر؛ فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط؛ فسُمي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لنا البحر دابة يُقال لها:

---

(١) طبقات ابن سعد (١٣٢/٢)، وسيرة ابن هشام (٣٠٩/٣)، وفتح الباري (٢٦/٨).

(٢) سيف البحر؛ أي: ساحل البحر. بعث الجيش يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًا من جهينة.

(٣) الخَبَط: ورق السَّلم.

(٤) المِزْود: ما يُجْعَلُ فيه الزاد.

(٥) للجمع بين رواية البخاري ورواية مسلم يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦٧٩/٧): «ويمكن الجمع بأن الزاد العام كان قدر جراب، فلما نفد وجمع أبو عبيدة الزاد الخاص اتفق أنه ـ أيضًا ـ كان قدر جراب، ويكون كل من الراويين ـ عند البخاري ومسلم ـ ذَكَرَ ما لم يذكره الآخر، وأما تفرقة ذلك تمرة تمرة فكان في ثاني الحال».

(٦) عند مسلم من رواية أبي الزبير ـ أيضًا ـ: أنه سُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد وجدنا فقدها حين فنيت»؛ أي: مؤثرًا. وفي رواية أبي الزبير «فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبي الثدي، ثم نشرب عليها الماء؛ فتكفينا يومنا إلى الليل».

(٧) الظَّرِب: الجبل الصغير.

(٨) رواه البخاري ومسلم، وزاد مسلم في رواية أبي الزبير: «فأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وقب عينه»، والوقب: حفرة العين في عظم الوجه.

«**العنبر**»؛ فأكلنا منه نصف شهر، وَادَّهَنَّا من وَدَكِهِ[١] حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو بريدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه، فعمد إلى أطول رجل معه ـ قال سفيان مرة: ضُليعًا من أضلاعه فنصبه، وأخذ رجلًا وبعيرًا فَمَرَّ تحته ـ قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نَهَاهُ»، وكان عمرو بن دينار يقول: «أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبيه: كنتُ في الجيش فجاعوا؛ قال: انحرْ. قال: نحرتُ. قال: ثم جاعوا؛ قال: انحر. قال: نحرتُ. قال: ثم جاعوا؛ قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا؛ قال: انحرْ. قال: نُهيتُ»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: غزونا جيش الخبط، وَأُمِّرَ أبو عبيدة فَجُعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله يقال له: «**العنبر**»؛ فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه، فمرَّ الراكب تحته. فأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرًا يقول: قال أبو عبيدة: كلوا. فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: «**كلوا رزقًا أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم**»؛ فأتاه بعضهم بعضو فأكله»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة».

وفي هذه السرية وشأنها العجيب يقول أحمد محرم:

هُمْ سادة الحرب من شيب وَشُبَّان ... ساروا سِراعًا فما في القوم من وَانِ[٤]

---

(١) ودكه؛ أي: شحمه.
وفي رواية أبي الزبير: «فلقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهنَ، ونقطع منه الفِدَرَ كالثور».
والوقب: هي النقرة التي تكون فيها الحدقة. والفِدَر ـ بكسرة الفاء وفتح الدال ـ: جمع فَدْرة ـ بفتح ثم سكون ـ؛ وهي: القطعة من اللحم ومن غيره.

(٢) رواه البخاري واللفظ له، وأخرجه مسلم.

(٣) رواه البخاري واللفظ له، وأحمد، وابن أبي عاصم في كتاب الأطعمة.

(٤) وَان: ضعيف.

حيدي جُهينةُ أو بِيدي مُذَمَّمَةً ... حُمَّ القضاءُ وخَفَّتْ أسْدُ خفَّانِ[(١)]

سريَّةُ اللهِ ترمى عن يَدَيْ بَطلٍ ... عالي اللواءِ رفيعِ القدر والشَّانِ

أبا عُبيدةَ أوْرِدْها مُظَفَّرَةً ... موارِدَ النصر تشفِي كلَّ حرَّانِ

ما للحفيظةِ إن جاشَتْ مَرَاجِلُهَا ... إلا القواضِبُ تُسْقَى بالدَّمِ القاني

خانت قريش وأمسى عهدها كذبًا ... فَبادِرِ العيرَ واضرب كل خوان

لا يعجبنَّ جُناة الشرِّ إنْ حَصَدوا ... ما يزرعُ الشؤمُ من بَغْيٍ وعدوانِ

لا تبتئسْ بجرابِ التَّمْرِ يحملُهُ ... أولو الحمية من صَحْبٍ وإخوانِ

أعجوبةٌ مالها في الدهر من مَثَلٍ ... لكنَّ ربك ذو فضل وإحسانِ

إنْ ينفدِ الزادُ أغناكم وزوَّدَكُمْ ... ما ليس ينفدُ من تقوى وإيمانِ

كُلُوا من الخَبَطِ نعم الخَبَطُ من أُكُلٍ ... لكل ذي سَغَبٍ في اللَّه طَيَّانِ[(٢)]

حيَّاكُمُ اللَّه من صِيدٍ غَطارِفةٍ ... يلقون في البؤس عيش النَّاعم الهانِي

هِيَ النفوسُ بناها اللهُ من شمم ... نِعمَ البناءُ وجَلَّتْ قدرةُ الباني

إذا تدفق دين المرء في دمه ... سَرَتْ معانيه في رُوحٍ وجُثمانِ

رَمَتْ جُهينةُ بالأبصار من فزعٍ ... فلم تجد غير أبطالٍ وفرسانِ

لاذت بأكنانها القُصوى ولو قدرتْ ... لاذتْ من الزاخر الطامي بأكنان[(٣)]

وولَّتِ العير يُخشى أن يُحاطَ بها ... من الألى هم ذووها كلِّ شيطانِ

ماذا على القوم يرضى البأسُ إن غضبوا ... أن لا يفوزوا بأكفاءٍ وأقرانِ؟

آبوا بخيرٍ وآبَتْ كلُّ طائفةٍ ... من الأولى كَرِهوا الحسنى بخسران[(٤)]

جهاده بعد رسول اللَّه ﷺ

استعمل أبو بكر الصديق أبا عبيدة على جيش من جيوش المسلمين، وأمره

---

(١) موضع أشب الغياض كثير الأُسْد، وقال الجوهري: هو مأسدة.

(٢) جوعان.

(٣) أكنان: جمع كنٌّ؛ وهو: البيت ووقاء كل شيء وستره.

(٤) ديوان «مجد الإسلام، لأحمد محرم» ص (٥٥٧ - ٥٦٠).

بحمص، وكان نص أمر أبي بكر الذي أصدره لقادة الشام: «**إذا اجتمعتم على قتالٍ، فأميركم أبو عبيدة**»[١]، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك[٢]، ولكن أبا بكر أصر على رأيه؛ فسلك أبو عبيدة طريق «**المُعْرِقة**» حتى نزل «**الجابية**»، وكان عدد جيشه سبعة آلاف وخمس مئة رجل.

وما كادت جيوش المسلمين تصل إلى أرض الشام، حتى بعث هرقل قادته وجيوشه باتجاه قادة وجيوش المسلمين[٣]؛ ليشغل جيوش المسلمين بعضهم عن بعض، وليحول دون تعاون قادة المسلمين فيما بينهم، ولتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها من الروم، ولكن قادة المسلمين فَوَّتُوا على الروم هذه الفرصة باجتماعهم في اليرموك؛ استعدادًا لمواجهة الروم جيشًا واحدًا يقوده قائد واحد.

❑ في اليرموك:

استمد أبو عبيدة بعد اجتماع المسلمين في اليرموك أبا بكر؛ فقال أبو بكر: «**خالد لها!!**»؛ فبعث إليه وهو بالعراق، وعزم عليه، واستحثه في السير[٤].

وطلع خالد على المسلمين؛ ففرحوا به فرحًا شديدًا؛ فكان خالد قائدًا عامًّا في معركة اليرموك الحاسمة، وكان أبو عبيدة في القلب[٥]، فهاجم خالد «**القلب**» الرومَ حتى كان بين مشاتهم وفرسانهم، وكان هجوم القلب صاعقًا، فلما وجدت خيول الروم منفذًا لها للهرب، تركت ساحة المعركة هاربة[٦]؛ وبذلك قضى المسلمون على مشاة الروم؛ فانتهت معركة اليرموك الحاسمة بانتصار المسلمين.

---

(١) البلاذري (١١٦)، وفتوح الشام، للواقدي (١/٨).
(٢) البلاذري (١١٦).
(٣) الطبري (٢/٥٩٠)، وابن الأثير (٣/١٥٥).
(٤) الطبري (٢/٥٩١).
(٥) الطبري (٢/٥٩٣)، وابن الأثير (٢/١٥٨). والقلب: هو القسم الأكبر من الجيش كما يطلق عليه في الاصطلاحات العسكرية الحديثة.
(٦) الطبري (٢/٥٩٦)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

❑ بعد اليرموك:

تولى أبو عبيدة بعد اليرموك منصب القيادة العامة في أرض الشام[1]؛ وذلك لأن عمر عهد إليه بمنصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر، وكان يقول: «**لا أمير على أبي عبيدة**»، ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرضًا.. عتادًا وَعُدَّةً.

استخلف أبو عبيدة على «**اليرموك**» بشير بن كعب الحميري، وسار حتى نزل بـ«**الصُفَّرِ**»، وهناك أتاه الخبر بأن المنهزمين من الروم اجتمعوا بـ«**فحل**»، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من «**حمص**»؛ فكتب إلى عمر في ذلك؛ فأجابه بأن يبدأ بدمشق؛ لأنها حصن الشام وعاصمتها، وأن يشغل أهل «**فِحْل**» بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق صار إلى «**فِحْل**»، وكان نَصُّ وصايا عمر - كما ورد في الطبري (٢/ ٦٢٥) -: «أما بعد: فابدءوا بدمشق، فَانْهَدُوا لها؛ فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل «**فحل**» بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإنْ فتحها اللَّه قبل دمشق، فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللَّه دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغِيرَ على «**فحل**»، فإن فتح اللَّه عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرًا وأجلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته».

❑ في دمشق:

سار أبو عبيدة بالناس من «**المرج**» وعلى مقدمته خالد بن الوليد، وعلى المجنبتين عمرو بن العاص وأبو عبيدة نفسه، وعلى الخيل عياض بن غنم، وعلى الرجال شرحبيل بن حسنة، فقدموا على دمشق، وحصروا أهلها، وطوقوها؛ فكان أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية الباب الشرقي، فحاصروا أهل دمشق نحوًا من سبعين

(١) ابن الأثير (٢/١٥٨)، وطبقات ابن سعد (٣/٣٩٧)، واليعقوبي (٢/١١٧).

ليلة حصارًا شديدًا بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون وصول الإمدادات، فلما أيقن أهل دمشق أن الإمدادات لا تصل إليهم، فشلوا، ووهنوا، وازداد المسلمون طمعًا فيهم.

وانتهز خالد فرصة انشغال أهل المدينة في احتفالهم بمولد طفل للبطريق؛ فاعتلى هو وأصحابه السور وفتحوا الباب، فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح؛ فقبل منهم وفتحوا له الباب، وقالوا له: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب. فدخلها خالد عنوة ودخلها أبو عبيدة صلحًا[1].

حياك اللَّه أبا عُبيدة.. وحيا اللَّه دينًا أنجبك، ورسولًا علمك..

كان عمر رضي الله عنه يقول: «**لا أمير على أبي عبيدة**»[2]؛ ولذا عزل خالد بن الوليد وَوُلِّيَ أبو عبيدة إمرة جيش المسلمين، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق، الذي لم يتم فتح دمشق فيه، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه، ولم يخبر خالدًا بعزله؛ إكرامًا له وإجلالًا[3].

كتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطنٍ أمينٍ، حتى انتهت المعركة، وعلم خالد بأمر عزله؛ فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة؛ فقال: «يغفر اللَّه لك؛ أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تُعلمني، وأنت تصلي خلفي، والسلطان سلطانك؟!» فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر اللَّه لك، ما كنتُ لِأُعْلِمَكَ ذلك حتى تَعْلَمَهُ من عند غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله، ثم قد كنتُ أُعْلِمُكَ إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوانٌ وقُوَّامٌ بأمر اللَّه عز وجل، وما يضرُّ الرجلَ أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة

---

(١) الطبري (٢/٦٢٤ - ٦٢٧).

(٢) فتوح الشام، للواقدي (١/٨).

(٣) ابن الأثير (٢/٢٧٨).

وأوقعهما في الخطيئة؛ لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله ﷻ وقليل ما هم».

وقام خالد وقال للناس: «**بُعث عليكم أمين هذه الأمة**»، وقال أبو عبيدة للناس عن خالد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة**»[1].

لقد سار أمين هذه الأمة تحت راية الإسلام أنى سارت جنديًا؛ كأنه بفضله وإقدامه الأمير.. وأميرًا؛ كأنه بتواضعه وإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين.

❑ بعد دمشق:

سار أبو عبيدة بعد فتح دمشق إلى «**فِحْل**» بعد أن استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق؛ فشهد انتصار المسلمين في هذه المعركة التي كان من نتائجها فتح الأردن على يد شرحبيل بن حسنة[2]، وبينما كان أبو عبيدة يخوض معركة «**فحل**»، كان يزيد بن أبي سفيان يخوض معارك فتح ساحل دمشق: صيدا، وعِرْقَة، وبيروت[3].

❑ إكمال فتح سورية:

انصرف أبو عبيدة بخالد بن الوليد ومن معه إلى «**حمص**»، وفي طريقه إليها اصطدم بقوات الروم في «**مرج الروم**»، وأرسل خالدًا؛ ليضرب من الخلف قوات الروم التي قصدت دمشق؛ فاستطاع خالد كما استطاع أبو عبيدة الانتصار على الروم.

واستمر أبو عبيدة في مسيره باتجاه هدفه «**حمص**»، فسلك طريق «**بعلبك**»؛ فطلب أهلها الأمان؛ فأمنهم، وصالحهم، وسار عنهم، فنزل على «**حمص**» ومعه خالد؛ ففتحها بعد حصار طويل على مثل صلح دمشق[4]، ثم مضى إلى «**حَماة**»؛ فتلقاه

---

(١) الإصابة (٢/٥٩٥)، وأُسْد الغابة (٣/٥٨)، والاستيعاب (٢/٧٩٤).

(٢) الطبري (٢/٦٢٨ - ٦٣٠)، وابن الأثير (٢/١٦٥، ١٦٦).

(٣) ابن الأثير (٢/١٦٥).

(٤) الطبري (٣/٩٧)، وابن الأثير (٢/١٩٠)، والبلاذري ص (١٣٦).

أهلها مذعنين؛ فصالحهم على الجزية لرءوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو «**شَيْزر**»؛ فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل «**حماة**»، فسار أبو عبيدة إلى «**معرة حمص**» وهي «**معرة النعمان**»؛ فأذعنوا بالصلح على ما صالح عليه أهل «حمص».

وسار أبو عبيدة إلى «**اللاذقية**»، وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحها إلا بجماعة كبيرة من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفرت حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل «**اللاذقية**» وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم؛ فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة؛ ففتحوها عنوة[١].

وأرسل أبو عبيدة خالدًا إلى «**قنسرين**» وفي «**الحاضر**»[٢] اصطدم خالد بقوات الروم؛ فاقتتلوا قتالًا لم يقتتلوا مثله من قبل، وكانت نتيجة المعركة انتصار المسلمين على الروم، فسار خالد حتى نزل على «**قنسرين**»، فتحصن أهلها منه، ولكنهم صالحوه على مثل صلح حمص، فأبى إلا على خراب المدينة[٣].

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين، سار إلى حلب؛ فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا؛ فوجه إليها السمط الكندي؛ فأعاد فتحها.

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب، فصالح أصنافًا من العرب على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك، وأتى حلب فتحصَّن أهلها، ولكنهم لم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأعطوا ذلك[٤].

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصن بها خلق كثير من قنسرين

---

(١) ابن الأثير (٢/١٩٠)، وفي البلاذري ص (١٣٧): أن الذي فتح هو عبادة بن الصامت.
(٢) الحاضر خلاف البادي، وهو بقرب قنسرين، وهو حاضر قنسرين.
(٣) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١)، والبلاذري ص (١٥٠).
(٤) ابن الأثير (٢/١٩١)، والبلاذري ص (١٥٠).

وغيرها، فحصرها من جميع نواحيها، فصالحوه على الجلاء أو الجزية؛ فَجَلَا بعضهم وأقام بعضهم، فأمَّنهم[١].

وبلغ أبا عبيدة أن جمعًا من الروم بين «**معرة مَصْرين**» و«**حلب**»؛ فقصدهم وقاتلهم وفتح «**معرة مَصْرين**» على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت «**يوقا**»، وفتحت قرى «**الجومة**»، و«**سَرْمين**»، و«**مَرْتَحْوان**»، و«**تيزين**» من نواحي حلب، وغلبوا على جميع أرض «**قنسرين**» و«**أنطاكية**».

وسار أبو عبيدة يريد «**قُورُس**»[٢]؛ فصالحها على صلح «**أنطاكية**»، وبث خيوله فغلب على جميع أرض «**قورس**»، وفتح «**تل عزاز**»[٣]، ثم فتح «**منبج**»، و«**دُلُوك**»، و«**رَعْبان**» صلحًا، واشترط على أهلها أن يخبروا المسلمين بخبر الروم، ووجه أبو عبيدة خالدًا وهو بـ«**منبج**» إلى «**مرْعش**»[٤]؛ ففتحها وأجلى أهلها وأخربها، كما أنه فتح حصن «**الحدَث**»؛ وبذلك أكمل أبو عبيدة فتح «**أرض الشام**» من هذه الناحية إلى الفرات؛ فولي على كل كورة فتحها عاملًا، وضم إليه جماعةً من الإداريين يعاونونه في إدارة منطقته، وجيشًا يدافع عنها، ثم عاد إلى فلسطين[٥].

وبينما كان أبو عبيدة يعمل جاهدًا لإكمال فتح سورية، كان عمرو بن العاص يعمل جاهدًا لفتح فلسطين، فجاءه أبو عبيدة، وحاصروا «**إيلياء**» وهي بيت المقدس؛ فطلب أهلها أن يصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح أهل الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب؛ فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك؛ فقدم عمر وفتح مدينة القدس[٦].

---

(١) ابن الأثير (٢/١٦٢)، والبلاذري ص (١٥٢).
(٢) كورة من نواحي حلب.
(٣) شمال حلب.
(٤) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم.
(٥) ابن الأثير (٢/١٩٢)، والبلاذري ص (١٥٥).
(٦) ابن الأثير (٢/١٩٣)، والبلاذري ص (١٤٥).

الدفاع عن حمص:

عاد أبو عبيدة إلى «**حمص**» بعد فتح القدس؛ فقصده الروم، وكان المهيج لهم هم أهل الجزيرة[١]؛ فقد راسلوا ملك الروم وحثُّوه على إرسال الجيوش؛ لاسترداد الشام، وتطوعوا من أجل ذلك لمعاونته.

وسمع أبو عبيدة باجتماع الروم وحلفائهم؛ فضم إليه مسالح المسلمين، وعسكر في داخل مدينة حمص، وأقبل خالد من «**قنسرين**» إليهم، فاستشاره أبو عبيدة في مهاجمة الروم أو التحصين إلى مجيء الإمدادات، فأشار خالد بالمناجزة، وأشار غيره بالتحصين، فأطاع أبو عبيدة الأكثرية، وكتب بذلك إلى عمر.

وكان عمر قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين الكبيرة ـ ومنها الكوفة ـ قوة احتياطية سريعة من الفرسان؛ فكان بالكوفة وحدها أربعة آلاف فارس، وكان واجب هذه القوات الاحتياطية السريعة مساندة مواقع المسلمين التي يتهددها الخطر إسنادًا فوريًّا حتى يتجهز الناس، فلما سمع عمر الخبر، كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص؛ فإن أبا عبيدة قد أُحِيطَ به، وتقدَّم إليهم في الجد والحث»، وكتب إليه أيضًا: «أن يسرح سهيل بن عدي إلى «**الرقة**»؛ لأن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وأمره أن يسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى «**نصيبين**»[٢]، ثم ليقصد «**حرَّان**» و«**الرّها**»، وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب «**الجزيرة**» من ربيعة وتنوخ، وأن يُسرِّح عياض بن غنم، فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض».

ومضى القعقاع من يومه على رأس أربعة آلاف فارس إلى حمص[٣]، وخرج

---

(١) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات، مجاورة أرض الشام، تشمل على ديار مضر وديار بكر.

(٢) مدينة عامرة كبيرة في بلاد الجزيرة.

(٣) يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معلقًا على هذا: حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلًا؛ إنه يكاد يكون مستحيلًا في أيامنا الحاضرة؛ فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرنًا؟!

عياض وأمراء «**الجزيرة**»، وأخذوا طريق «**الجزيرة**»، وتوجَّه كل أمير إلى المنطقة التي أُمِّرَ عليها، وخرج عمر بن الخطاب بنفسه، فأتى «**الجابية**» يريد حمص مغيثًا لأبي عبيدة.

وبلغ أهل «**الجزيرة**» الذين أعانوا الروم على أهل حمص أن جنود المسلمين قد تحركوا من الكوفة دون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لهم ـ أي: هل يتجهون صوب الجزيرة أم يتجهون إلى حمص؟ ـ؛ لذلك تفرق أهل الجزيرة إلى بلدانهم؛ لحمايتها والدفاع عنها من الخطر المباشر الذي داهمها، وبقي الروم وحدهم حول حمص؛ فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم بسهولة قبل أن يبلغ القعقاع حمص بثلاثة أيام؛ فكتب عمر إلى أبي عبيدة؛ كي يشرك أهل الكوفة في العطاء، وقال: «جزى اللَّه أهل الكوفة خيرًا؛ يكفون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار»[١]؛ وبذلك استطاع أبو عبيدة ترصينَ ما فتحه من أرض الشام، وإكمالَ فتح كل أرض الشام «سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن».

أبو عبيدة بن الجرَّاح القائد.. وأي قائد!!

❑ رزق اللَّه أمين الأمة بخصال مثالية؛ منها:

١ـ الشجاعة:

وقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه من شجعان قريش الذين لا يُشَقُّ لهم غبار.

ومن أبرز المواقف التي ظهرت فيها شجاعته ثباته يوم أحد وهو موقف لا يثبت فيه إلا من أوتي حظًّا عظيمًا من الشجاعة[٢].

٢ـ المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح:

وقد قال عمر رضي الله عنه: «الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[٣] الذي يعرف

---

(١) الطبري (٣/١٥٠)، وابن الأثير (٢/٢٠٥).

(٢) أبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١٥٨) «طبع دار النفائس».

(٣) المكيث: هو الرزين الذي لا يعجل في أمره. **انظر**: لسان العرب (٣/٥١٤).

الفرصة والكف»[١].

وقد أخذ بعض الصحابة على أبي عبيدة سريته الشديدة قبل خوض أي حرب، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه هاشم بن سعد عن زيد عن أبيه قال: «**بلغني أن معاذًا سمع رجلًا يقول: لو كان خالد بن الوليد ما كان بالناس دوك**[٢]**. وذلك في حصار أبي عبيدة دمشق؛ فقال معاذ: «فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة لا أبًا لك، والله إنه لخيرُ مَنْ بقي على الأرض»**[٣].

وَيُفهم من إنكار معاذ رضي الله عنه على مَن أخذ على أبي عبيدة سريته قبل إصدار قراراته أن هذه الصفة تعد خصلة محمودة في القائد العسكري.

٣ـ الثقة والمحبة المتبادلتان بينه وبين قادته، وبينه وبين جنوده:

كان رضي الله عنه من أحب الناس إلى قلب رسولنا ﷺ وأبي بكر وعمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فعن عبدالله بن شقيق قال: «قلت لعائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: أي أصحاب النبي أحبُّ إليه؟ قالت: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قالت: ثم عمر. قلت: ثم من؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح. قلت: ثم من؟ فسكتت»[٤].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضي الله عنه: «**أنه قال لأصحابه: «تَمَنَّوْا»**؛ فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق. وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال عمر:

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤٤٥).

(٢) الدَّوك: دقُّ الشيء وسحقه وطحنه، وَتَدَاوَكَ القوم؛ أي: تضايقوا؛ ويريد القائل بذلك ما حدث للمسلمين من شدة ومعاناة... **انظر**: لسان العرب (١/١٠٣٤).

(٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للدكتور محمد الرشيد ص (٥٦٤) «شركة الرياض».

(٤) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٧٦٠)، وقال: «حسن صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في «المقدمة» ح (١٠٢) (١/٣٨)، والنسائي في «السنن الكبرى»، وأحمد (١٢٨١)، وفي «فضائل الصحابة» (٢/ ٧٤٠)، والإسناد صحيح، وفيه سعيد الجريري، وهو مختلط؛ وَثَّقَهُ أحمد بن حنبل، وَضَعَّفَهُ يحيى القطان.

«تَمَنَّوْا»؛ فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان»[١].

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: «لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته وما شاورت، فإن سُئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله»[٢].

☐ وكان الأمراءُ والفرسانُ يُؤثرون قيادته على قيادة غيره!!

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده: «إني أشهدكم أني وإخواني وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيسٌ في سبيل الله، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلِكَهُمُ الله أو نموت عن آخرنا»، وينضم إلى جيش أبي عبيدة، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان، وَلَمَّا يُسْأَلُ عن ذلك، يقول: «ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته، وهذا أحب إليَّ من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم، وأنا أَشَدُّ اسْتِئْنَاسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره».

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد؛ يقول أبو بكر لهاشم: «يا هاشم، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد جمع لك تلك الخصال كلها، وأنت حديث السن مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر»؛ فقال هاشم: «إنْ يُرد الله بِي خيرًا يجعلني كذلك، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أَقْتُلَ ثم أُقْتَلَ إن شاء الله»؛ قال أبو بكر: «يا هاشم، إن من سعادة جدك ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين... وقد بعث إليَّ المسلمون

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٣/٢٢٧) «مناقب سالم مولى أبي حذيفة»، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد بنحو هذا اللفظ بإسناد حسن في «فضائل الصحابة» (٢/٧٤٠) برقم (١٢٨٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٤١٢)، والإمامة والسياسة، لابن قتيبة (١/٢٣).

يستنصرون على عدوهم من الكفار، فَسِرْ إليهم فيمن تبعك، فإني نادب الناسَ مَعَكَ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد»؛ قال هاشم: «**بل على أبي عبيدة**».

٤ـ بُعْدُ النظر:

حيث كان يضع في حسبانه أصعب الاحتمالات وقوعًا، وبهذه التدابير الاحتياطية لم يستطع العدو في أيامه استعادة أي موقع فتحه المسلمون، وكان ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يشحن النواحيَ المُخَوِّفَةَ بالجند حتى ترد إليها الإمدادات.

يقول ابن الأثير: «وولى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملًا، وضم إليه جماعةً، وشحن النواحي المُخَوِّفَةَ بالجند»[١].

٥ـ المشاورة:

ولقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها، وعندما تحشد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام، استشار أصحابه، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص، أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية.

٦ـ وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَهِيبًا مُؤَثِّرًا في نفوس رجاله:

فكان يتجوَّل في معسكراتهم وهو يقول: «أَلَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنِّسٌ لدينه، ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا!! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات».

٧ـ وكان يساوي نفسه برجاله، بل يستأثر دونهم بالأخطار:

فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده، فكتب إليه: «سلامٌ عليك، أما بعد: فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألَّا تضعه من يدك حتى تُقبِل»، فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر؛ فكتب إليه: «يا أمير المؤمنين، قد عرفتُ حاجتك إلي،

---

(١) الكامل، لابن الأثير (٢/١٩٢).

وإني في جند المسلمين، لا أجِدُ بنفسي رغبة عنهم، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي اللَّه فيَّ وفيهم أمره وقضاءه؛ فخلني من عزيمتك»، فلما قرأ عمرُ هذا الكتاب بكى؛ فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟! فقال: «**لا، وكأن قد**»[1].

٨ـ لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية ـ استراتيجية ـ ممتازة:

فقد بعث بعضَ القواتِ لمشاغلة قوات الروم في «**فحْل**»، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها، ثم قصد «**فحل**» بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في «**فحل**» و«**دمشق**» على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد.

كما أرسل خالدًا على رأس جيش؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق؛ مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحدٍ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد.

ولقد كانت معارك التطهير واستثمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذة: «فقد فَضَّلَ أبو عبيدة التخلِّيَ عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولِّي القيادة العامة بعد اليرموك؛ فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزةً عسكريةً، إذا أدخلنا في حسابنا تفوق الروم السَّاحِق على المسلمين، وسرعة إنجاز الفتح، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضَحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها»[2].

للهِ دَرُّ أبي عبيدة..

من قاهر للروم وما أدراك ما الروم..

بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ.

---

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦).

(٢) قادة فتح الشام ومصر، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٨٠) «دار الفكر».

للهِ دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا..

يرسل إليه عمرُ بنُ الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربع مئة دينار، وقال لرسوله: «**انظرْ ما يصنع؟!**» فقسمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُهُ بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «**الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا!!**»[1].

ولما قدم عمرُ الشامَ، تلقاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ، فقال عمر: «**أين أخي؟!**» فقالوا: مَنْ؟! قال: «**أبو عبيدة**». قالوا: يأتيك الآن. فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْلٍ، فسلَّم عليه، فقال عمر للناس: «**انصرفوا عنا!!**»، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «**لو اتخذْت متاعًا**» ـ أَوْ قال: شيئًا ـ؛ فقال أبو عبيدة: «**يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل**».

وفي رواية: «أن عمر قال: اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة. فقال له: وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين؟! ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي!! ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا؛ فقال: أين متاعُكَ؟! لا أرى إلا لبدًا، وصفحةً، وشنًّا[2] وأنت أمير!! أعندك طعام؟! فقام أبو عبيدة إلى جونة[3]، فأخذ منها كسيرات؛ فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلتُ لك: إنك سَتَعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين!! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل!! فقال عمر: «**غَيَّرَتْنَا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة!!**».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك.. ومطهِّر الشام من دنس الروم: مرج الصفر، فحل، حمص، بعلبك، حماة، شيرز، معرة مصرين، معرة حمص، اللاذقية، حلب، أنطاكية، يوقا، الجومة، سرمين، قنسرين، رعبان، مرلحوان، تيزين، أنطاكية، قورس، تل عزاز، منبج، دلوك، مرعش، حصن الحدث، الجزيرة حران، الرها، دمشق..

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤١٣).

(٢) الشَّنُّ: القربةُ الخَلَقُ.

(٣) الجونة: السَّلَّةُ المستديرة.

كلها تعرف أبا عبيدة فاتحًا لها: إما عنوة وإما صلحًا.

٩ـ كان أبو عبيدة ﵁ قائدًا مُتَّبِعًا يتلقى الأوامر وينفذها بكل أمانة وإخلاص:

فقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[١]؛ وهذا دليل على شدة ضبط أبي عبيدة وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى.

أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة

١ـ الاهتمام بالشئون الإدارية «اللوجيستيك»:

كان «**أبو عبيدة بن الجراح**» مسئولًا عن تأمين الإمداد الإداري لقواته، وعلى الرغم من توفر المواد التموينية والإمدادات في مسرح العمليات، إلا أن هناك قيودًا صارمة قد فرضت لتأمين هذا الإمداد؛ فقد كان على قوات المسلمين تجنب الاستيلاء على المواد التموينية من المدنيين ومن أهالي البلاد غير المحاربين؛ كما كان على القوات تجنب الحقول المزروعة والبساتين وعدم إيذاء الأشجار المثمرة، مع ضرورة دفع ثمن كل ما تشتريه القوات، وقد أمكن في الواقع تأمين الإمداد الإداري باتباع الأساليب التالية:

١ـ الحصول على المعلومات الدقيقة عن قوافل إمداد العدو وتموينه والإغارة عليها ومصادرتها لحساب قوات المسلمين، ولما كانت قوافل الإمداد غالبًا ما تسير تحت حراسة جيدة، فقد نظمت الإغارات بأعداد قوية حتى تتم إبادة الحامية المرافقة للقافلة ثم مرافقة الغنائم وحراستها حتى الوصول بها إلى مواقع قوات المسلمين.

٢ـ الاتفاق في نصوص المعاهدات المعقودة مع سكان البلاد على تأمين الإمداد الإداري للقوات، وكان يتم احتساب ثمن المواد التموينية من أصل الجزية المفروضة.

٣ـ تأمين المتطلبات الضرورية من الأهلين عن طريق الشراء والمبادلة، وقد توفرت لقوات المسلمين إمكانات جيدة بفضل ما حصلوا عليه من غنائم في معاركهم

---

(١) الطبري (١/٥٩٩).

المتتالية، «ويتضمن النظام الإسلامي على - ما هو معروف - توزيع أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين، ويبقى الخمس لبيت الله»، وكان يحتسب للراكب «**الفارس**» سهمين مقابل سهم واحد لجندي المشاة، وقد بلغت الغنائم في كثير من المعارك مبلغًا جيدًا ساعد المشاة على التجهز بالخيول والتحول إلى قوات الفرسان.

وكان «**أبو عبيدة**» يحرص على تنظيم الإمداد الإداري بواسطة مفارز يتم التناوب فيها بينها؛ وذلك لتحقيق مجموعة من الأهداف:

أولها: إنقاص حجم القوات المكلفة بالتأمين الإداري حتى الحد الأدنى؛ بحيث لا ينصرف المقاتلون عن واجباتهم من أجل تأمين متطلباتهم الحياتية.

وثانيها: حصر مسئولية التأمين الإداري بعناصر معينة؛ مما ينفي كل إمكانية لحدوث احتكاك بين المقاتلين من المسلمين وبين أهل البلاد من غير المحاربين.

وثالثها: ضمان الأمن للقوات؛ بحيث لا يضطر المقاتلون للابتعاد عن معسكر المسلمين، هذا وكانت منطقة الشئون الإدارية تقع أثناء المعركة أو أثناء التوقف القصير في مؤخرة قوات المسلمين، وكان النساء والأولاد يقيمون في منطقة الشئون الإدارية، ويعملون على تأمين الخدمات الضرورية، سواء للمساعدة في إعداد طعام المقاتلين، أو من أجل إسعاف الجرحى ودفن الشهداء، أو حتى للاشتراك في القتال إذا ما تطلب الأمر؛ على نحو ما حدث في اليرموك وفي عدد من المعارك الأخرى، أما في حالة المسير فكان الرتل الإداري عادة ما يسير في قلب القوات أو في مؤخرتها بحسب الموقف؛ وذلك من أجل حمايته.

تُظْهِرُ أعمال «**أبي عبيدة بن الجراح**» أن اهتمامه بالشئون الإدارية قد تركز على حرمان الروم «**البيزنطيين**» من مواردهم التموينية ومتطلباتهم الحياتية، وتأمين تعايش قوات العرب المسلمين على حسابهم، ولم تكن بلاد الشام محدودة الموارد الزراعية والاقتصادية حتى تشكل قوات المسلمين عِبئًا عليها؛ كما أن متطلبات تلك القوات كانت محدودة نسبيًا؛ **لسببين**:

أولهما: أن حجم القوات بقيت محدودة وأقل بكثير من حجم قوات الروم التي كانت تتعايش على حساب بلاد الشام.

وثانيهما: أن متطلبات تلك القوات بقيت قليلة؛ نظرًا لما عرف عن المقاتل المسلم من زهد وتقشف، وعلاوة على ذلك فقد كانت بلاد الشام؛ معروفة باسم «**إهراءات الرومان**»؛ دلالة على خصبها وغزارة مواردها الزراعية التي تضمن إمداد الجيوش الرومانية الجرارة، وتؤمن لها الإمداد بالأطعمة والأغذية؛ ويتأكد ذلك أيضًا من خلال وصول أول قافلة للإمداد إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام بقيادة «**أبي عبيدة ابن الجراح**»؛ وذلك عندما طلب أمير المؤمنين «**عمر**» إلى ولاته في الأقاليم إرسال الإمدادات؛ لتأمين الطعام لسكان الجزيرة، عندما أصيبت الجزيرة العربية بالقحط في عام الرمادة «١٧هـ».

وتبقى الظاهرة الأساسية في اهتمام «**أبي عبيدة**» بالشئون الإدارية؛ وهي: عدم إعطاء أفضلية «**التأمين الإداري**» على حساب متطلبات العمليات أو الواجبات التعبوية «**التكتيكية**».

وعلى سبيل المثال: فقد كانت أعمال الحصار الطويل تتطلب تأمين المتطلبات الضرورية؛ كـ«المجانيق، والأوهاق، والحبال... إلخ»، ولكن المحافظة على فضائل جيش المسلمين - وفي طليعتها المرونة وخفة الحركة - وتوفر الرغبة بعدم إرهاق القوات بالأعباء الإدارية التي تتطلبها أعمال الحصار فرضت تجنب محاولات الاقتحام بالقوة واللجوء إلى المناورات الخداعية لإخراج المقاتلين من حصونهم وأسوارهم، والدخول معهم في معركة تصادمية تتوافق ومعطيات العقيدة القتالية الإسلامية؛ وبذلك عمل «**أبو عبيدة**» على تطوير الأساليب التعبوية والعملياتية للتعويض عن القصور في الإمداد الإداري بالمعدات الهندسية؛ مما أدى بصورة غير مباشرة إلى تطوير «فن الحرب».

تأتي بعد ذلك الظاهرة الثانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى في مجال «**الاهتمام**

بالشئون الإدارية»؛ وهي: عدم حل هذه على حساب غاية المسلم.

٢ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين:

المقصود بـ «العنف في القضاء على أعداء المسلمين» هو ذلك العنف الذي يهدف إلى تصفية أعداء الإسلام بصورة شخصية؛ نظرًا لمواقفهم المناوئة للإسلام، أو بسبب نكايتهم بالمسلمين والكيد لهم، وهو غير استخدام «**العنف بالحرب**»؛ إذ إن «**استخدام العنف في الحرب**» هو مبدأ أساسي في حروب المسلمين التي تهدف باستمرار إلى «**الحسم في المعركة**»، ومن المحال التفكير في «**الحسم**» أو الوصول إليه عن غير طريق إبادة قوات الخصم وقتل كل من حمل السلاح ضد المسلمين.

والعنف في الحرب ـ بعد ذلك ـ طبيعة ملاصقة للصراع؛ إذ لو انتفى العنف لانتفت صفة أساسية من صفات الحرب، وقد كان «**أبو عبيدة**» محاربًا من الطراز الأول في جيش «**النخبة المختارة**»؛ فكان من الطبيعي أن يستخدم العنف في الحرب حتى حدوده القصوى؛ ولهذا فما أن انتهت معركة «**اليرموك**» حتى وَجَّهَ «**أبو عبيدة**» مفارز للفرسان بهدف إبادة فلول القوات المنهزمة، وفي المعارك التالية حَرَصَ أبو عبيدة على تدمير قوات العدو تدميرًا شبه كامل ـ وفي معركة «**مرج الروم**» بصورة خاصة ـ، ولكن الظاهرة المميزة هي تفنين الحرب بدقة؛ بحيث تقتصر على محاربي العدو، وفي إطار ميدان المعركة[(١)]، ويمكن اعتبار ظاهرة «**العنف في القضاء على**

---

(١) لقد حاولت جيوش العالم قديمها وحديثها تقنينَ الحرب والفصل بين المحاربين وغير المحاربين، ولكن جميع الجيوش فشلت في ذلك باستثناء بعض الحالات الخاصة، وتشير الشواهد الحديثة إلى اتجاه الحرب نحو مزيد من التطرف في أعمال العنف وعدم التمييز بين المحاربين وغير المحاربين؛ سواء في الحروب الثورية ـ كما حدث في الجزائر وفيتنام ـ أو في الحروب النظامية، وتشير التقديرات إلى أنه قد سقط في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ ١٩٤٥) (١٨) مليون مدني قتيلًا مقابل (١٢) مليون عسكري، وتشير توقعات استخدام القنبلة الذرية إلى احتمال سقوط (قتيل واحد) مقابل (جريح واحد) في الجيوش، و(٢,٥) قتيلًا مقابل (جريح واحد) في السكان المدنيين، على حين لم تكن المقاييس العسكرية تتجاوز في السابق (قتيلًا واحدًا) مقابل (٣ أو ٤) جرحى.

أعداء المسلمين» سواء على المستوى الفردي، أو على مستوى الصراع المسلح في ميادين القتال إحدى الوسائل التكميلية لتدمير الاختلاف الكبير في ميزان القوى وتحويله لمصلحة العرب المسلمين؛ كما يمكن اعتبار هذه الظاهرة ـ أيضًا ـ وسيلة تكميلية لتحقيق «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**» وردع أعداء المسلمين عن التفكير في مجابهة قوات العرب المسلمين؛ ويتأكد ذلك من خلال التقنين المحكم والدقيق في الفصل بين أسلوب التعامل مع المحاربين الذي يعتمد على «**العنف**» وبين أسلوب التعامل مع غير المحاربين والذي يعتمد على «**الصلح**»؛ من خلال الاتفاقيات، والمهادنة، واكتساب ثقة المواطنين؛ من خلال تعريفهم بمبادئ الدين الإسلامي وقواعده، ويمكن ـ دون مبالغة ـ اعتبار القائد «**أبي عبيدة بن الجراح**» نموذجًا رائعًا، وأمثولةً تُجَسِّدُ كل الفضائل الحربية التي سبق ذكرها؛ وأبرزها: تقنين الحرب والتحكم فيها بكفاءة عالية.

❑ أبو عبيدة وقواته على استعداد دائم للقتال:

كان نداء: «**يا خيلَ اللهِ اركبي**» عند المسلمين يشبه نداء «**إلى السلاح**» في الجيوش الحديثة؛ ذلك أن قوة الخيل أو قوة الفرسان كانت تمثل قوة الصدمة في جيوش العرب المسلمين، وكانت هذه القوة هي المسئولة عن مجابهة كل مباغتة محتملة، وكان يتم العمل لمجابهة المباغتة على أساس تدخل قوة الحرس، فإذا عجزت هذه القوة عن مجابهة الخطرِ، استنفرت قوات الفرسان، وتم دفعها إلى المعركة ريثما يتم تنظيم بقية القوات بعيدًا عن كل خطر؛ وبذلك يتم تطويق «**المأزق**»، وقد تردد في مرات كثيرة أثناء مسيرة الفتوح أن قوات المسلمين «كانت لا تبيت ولا تصحو إلا على تعبئة»؛ وبذلك كانت في حالة استعداد دائم للقتال، وقد حاول الروم في مرات عديدة مباغتة قوات «أبي عبيدة بن الجراح» ولكنهم لم يتمكنوا أبدًا من إصابة غُرَّةِ المسلمين أو مباغتتهم.

ويتعلق الاستعداد الدائم للقتال بفضائل المقاتلين الحربية أكثر مما يتعلق بكفاءة

القيادة؛ فالقيادة تضع كل الإجراءات، وتتخذ كل التدابير لتحرك القوات وتوقفها وتحديد واجباتها في كل مرحلة، ولكن يبقى التنفيذ متعلقًا بفضائل الجنود وروحهم المعنوية وإيمانهم بالهدف وحماستهم للقتل والقتال؛ وقد برهنت مسيرة أعمال الفتوح على أن «**أبا عبيدة بن الجراح**» قد حَرَصَ في كل مراحل القتال على توجيه المقاتلين وقيادتهم بكفاءة عالية، وبرهنت مسيرة أعمال الفتوح أيضًا أن الفضائل الحربية في وسط المقاتلين المسلمين لم تكن دون مستوى كفاءة قيادتهم؛ ومن هنا تظهر الاستجابة الكاملة لدى المجاهدين لما كان يطلب إليهم تنفيذه.

ما كانت مسيرة الفتوح مجرد رحلة عبر المفاوز والصحاري، ولا كانت حتى مجرد اختراق للسهول والجبال؛ وإنما كانت أيضًا أعمالًا قتاليةً يتصل فيها الليل بالنهار، وتختلط فيها الأعمال الدفاعية وعمليات الحصار بالأعمال الهجومية وعمليات الاقتحام، مع احتمال الاشتباك في كل وقت وفي كل منطقة. وبذلك كان الجهد المبذول يتجاوز الحدود القصوى لكل ما هو متوقع ولكل ما هو معروف، وقد يكون من السهل الجلوسُ بهدوء وفي مناخ تتوفر فيه كلُّ شروطِ الراحةِ الجسديةِ والنفسيةِ، والتحدثُ عن مشاق القتال في فترة الفتح، وقياسُ المواقع والمسافات بمقاييس الخرائط، ولكن تقويم «**درجة الاستعداد القتالي**» تتطلب في الواقع ما هو أكثر من ذلك؛ إنها تتطلبُ - وَبِبَساطَةٍ - تجربةَ اختراقِ الصحراءِ العربيةِ تحت وهج الشمس اللاهبة وفوق الرمال الحارقة بمثل ما كانت عليه الوسائط المتوفرة، ثم تجربةَ زجِّ القواتِ بعد التحرك، واتخاذ تدابير الحيطة والوقاية، وتصور الجهد المبذول لخوض القتال والاشتباك في الحرب، كل ذلك مع ما كان عليه موقف قوات المسلمين من ضعف عددي يجعل الجهد المبذول مرتفعًا حتى حدوده القصوى؛ بسبب توزعه على أعداد قليلة، وعلاوة على ذلك كله فقد كانت قوات المسلمين في حالة إعادة تنظيم مستمر؛ حتى تستطيع تنفيذ الأعمال المختلفة، وقد لا تكون هناك حاجة لوصف ما تتطلبه هذه الحالة من جهد إضافي يتحمله جند المسلمين بثبات رائع وتصميم كبير.

وكان «**أبو عبيدة**» ومعه كل المجاهدين في سبيل اللَّه قد غادروا جزيرتهم وهم يعرفون أن أمامهم تحديات لا حدود لها؛ فكان خروجهم في حد ذاته إنما هو برهان على استعدادهم الدائم للقتال، وكانت جهودهم المبذولة برهانًا على أنهم كانوا فوق التحديات كلها، ما هو متوقع منها وما هو غير متوقع؛ وبذلك استطاعوا المحافظة على استعدادهم الدائم للقتال، رغم كل ظروف القتال الصعبة، ورغم كل الاشتباكات الشاقة، ورغم كل ما كان يبذله العدو من جهد وما يضعه من مخططات لإضعاف إرادة القتال عند المجاهدين.

❑ **وكان ﷺ دائمًا يحرض ويحض على القتال.**

قال رضي الله عنه في اليرموك: «عباد الله، انصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار. لا تتركوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح؛ واستتروا بالدرق، والزموا الصمت؛ إلا من ذكر اللَّه عز وجل في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله».

ومما قاله في معركة بعلبك: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم؛ فإن بقيت كانت وبالًا على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا على غيره».

❑ **أَبُو عبيدةَ وَمَا يُعْرَفُ حَدِيثًا بـ«الحرب الشعبية»:**

كان جيش الفتح بحكم تكوينه يضم المجاهدين الراغبين في الحرب دون تمييز بسبب فارق العمر أو بسبب الجنس، وكان من واجب قائد العمليات تنظيم القدرات المختلفة وحشد كل الإمكانات في الحرب، ولكن «**أبا عبيدة**» لم يقف كقائد للعمليات عند حدود التنظيم والحشد للقوات؛ وإنما تجاوز ذلك بحسب ما تظهره وثائق الصلح التي عقدها «**أبو عبيدة**» مع أهل البلاد؛ حيث يتبين أن «**أبا عبيدة**» قد طور مفهوم ما هو معروف حديثًا باسم «**الحرب الشعبية**»؛ وذلك عن طريق:

أ ـ تحقيق «غَايَةِ السِّلْمِ»

من خلال الكفاءة العالية في حسم الصراع المسلح والتمهيد لإقامة المجتمع الإسلامي والعمل بالتالي على حشد الطاقات الجديدة ممن دخلوا في الإسلام حديثًا، وقد كانت هذه العملية مشابهة لتلك التي طبقها الرسول ﷺ منذ بدأ دعوته للإسلام؛ حيث يتم اكتساب الأقاليم سلمًا أو حربًا ونشر الإسلام فيها وتحميل أهلها أمانة نشر الإسلام، وكان هذا في حد ذاته تطويرًا لمضمون الجهاد أو ما يعرف حديثًا بـ«**الحرب الشعبية**».

ب ـ الإفادة من سكان البلاد «وتحييدهم» إذا صح التعبير:

عن طريق اتفاقيات السلم؛ وذلك لتحقيق هدف مزدوج؛ **الأول:** هو دعم القدرة الحربية وتأمين الحماية لها، **والثاني:** توفير المناخ للإفادة من الطاقات المتوفرة كلها لتوجيهها نحو الجهاد وتحقيق المشاركة الكاملة للقوات بأعمال الفتوح؛ بحيث لا يتم تبديد قسم من الجهد أو الطاقة البشرية.

ج ـ تنظيم القوات بحيث يقوم الجميع بأعباء الحرب:

النساء للشئون الإدارية وإسعاف الجرحى وأحيانًا للقتال.

والأحداث للقيام بالأعباء التي تتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم.

ويظهر واضحًا أن واجب «**أبي عبيدة**» كقائد لمسرح من مسارح العمليات لم يكن محددًا بقيادة الأعمال القتالية فقط؛ وإنما كان يشمل إدارة البلاد التي يتم فتحها، وإقامة دعائم المجتمع الإسلامي، وكان من الطبيعي أن يتبع ذلك ـ وبصورة مباشرة ـ تطبيقُ مبدإ الجهاد أو «**الحرب الشعبية**».

وكان تطبيقُ هذا المبدإ يسمحُ لأبناء البلاد التي تم فتحها العملَ على قدم المساواة مع جنود جيش الفتح، وأصبح واجبُ الجيش في العمل لصهر المجتمع الجديد والمساعدة على عملية البناء بـ«**تطبيق مبدإ الجهاد ـ أو الحرب الشعبية**» هو من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انتشار الإسلام، وضمنت القوة للمجتمعات الجديدة،

وتبرز أهمية هذا المبدإ بصورة خاصة في الفتوحات التالية؛ حيث أصبح أبناء البلاد حديثة العهد بالإسلام ـ كالشام والعراق ـ هم حملة مشاعل الإسلام إلى الأقاليم الجديدة التي لم يتم فتحها.

لقد تمت فتوح الشام وفتوح العراق في فترة متقاربة «١٢ ـ ١٧هـ»، وانصرف المسلمون لبناء المجتمع الجديد، وأعقب ذلك «**فتح مصر**»، وتحولت هذه الأقاليم بعد فترة قصيرة إلى قواعد قوية لإطلاق جيوش الجهاد اعتمادًا على مبدإ الحرب الشعبية، ويعود الفضل في ذلك إلى قادة الفتوحات في هذه الأقاليم الذين تمكنوا من تطبيق مبدإ الجهاد و«**تطوير مفهوم الحرب الشعبية**»؛ مما عزز إمكانات المسلمين، وساعد على زيادة قدرتهم البشرية؛ وبذلك أمكن نشر راية الإسلام، ولقد أصبحت جيوش الفتح ـ بفضل مبدإ الجهاد أو الحرب الشعبية ـ هي المدارس الحقيقية لتكوين المجتمعات الإسلامية الجديدة والتي تعمل على إعداد القوى الضرورية والطاقات الأساسية لإزالة كل التناقضات التي يمكن لها الظهور ـ أو يحتمل بروزها ـ في أخطر مراحل بناء المجتمع الإسلامي في جميع الأقطار.

ويبقى «**أبو عبيدة بن الجراح**» رائدًا من رواد تطبيق هذا المبدإ الذي يعتبر أساس التنظيم للمجتمع الإسلامي.

❑ جيش أبي عبيدة رهبان الليل وفرسان النهار:

وَصَفَتِ المصادر التاريخية حال المجاهدين فقالت: «كانوا أسادًا في الحرب ورهبانًا في الليل؛ يُدَوُّونَ بالصلاة والدعاء؛ كدوي النحل، لا يُفَضَّلُ من مضى على من بقي إلا بفضل الشهادة».

لما رحل هرقل عن سورية، جاء إليه رجل من الروم كان أسيرًا في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم. فقال: أحدثك؛ كأنك تنظر إليهم؛ فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على مَن حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال: لئن صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدميَّ هاتين»[1].

موقع أبي عبيدة من فن الحرب

لله دَرُّ خالد بن الوليد رضي الله عنه حين يقول لأبي عبيدة «... **لا نعصيك، ولا نقطع دونك أمرًا؛ فأنت سيد المسلمين، لا ينكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك**»[2].

هذا كلام من قائد من كبار القواد في التاريخ العسكري يقوله في حق أبي عبيدة كقائد.

وتظهر أهمية الدور القيادي لأبي عبيدة بن الجراح لا كرائد من رواد الفتح الأوائل، ولا كقائد أمكن له تطبيق «**مبادئ الحرب**» بمرونة كبيرة وفقًا «**للمواقف القتالية**» التي كانت تجابه قوات المسلمين، وإنما تظهر أهمية هذا الدور بتحديد العلاقة بين «**السياسة الاستراتيجية للفتح**» والتي كان يمارسها الخليفة أبو بكر ومن بعده أمير المؤمنين عمر، وبين «**قيادة العمليات**» والتي كان يمارسها هو فوق مسرح عمليات بلاد الشام.

ولقد كان تحديد هذه العلاقة بصورتها الواضحة هو العامل الأساسي والحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصارات، وفيما حققوه من أعمال ناجحة.

كان أبو عبيدة - بحسب ما هو واضح من سيرته القيادية - نسيجًا وحده في «**فن الحرب**»؛ ذلك أنه كان يضطلع بدوره القيادي وهو مقتنع بما يجب عليه عمله، ومدرك للحدود التي يجب عليه التحرك ضمنها؛ فكانت «**حرية العمل**» المتوفرة له ضيقةً جدًّا عند النظر إليها من زاوية مسرح العمليات، وهي واسعة جدًّا عند النظر إليها من زاوية السياسة الاستراتيجية؛ إذ كان يتمتع في هذه الحالة بالإمكانات المتوفرة له، علاوة على تلك التي يتم حشدها لمصلحته، سواء أخذت هذه الإمكانات شكل «**دعم مباشر**» أو أخذت شكل «**حرب تشتيتية**» في مسرح آخر يرتبط - بالنتيجة - مع

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٦٠٢، ٦٠٣) والكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) أبو عبيدة بن الجراح، لبسّام العسلي ص (١٣) «دار النفائس».

مسرح عملياته.

انطلاقًا من هذا المفهوم استطاع أبو عبيدة المحافظة على مبدإ «**وحدة القيادة**»، وقد كان حرصه على ترك «**وحدة القيادة في السياسة الاستراتيجية**» مماثلًا لحرصه على التمسك بمبدإ وحدة القيادة على «**مستوى العمليات**».

كل ذلك ـ في رفق كبير وتواضع رائع ـ جعل من قيادته نموذجًا لما يجب أن تكون عليه العلاقة مع القيادة العليا ومع القيادات التابعة.

وتبرز كفاءة أبي عبيدة على مستوى العمليات في تقديره الصحيح للمواقف، الأمر الذي كان يساعده على اتخاذ القرارات المناسبة وتنفيذها في الوقت الملائم.

ويمكن الانتقال بعد ذلك إلى مجال تطبيق «**مبادئ الحرب**» في فترة كانت لا تزال فيها هذه المبادئ تمر بمرحلة التكون؛ ففي تلك الفترة تولى «**أبو عبيدة**» قيادته، وكانت الحروب مستمرة، والمعارك متتالية متلاحقة، وكان لكل معركة ظروفها الخاصة؛ فكان من المحال تطبيق «**مبادئ الحرب**» بصورة جامدة أو متيبسة، ولكن استخدام تلك المبادئ وتطورها كان يتطلب كفاءة عالية، ولم يكن أبو عبيدة يفتقر إلى تلك الكفاءة؛ وبذلك أمكن له تحقيق الإنجازات الرائعة في تثبيت «**مبادئ الحرب**» وتطويرها.

لم تكن كفاءة «**أبي عبيدة**» على مستوى العمليات وفي جميع الأحوال إلا برهانًا على إمكانات «**أبي عبيدة**» الكبيرة لممارسة قيادة أكبر من مستوى العمليات، وكان عمر رضي الله عنه أعرف الناس بالرجال، وكان يتمنى لو عاش «**أبو عبيدة**»؛ حتى يترك له «**إمارة المؤمنين**»، ولا ريب أن ذلك دليلًا على ما يتوفر لأبي عبيدة من قدرات قيادية كبيرة؛ أبرزها: «الأمانة»، و«العدل»، و«القدرة القيادية»، و«التقدير الصحيح للمواقف»؛ وعلى هذا فقد كان أبو عبيدة فوق القيادة التي مارسها[1].

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (٧٤ ـ ٧٨) باختصار.

١ـ فِي الاستراتيجية العليا

١ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

انطلق «**أبو عبيدة**» بجيشه إلى الشام، وتوافق ذلك مع حدوث «**مأساة خالد بن سعيد**» الذي أهمل حماية مؤخرته، ولم يهتم كثيرًا بالمحافظة على خطوط مواصلاته؛ فكان في ذلك كارثة رافقت بداية الفتوح، وقد أدرك قادة المسلمون ـ وفي طليعتهم أبو عبيدة ـ هذا الدرس؛ فَآلَوْا على أنفسهم على التحرك باستمرار من قاعدة قوية ومأمونة؛ بحيث لا يؤتى المسلمون في خلفهم.

وعندما تداعت «**الروم**» لحرب المسلمين، وأراد «**هرقل**» توجيه جيوشه للقضاء على كل جيش بمعزل عن الجيوش الأخرى مستفيدًا من تفوقه الكبير بالقوى والوسائط، أسرع قادة المسلمين بجيوشهم إلى «**اليرموك**» بهدف المحافظة على الاتصال بقاعدتهم الأساسية في «**المدينة المنورة**»، ولقد بقيت نسبة تفوق الروم على المسلمين ثابتة لم تتغير، ولكن تجمع المسلمين ضَمِنَ لهم مزيدًا من حرية العمل؛ كما ضَمِنَ لهم المحافظة على الاتصال بقاعدتهم.

واستمر «**أبو عبيدة**» في تطبيق مبدإ «**الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة**» على مستوى العمليات؛ وبرز ذلك عند فتح «**دمشق**»؛ حيث عمل «**أبو عبيدة**» على توجيه مجموعات قتالية من قوة «الفرسان» لحماية مسرح العمليات؛ فكانت قوة «**ذي الكلاع الحميري**» على محور «**دمشق ـ حمص**»، وقوة «**شرحبيل بن حسنة**» ضد قوات «**فحل**»، وقوة «علقمة بن حكيم» على محور «**دمشق ـ فلسطين**» بمثابة حماية لقاعدة العمليات، وبعد ذلك لم يتحرك «**أبو عبيدة**» نحو واجبه الأساسي في فتح «شمال دمشق» حتى تمت تصفية قوات الروم في «**فحل**»، وتابع «**أبو عبيدة**» تحركه نحو بعلبك، ولم يغادرها حتى تم فتحها، وكان مما قاله لجنده: «**اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم؛ فإن بقيت كانت وبالًا على من صالحتم، ولا تقدرون**

على سفر ولا على غيره»، وكذلك الأمر عند فتح «**حمص**»؛ فقد استمر الحصار طويلًا، ولم يحاول «**أبو عبيدة**» التحرك قبل احتلال المدينة وتصفية المقاومة فيها، واستمر العمل بهذا المبدإ حتى تم تحرير سوريا كلها.

لم يكن أسلوب «أبي عبيدة» لإقامة القاعدة القوية والمأمونة يقف عند حدود ضمان «**أمن القوات**» أو تحقيق مبدإ «**حرية العمل العسكري**»؛ وإنما كان يشمل التأمين الإداري للقوات، وتوفير الظروف لإقامة المجتمع الإسلامي الجديد، كل ذلك مع الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام ـ، وهكذا لم يكن تطبيق مبدإ «**الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة**» هدفًا في حد ذاته؛ وإنما كان وسيلة لتحقيق الهدف الكبير وهو «**نشر الإسلام**»، وكان ذلك سببًا في تقييد «**حرية العمل العسكري**» الذي جاء مقننًا بدقة، ومنظمًا بإحكام؛ بحيث يقتصر العنف على مسرح العمليات، وبحيث لا يتجاوز العنف حدود الصراع المسلح في جبهة القتال، وضمن هذا الإطار ذاته حَرَصَ «**أبو عبيدة**» على تنظيم «**التأمين الإداري للقوات**»؛ بحيث يقوم المسلمون بتأمين متطلباتهم عن طريق «الشراء» وعدم إلحاق الضرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم؛ فكان في ذلك تحقيق هدف السياسة الاستراتيجية والسياسة العليا؛ وهو: «**خوض الحرب بما لا يتعارض مع إقامة سِلْم مُقْبِلٍ**».

وكان «**أبو عبيدة**» في ذلك من الرواد الأوائل الذين سبقوا الدنيا بإدراك هدف الحرب وتطبيق الوسائل الضرورية للوصول إلى الهدف قبل أن يحاول العالم معرفته بأكثر من عشرة قرون.

لقد عرف «**تاريخ الحرب**» في القديم والحديث جيوشًا كثيرة خرجت لإقامة قواعد جديدة لها، ولكنها فشلت كلها في الوصول إلى أهدافها؛ بسبب تفضيل «**حرية العمل العسكري**» على «**إقامة القواعد القوية والمأمونة**»، وبسبب عدم نجاح القادة في تحويل المنطلقات النظرية والمبادئ إلى واقع عملي، ولقد تعرضت «**قاعدة بلاد الشام**» إلى هجمات وغزوات مستمرة، واستطاعت ـ رغم ذلك ـ الصمودَ لكل

التحديات والخروج من كل الأزمات وهي محافظة على قوتها وصلابتها، وقد كان لأبي عبيدة بن الجراح وَمَنْ تَبِعَهُ فضلٌ في ذلك، وقد تحمل الرواد الأوائل - يقينًا - الأعباء الثقيلة، وقدموا التضحيات غير المحدودة حتى أمكن لهم إقامة القاعدة القوية والمأمونة، والتي أفاد منها الأمويون بعد ذلك؛ فجعلوها قاعدة لإطلاق جيوش المسلمين إلى أرجاء الدنيا حتى وصلت إلى الصين وفرنسا، وحفظت «**دمشق**» للدنيا «**أمجاد العرب المسلمين**».

٢- وضوح الهدف

إن قضية «**وضوح الهدف**» عند أبي عبيدة لم تكن مرتبطة بمعرفة الآخرين قدر ارتباطها بمعرفته لنفسه ولما يريده، وقد تكون قضية «**وضوح الهدف**» مُسَلَّمٌ بها على مستوى السياسة الاستراتيجية؛ نظرًا لارتباطها بالعقيدة الإسلامية، ولكن ترجمةَ مثلِ هذا الوضوح على مستوى قيادة العمليات وعلى مستوى التنفيذ التعبوي «**التكتيكي**» هو المجال الرحب أمام قادة العرب المسلمين لإبراز كفاءتهم القيادية، والبرهان على إمكاناتهم الخاصة وقدراتهم الذاتية، وفي هذا المجال كان النجاح الرائع «**لأبي عبيدة ابن الجراح**».

إن عوامل «الوضوح في الهدف» قد اعتمدت عند أبي عبيدة على المعطيات الآتية:

١- التقدير الصحيح للموقف، ومعرفة نوايا العدو بدقة تامة، وإجراء موازنة محكمة بين مجموعة العوامل التي تدخل في اتخاذ القرار.

٢- عقد مؤتمرات القادة - بحسب التعبير الحديث - واستشارتهم في المواقف المستجدة بعد طرح الموقف بكل أبعاده، ثم اتخاذ القرار المناسب والعمل على تنفيذه.

٣- الفصل بين «**الهدف الاستراتيجي**» و«**الهدف العملياتي**»، ومعالجة مواقف العمليات بصورة مباشرة، وترك المواقف الاستراتيجية للقائد الاستراتيجي، والذي كان يمارس دوره الخليفة.

وَتُظْهِرُ مسيرة الفتوح بعد ذلك أنها لم تكن ضربة مباغتة في غفلة من الدهر، أو

أنها كانت عملًا مرتجلًا بعيدًا عن الهدف، مجردًا من الغاية؛ وإنما كانت عملًا موجهًا بدقة رائعة، مارس فيها عقل «**أبي عبيدة**» الجبار دورًا أساسيًّا على مستوى التخطيط للعمليات، وعلى مستوى تحديد الهدف الأساسي والأهداف الثانوية أو الفرعية، وقد تم تنفيذ ذلك كله في إطار من الوضوح التام؛ مما ساعد القوات على الاضطلاع بواجباتها وتنفيذ عملياتها دون خطإ، ودون اضطراب، وفي مناخ من الثقة الكاملة بالنصر.

٣- استراتيجية الحرب التشتيتية

كانت حروب العرب المسلمين نوعًا من الحروب الثورية - بمفهومها الحديث -، ويظهر أن طبيعة تلك الحروب قد ساعدت قادة العرب المسلمين على استخدام الأساليب الثورية المناسبة؛ للتكيف مع طبيعة الحرب، وضمان الاستجابة المناسبة في مجابهة التحدي المناسب، واستخدمت استراتيجية الحرب التشتيتية - وهي استراتيجية ثورية بالدرجة الأولى -؛ لمجابهة تفوق الروم، ولم تكن هذه الاستراتيجية هي الوحيدة التي استخدمها قادة العرب المسلمين؛ للمعاوضة عن نقاط الضعف لديهم؛ ولكنها بقيت من أبرز الاستراتيجيات المستخدمة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تميزت حروب العرب المسلمين بمجموعة من الخصائص التي وضعت تلك الحروب نموذجًا متقدمًا من «**حرب الحركة**»، ومن طبيعة هذه الحرب عدم الجمود أمام موقف معين، والابتعاد عن «**معارك المواقع الثابتة والتحصينات**»، والسعي لمقابلة قوات العدو في معارك تصادمية يغلب عليها طابع الهجوم من الحركة مع عدم استعداد مسبق أو مع استعداد يتم تحضيره على عجل، وَيَشْتَرِطُ هذا النوعُ من الحرب كفاءةً قياديةً عاليةً على مستوى العمليات وإدارة الحرب؛ كما يتطلب كفاءةً عاليةً من المقاتلين لتنفيذ الأساليب التعبوية «**التكتيكية**» المناسبة.

وتبرز سيرة «أبي عبيدة بن الجراح» وعمليات فتح الشام مجموعةً من الأساليب

والطرائق التي استخدمت لتطبيق استراتيجية «**الحرب التشتيتية**» بنجاح وفاعلية؛ ومنها:

١ـ التحرك على عدد من المحاور المتوازية أو المتلاقية؛ كالتحرك من قاعدة الحشد في المدينة المنورة والانطلاق إلى الشام نحو أهداف عديدة؛ مما أربك الروم، وحملهم على وضع خطة لمجابهة الجيوش الأربعة، وعادت هذه الجيوش للتجمع؛ مما أرغم قيادة الروم على تبديل مخططاتهم مرة أخرى لمجابهة الموقف الجديد، وغنمت جيوش المسلمين من ذلك مكسب فرض المعركة على العدو في الزمن والمكان المناسبين.

٢ـ التحرك على شكل مجموعات قتالية متتالية ـ على نحو ما حدث في موقعة مرج الروم ـ، والقضاء على قوات العدو بتجزئتها، والقضاء على كل مجموعة بشكل منفصل عن الأخرى، وحرمانها من تنسيق التعاون فيما بينها.

وظهرت ميزة هذه الاستراتيجية أيضًا عند حصار «**دمشق**»؛ حيث قامت مجموعة فرسان «ذي الكلاع الحميري» بإحباط كل محاولة لدعم حامية «**دمشق**» وحرمان قوات الروم من تنسيق التعاون فيما بينها.

٣ـ يمكن اعتبار «**إحباط هجوم الروم ضد حمص**» في عام (١٧هـ) نموذجًا رائعًا لأساليب الحرب التشتيتية؛ ففي هذه المعركة توجهت قوات المسلمين من مراكز بعيدة عن مسرح العمليات «**الكوفة**»، وانطلقت إلى منطقة غير منطقة العمليات التي أرادها العدو؛ فكان تحرك قوات الكوفة إلى «**الجزيرة**» عاملًا حاسمًا أرغم عرب الجزيرة على «التخلي عن دعم الروم» والعودة إلى مراكز قوتهم في الجزيرة للدفاع عنها؛ فخسر الروم بذلك الدعم الذي كانوا ينتظرونه ويتوقعونه؛ وبذلك أمكن القضاء على كل قوة بمعزل عن القوى الأخرى؛ فعمل «**أبو عبيدة**» ومعه «**جيش حمص**» على تدمير جيش الروم في حين اضطلع جيش العراق بأعمال إخضاع الجزيرة وفتحها؛ فحققت «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» أهدافها.

٤ـ دَفَعَ «**أبو عبيدة**» مجموعات قتالية أثناء فتح دمشق نحو اتجاهات مختلفة

لإخضاع المنطقة المحيطة بدمشق، وَفَعَلَ مثل ذلك أثناء حصار «**دمشق**»؛ حيث قاد «خالد بن الوليد» إحدى المجموعات ووصل بها حتى «**قنسرين**» و«**حاضر حلب**» علاوة على تلك المجموعات التي كانت تتحرك باستمرار في «**ريف حمص**»، وقد كان تنفيذ مثل هذه العمليات يشكل عِبئًا ثقيلًا على عاتق المسلمين؛ بسبب ضعفهم العددي، ولكن مقابل ذلك حَرَصَ المسلمون على رصيد معنوي ضخم أضيف إلى رصيدهم الأصلي، وأدى ذلك أيضًا إلى إحباط إرادة القتال عند الطرف المقابل الذي بات يخشى جيش المسلمين الضخم وشدة بأسه، وضمنت العمليات التشتيتية ـ علاوة على ذلك ـ أمن كتلة القوات الرئيسية، ووفرت لها ظروف العمل المناسبة بعيدًا عن كل خطر من تهديد «**المباغتة**»، ويظهر بوضوح أن «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» قد ساعدت على تحقيق عدد من مبادئ الحرب في وقت واحد.

٥ـ يمكن أيضًا اعتبار أسلوب المطاردة لتدمير قوات العدو أثناء انسحابها نوعًا من الحرب التشتيتية؛ فقد عمل «**أبو عبيدة**» بعد معركة «**حمص**» على توجيه مجموعات قتالية متتالية لمطاردة الروم حتى ما وراء الدروب، وتحركت هذه القوات على محاور متباعدة؛ وهذا ما دفع «**أبا عبيدة**» لتكوين مجموعات قتالية أخرى تسير على أثر المجموعات المتقدمة لها؛ بهدف دعمها إن هي جابهت مقاومة قوية، أو اصطدمت بمعارك غير متوقعة مع قوات للعدو متفرقة.

لقد استخدم بعض القادة العالميين «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» في القرن الثامن عشر[1] للمطاردة؛ كما استخدم قادة آخرون العمل على أكثر من محور، ولكن قادة

(١) استخدم هذه الاستراتيجية القائدُ الروسي (كوتوزوف Koutouzov ١٧٤٥ ـ ١٨١٣م) أثناء مطاردة جيوش نابليون بعد انسحابه من موسكو، وخلال مرحلة تراجعه نحو فرنسا. كما تُستخدم استراتيجية «الحرب التشتيتية» بصورة خاصة في الحروب الثورية؛ كوسيلة للتعادل مع قوى العدو المتفوقة، وهدفها الأول «ضرب العدو ضربات موجعة» مع المحافظة على قوات الصورة، وكانت هذه الاستراتيجية إحدى وسائل «الحرب الجزائرية ضد فرنسا» (١٩٥٦ ـ ١٩٦٣م)، والتي أرغمت قوات فرنسا في كثير من الأحيان لتوجيه ضرباتها نحو الفراغ.

العرب المسلمين - وفي طليعتهم أبو عبيدة بن الجراح - هم أول من استخدم هذه الاستراتيجية في الهجوم والدفاع وحتى أثناء حرب الحصار والمواقع، ولعلهم أيضًا في مقدمة من استخدم هذه الاستراتيجية في إطار التكامل مع «**العقيدة القتالية**»؛ بحيث كانت هذه الاستراتيجية وجهًا من وجوه عقيدتهم الغنية بالمبادئ والأسس.

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية هي استخدام هذه الاستراتيجية على مستوى السياسة الاستراتيجية للفتح، واستخدامها أيضًا على مستوى العمليات؛ فقد كان توجيه جيوش الفتح إلى الشام، وتحديد عدد من المحاور لتحركها إنما هو من عمل الخليفة «أبي بكر» رضي الله عنه وكذلك الأمر بالنسبة لإحباط هجوم الروم، وتوجيه القوات لفتح «**الجزيرة**» بحسب المخطط الذي وضعه أمير المؤمنين «**عمر**» رضي الله عنه.

وفي النموذجين المذكورين تم تخطيط «**الحرب التشتيتية**» على مستوى السياسة الاستراتيجية، في حين كان توجيه المجموعات القتالية أثناء حصار «**دمشق**»، وأثناء حصار «**حمص**»، وأثناء مطاردة قوات الروم بعد المعارك وتوجيه القوات إلى ما وراء الدروب، كل ذلك في إطار «**العمليات**» ومن تخطيط قائد مسرح العمليات «**أبي عبيدة بن الجراح**».

ويمكن اعتبار نجاح عمليات فتح الشام في قسم كبير منها؛ نتيجة للسياسة الاستراتيجية التي كان يطبقها «**أمير المؤمنين**».

كما يمكن إسناد قسم من النجاح للكفاءة العالية التي كان عليها جند المسلمين، ولكن ذلك كله لا ينتقص من كفاءة «**أبي عبيدة**» كقائد للعمليات، ولعل أكبر نجاح له هو في التنسيق بين أسس السياسة الاستراتيجية وبين إدارة الحرب على مستوى العمليات، والتوفيق باستمرار بين «**الهدف**» وبين «**القوى والوسائط المتوفرة**».

٤ـ استراتيجية الهجمات الوقائية:

وضع «**أبو عبيدة بن الجراح**» قاعدة «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» عندما نظم غزوات ما وراء الدروب؛ لإشغال الروم عن أنفسهم، وذلك بعد قيامهم بالهجوم

ضد «**حمص**»، وقد تحولت هذه الغزوات فيما بعد؛ فأصبحت رتيبة ودورية ومنتظمة، وبقي الهدف ثابتًا؛ وهو: «**عدم السماح للروم بتهديد أمن الثغور الإسلامية**»، ولقد تطور مفهوم «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» تطورًا كبيرًا، ولكن بقي الأساس الذي أرسى قاعدته «**أبو عبيدة**»؛ وهو:

١ـ تنظيم الثغور، وإقامة حاميات قوية على الحدود واجبها الأول تلقي الصدمة عند حدوث هجمات مباغتة، وإنذار قيادة جيش المسلمين، وتوفير الفرصة المناسبة أمام الجيش للدخول في المعركة.

٢ـ قيام حملات قوية ومنتظمة لغزو بلاد الروم، ونقل «**ويلات الحرب**» إلى بلاد الروم، وإبعادها عن بلاد المسلمين، وكانت حاميات الثغور تنضم إلى هذه الحملات، ثم تعود إلى قواعدها مع عودة الحملات ـ في الصوائف والشواتي.

لم تكن «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» في واقعها بعيدة عن العقيدة القتالية للمسلمين، فقد مارس الرسول ﷺ تطبيق هذه الاستراتيجية في حروبه؛ حيث كان ينتقل إلى مواقع أعدائه، أو يسير إليهم قبل أن يصلوا إليه وقبل أن يهاجموه في قاعدته، وطبق الخليفة الأول هذه الاستراتيجية ذاتها ضد المرتدين؛ فهاجمهم في قاعدتهم، وحرمهم من تنسيق التعاون فيما بينهم، وعندما تم فتح الشام، أخذت هذه الاستراتيجية ملامح متطورة في مجال التطبيق العملي وفي مجال قيادة العمليات، ويعود الفضل إلى «**أبي عبيدة**» في إحداث هذه التطورات التي أصبحت أساسًا لكل تطوير لاحق.

وتجد استراتيجيةُ الهجماتِ الوقائيةِ قاعدةً لها في عقيدة قتال المسلمين؛ فحروبُ المسلمين «**حربُ حركةٍ**» قبل كل شيء، وهي «**حربٌ هجوميةٌ**»، ورغم أن إشغال الروم عن أنفسهم هو عمل دفاعي، هدفه صرفهم عن التعرض للمسلمين، إلا أن العقيدة القتالية الإسلامية قد جعلت «**الحرب الهجومية**» وسيلتها لتحقيق «**الهدف الدفاعي**»، وجاءت استراتيجية الهجمات الوقائية ترجمة واقعية وعملية لهذا

المضمون؛ لقد كان من المحال على «**أبي عبيدة**» تجميد قوات كبيرة للبقاء في الثغور «**كحاميات دفاعية في مواقع ثابتة**»؛ كما أن مثل هذا الإجراء يتنافى وعقيدة القتال الإسلامية ـ الهجومية ـ، وكان من المحال أيضًا منح الثقة لأعداء المسلمين والاعتماد على نواياهم السليمة لو ظهرت مثل هذه النوايا، وكان المخرج الوحيد هو «**تنظيم حرب هجومية**» بصورة دائمة، ولكن كان من المحال أيضًا البقاء في مواقع الهجوم على جبهة واحدة، في حين كانت الأعمال القتالية الناجحة على الجبهات الأخرى تتطلب تركيز الجهد لتعزيز تلك النجاحات دائمًا، ولم يبق من مخرج إلا التناوب بين الهجوم والدفاع على جبهة الروم بقدر ما يتوفر من «**القوى والوسائط**»، ونجحت «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» في إيجاد المخرج من هذا المأزق على حدود بلاد المسلمين مع «**الروم**».

وتظهر عبقرية «**أبي عبيدة**» القيادية مرة أخرى من خلال التوفيق بين «**الهدف**» وبين «**القوى والوسائط المتوفرة**»، وقد يكون من الطبيعي لقائد أن يكلل هاماته بأكاليل الغار عندما يتصرف بقوى كبيرة وبوسائط جبارة لتحقيق «**هدف محدود**»، ولكن الكفاءة القيادية الحقيقية ـ بالنسبة لقائد العمليات ـ هي في «**تحقيق الهدف**» بالقوى والوسائط المتوافرة، ويتعاظم دور الكفاءة القيادية عندما تكون تلك القوى والوسائط هي أقل من حجم الواجبات المفروضة على قائد العمليات.

ويعرف «**تاريخ الحرب**» مجموعات كبيرة من القادة الذين حققوا نجاحاتهم الرائعة بفضل ما توفر لهم من قوى ووسائط، ولكنهم قلة، أولئك الذين بلغوا أهدافهم بوسائط وقوى محدودة، وكان «**أبو عبيدة**» واحدًا من قادة التاريخ الذين كانت انتصاراتهم أكبر بكثير من حجم قواهم ووسائطهم.

❑ المبادئ العسكرية التي طبقها القائد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

١ ـ المباغتة:

يُعَدُّ مبدأ المباغتة وتطبيقه في طليعة المبادئ العسكرية التي طبقها أبو عبيدة في

حروبه؛ وسنضرب على ذلك مثالين:

الأول: في فتح حمص:

تظاهر أبو عبيدة بالانسحاب من حمص وسمح للروم بمطاردته وقدَّم شيئًا من الغنائم؛ وذلك لاجتذابهم وإخراجهم من حصونهم، ثم باغتهم بالانقضاض عليهم.

وقد كان وقع هذه المباغتة مُذهلاً؛ حيث أدى إلى نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر[1].

الثاني: في فتح اللاذقية: وقد سبق ذكره.

٢ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية:

وهذا يعني: وضع العدو أمام مواقف متجددة، يصعب عليه مجابهتها؛ مما يجعله يقتنع بعجزه عن متابعة الصراع.

لقد كان العائق الأكبر أمام تقدم المسلمين التحصينات الدفاعية؛ فكان الحصار الذي ربما طال مما يفقد المسلمين قدرتهم الحركية العالية وقوتهم الهجومية؛ لذلك عمل أبو عبيدة على:

أ ـ إرغام العدو على مغادرة تحصيناته والدخول معه في مواجهة تكون فيها المبادأة في قبضته، ويتم فيها استخدام القوة الهجومية للمسلمين:

ومن الأمثلة على ذلك: معركة فحْل[2]، وبعلبك[3]، واللاذقية.

ب ـ استخدام القوة الهجومية في أعماق التوغل العميق في أثناء عمليات الحصار:

ومثال ذلك: أن قوات «**ذي الكلاع الحميري**» وصلت أثناء حصار دمشق إلى

---

(١) فتوح الشام، للواقدي (٦٤/١)، وتاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١٤٦)، وأبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١١٠ ـ ١١٢).

(٢) **انظر**: البداية والنهاية (١٩/٧)، وتاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١١١، ١١٢).

(٣) تاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١١٠).

حدود مدينة حمص[١].

ج ـ المطاردة البعيدة لفلول الروم؛ حتى لا تتمكن تلك القوات من إعادة تجمعها:

ومن الأمثلة على ذلك: ما سلكه أبو عبيدة في معركة مرج الروم[٢].

٣ـ مبدأ أمن العمل:

عرف المسلمون منذ وقت مبكر مبدأ «**أمن العمل**»، وطبَّقوه في حروبهم بهدف عدم توريط قوات المسلمين في مأزق يعرضها للخطر.

ولقد طبق القائد أبو عبيدة هذا المبدأ واتخذ التدابير الواقية الآتية لتطبيق هذا المبدأ:

أ ـ الاستطلاع المستمر لقوات العدو:

وذلك باتخاذ الجواسيس والعيون ودوريات الاستطلاع واستجواب الأسرى ومعلومات الأنصار.

ب ـ اتخاذ تدابير الحيطة والحذر:

فقد كان أبو عبيدة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، وقد حاول الروم عدة مرات مباغتة قوات المسلمين في بلاد الشام التي كان أمر فتحها مسندًا إلى أبي عبيدة؛ مثل: «**دمشق، وفحل، ومرج الروم، وحمص**»، ولكن الروم لم يستطيعوا النيل من المسلمين؛ وذلك لأن عناصر الرصد والإنذار ودوريات الاستطلاع التي كانت تعتمد على الفرسان «الخيالة» كانت متيقظة دائمًا، وكانت تزيد من يقظتها بالليل، وفي الأحوال الجوية غير العادية.

كما أن هناك قوةً جاهزةً تُسمى «**الرِّدء**»[٣]، واجبها مجابهة قوات العدو وإشغالها ريثما تستعد القوات الرئيسية لدخول الميدان.

---

(١) الكامل، لابن الأثير (٢/٤٩٠، ٤٩١).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٥٩٨، ٥٩٩)، والكامل، لابن الأثير (٢/٤٩٠)، وأبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١٢٦ ـ ١٢٩).

(٣) في المصطلح العسكري: القوة الاحتياطية. والردء ـ في اللغة ـ: العون والناصر.

وبهذا الأسلوب أحبطت كل محاولة استهدفت غرة قوات المسلمين.

د ـ عزل ميدان المعركة عن أي تدخل خارجي:

وذلك بإيجاد مفارز من الفرسان؛ مثال ذلك: المفرزة التي شُكِّلَتْ بقيادة خالد بن الوليد في أثناء حصار حمص، ويبلغ عدد أفرادها أربع مئة فارس؛ وذلك بقصد عزل ميدان العمليات الحربية عن أي تدخل خارجي غير متوقع[١].

وبهذه الوسائل جميعها كان أبو عبيدة يُحْدِثُ موقفًا لا يتوقعه العدو؛ فتنهار إرادة الصراع لديه، وينتصر جيش المسلمين دون أن يتكبد خسائر فادحة[٢].

المبدأ الرابع: وحدة القيادة:

وما قول أبي عبيدة لعمرو بن العاص حينما قدم عليه مددًا له: «. . . إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نَتَطَاوَعُ؛ فأنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو» إلا تطبيقًا لهذا المبدإ.

المبدأ الخامس: المحافظة على الهدف:

ومن الأمثلة على ذلك: أن أبا عبيدة رضي الله عنه عندما أراد فتح الشام بدأ بفتح المحور الداخلي الذي يشمل: «**بعلبك ـ حمص ـ قنسرين ـ حلب**» مرورًا ببقية المراكز، وقد اتخذ من حمص مقرًّا لقيادته؛ بحيث يستطيع توجيه قواته منها نحو كل اتجاه يتعرض للتهديد.

فلما أكمل المحور الداخلي، انطلق إلى المحور الساحلي «**أنطاكية ـ اللاذقية ـ جبلة ـ طرسوس**»، وكانت خطة الفتح واضحة في ذهن أبي عبيدة؛ بحيث لم يتم الانتقال من المنطقة الداخلية إلى المنطقة الساحلية إلا بعد تكوين قاعدة قوية وصلبة في الداخل؛ وبهذا يكون أمين الأمة قد حقق الهدف، وحافظ عليه في وقت واحد.

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح، لبسّام العسلي ص (١١٥ ـ ١١٨).
(٢) المصدر السابق ص (١١٧ ـ ١٢٠).

ومما يدل على أهمية هذه القاعدة تركيز الروم هجومهم المضاد على حمص؛ لأنه لو تم لهم ذلك لانهارت المنطقة الساحلية بسهولة.

فعمليات الفتوح التي قام بها هذا القائد المظفر لم تكن عمليات مرتجلة؛ وإنما كانت تخضع لتخطيط دقيق ومحكم، يحدد الهدف ويضع كل ما هو ضروري من وسائل ممكنة للمحافظة عليه[1].

المبدأ السادس: الاقتصاد في القوى:

طَبَّقَ أبو عبيدة هذا المبدأ، وَقَصْدُهُ بذلك التعويض المادي والبشري مما كانت تعاني منه قوات المسلمين، واعتمد في ذلك على مجموعة من الأسس؛ منها:

أولًا: الوصول إلى الهدف من الحرب عن طريق عقد اتفاقات؛ من أجل تحقيق السلم؛ مثال ذلك: صلح أذرع والجزيرة.

ثانيًا: تنفيذ العمليات الحربية في جَوٍّ من التشتيت، يصعب منه على قوات العدو تطوير أساليبها القتالية في أي جبهة من الجبهات.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث في بلاد الشام؛ فحيث كان شرحبيل بن حسنة يجاهد وينازل الروم في الأردن، كان عمرو بن العاص يعمل على تصفية جيوب المقاومة بفلسطين، بينما كان معاوية بن أبي سفيان يحرر بقية جيوب المعارضة في ساحل الشام.

ثالثًا: إظهار التصميم لبلوغ هدف الحرب؛ فقد ظن الروم في الشام أن طول الحصار يرغم المسلمين على الانصراف، كما كان أهل حمص يأملون أن تكون برودة الجو وقوة المقاومة سببين في إرغام جند المسلمين على الانسحاب، واقتنع الروم بعدم جدوى مقاومة المسلمين؛ فكانت سرعة النصر.

قال اللواء محمود شيت خطاب: «كان أبو عبيدة في أعماله الحربية يطبق مبدأ

---

(١) المصدر السابق ص (١٣٤ - ١٣٧).

«**المباغتة**»؛ كما فعل في معركة «**اللاذقية**»، ويعمل على «**اختيار مقصده وإدامته**»، وبذل أقصى جهده لإكمال «تحشيد قواته» قبل المعركة، ولكنه كان «**يقتصد بالمجهود**»، ولا يسرف في استخدام قطعات كبيرة دون مبرر، وكان يحرص على استكمال متطلبات «الأمن» لقطعاته؛ حتى تستطيع العمل بمرونة وتعاون، كما كان يديم معنويات رجاله، ويؤمن لها كافة الأمور الإدارية»[١].

❑ تمني الأمين أبي عبيدة للشهادة وموته بالطاعون . وهو شهادة بعمواس سنة «١٨ هـ».

ما كان أمين الأمة يكترث بمتاع الدنيا من مال؛ وإنما ينفقه كله في سبيل الله؛ فقد أرسل عمرُ بنُ الخطابِ إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربع مئة دينار، وقال لرسوله: «**انظر ما يصنع؟!**»، فقسمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُهُ بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «**الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا**»[٢].

وَفَذٌّ كهذا يشتاق للشهادة ويحرص عليها؛ فقد كان مُعَافًى وأهله من الطاعون؛ فقال: «**اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة**»؛ فخرجت في خنصره بثرة؛ فجعل ينظر إليها؛ فقيل له: إنها ليست بشيء. فقال: «**إني لأرجو أن يبارك الله فيها؛ فإنه إذا بارك في القليل كان كثيرًا**»[٣].

روى الطبري عن الحارث بن عمير قال: «أخذ بيدي معاذ بن جبل، فأرسلني إلى أبي عبيدة، فسأله: كيف هو، وقد طُعِنَّا؟! فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفِّه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله، ما يُحبُّ أنَّ له مكانها حُمْرَ النَّعَمِ»[٤].

---

(١) قادة فتح الشام ومصر ص (٨٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٤١٣/٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/١).

وروى الطبري بإسناده: لما اشتعل الوجع ـ الطاعون ـ، قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا، فقال: يأيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل اللَّه أن يقسم له منه حظه. فطعن؛ فمات.

وكان للأمين ما تمنى؛ فقد مات بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة للهجرة «٦٣٩م»، ورزقه اللَّه بالطاعون شهادة جزاء ما قدَّمَ لدينه ولأمته.

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

❑ **هذه صفحة من أمجادنا جاءت على يد أمين الأمة المغوار في صلحه مع أهل دمشق:**

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها، وأرض الشام من الأعاجم، إنك حين قدمت إلى بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا؛ وَإنَّا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا نُحْدِثَ في مدينة «**دمشق**» ولا فيما حولها كنيسةً ولا ديرًا ولا قلامة ولا صومعة راهب، ولا نُجَدِّدَ ما خرب من كنائسنا ولا شيئًا منها مما كان في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم على من غَشَّ المسلمين، وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا، ولا نُظْهِر الصليب عليها، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا، ولا نُخْرِجَ صليبنا ولا كتابنا، ولا نُخْرِج باعوثًا ولا سعانين، ولا نرفع أصواتنا بموتانا، ولا نُظْهِر النيران معهم في أسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير، ولا نبيع الخمور، ولا نُظْهِر شركًا في نادي المسلمين، ولا نُرَغِّب مسلمًا في ديننا، ولا ندعو إليه أحدًا، وعلى أن لا نَتَّخِذَ شيئًا من الرقيق الذين جَرَتْ عليهم سهام المسلمين، ولا نمنع أحدًا من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نَلْزَمَ ديننا حيث كنا، ولا نتشبه

بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتسمَّى بأسمائهم، وأن نَجُزَّ مقادم رءوسنا، ونفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا ننقش في خواتيمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نُعَلِّم أولادنا القرآن، ولا نشارك أحدًا من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة، وأن نُضَيِّفَ كلَّ مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، ونطعمه فيها ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلمًا، ومن ضرب مسلمًا فقد خلع عهده، ضمنا ذلك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا، وإن نحن غَيَّرْنَا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا وقد حَلَّ لك منا ما حَلَّ من أهل المعاندة والشقاق، على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا فأقرُّونا في بلادنا التي أورثكم اللَّه إياها، شهد اللَّه على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيدًا»[(١)].

لله درك من أمين يا أبا عبيدة، أين أنت ممن يطلبون قمامة الإفرنج وفضلاتهم؟!

يرمرم من فتات الكفر قوتًا ... ويلعق من كئوسهم الثمالة
يقبل راحة الإفرنج دومًا ... ويلثم دونما خجل نعاله

عزة صحيحة كانت عند صحابة رسول اللَّه المجاهدين في الشام وقائدهم أبي عبيدة، حقيقة استقرت في قلوبهم؛ فاستعلوا بها على أسباب الذلة لغير اللَّه .. استعلوا بها على شهواتهم ورغائبهم القاهرة، ومخاوفهم ومطامعهم، استعلوا بها على القيد والذل .. فالعزة لله جميعًا.. ويأتي تكريم الكريم الجواد لعبادة المؤمنين المعتصمين بحبله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يضم اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ رسوله والمؤمنين إلى جنابه الكريم، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا اللَّه .. وأي تكريم فوق هذا التكريم .. ها نحن أولاء .. هذا لواء الأعزاء .. وهذا هو الصف

---

(١) تهذيب ابن عساكر (١/١٤٩، ١٥٠).

العزيز.

وصدق الله؛ فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته - تَعَالَى -، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا رسخ الإيمان واستقر؛ فالعزة معه راسخة مستقرة.

وأنى للبعيدين عن منهج اللَّه أن يتذوقوا هذه العزة وقد فقدوا صلتهم بمصدرها الأصيل؟!

ورضي اللَّه عن الفاروق حين قال: «**نحن قوم أعزنا اللَّه بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله**» ... والواقع خير شاهد.

وَقْفَةٌ كُلُّهَا عِبَرٌ وَعَبَرَاتٌ

«كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ثم عاد مخلفًا سوريًا ظاعنًا في أرض الروم، التفت إلى سورية، وقال: «**عليك السَّلام يا سورية، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد**».

أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف؛ فما خرج من «**شمشاط**» وحاذى سورية، وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال: «**قد كنتُ سلمتُ عليك تسليم المسافر، أما اليوم، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشئوم، وليته لم يولد، عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو**»[1].

ومسك الختام فلسطين «**إيلياء**» بيت المقدس، حاصرها حتى طلب أهلُهَا من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْحِ

(١) سقوط دمشق، لأحمد عادل كمال ص (٥٢١)، والطبري (٦٠٣/٣)، والبلاذري ص (١٦٢)، والأزدي (٢٣٤).

عمر بن الخطاب؛ فَكَتَبَ أبو عبيدة إلى عمر بذلك؛ فقدم عمر وفتح بيت المقدس.

تُرَى ماذا يقول أبو عبيدة؟!

لَكَأَنِّي به ينادي من وراء الغيب:

هَلْ فَتَحْنَا فلسطين ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود؟!

واحسرتاه .. واأسفاه!!.

مات القويُّ الأمين...

مات فوق الأرض التي طهرها من الروم...

وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيسين والنواقيس...

وقهر الرومَ وما أدراك ما الروم حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ...

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن مثوى رُفَاتٍ نبيلٍ، كان مُسْتَقَرًّا لِرُوح خَيِّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ.

أما في واقعنا فَسَلْ ملوكَ الهرولة إلى التطبيع، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب: «**لا أهرول بل أركض ركضًا**»، قالها الملك الذي كان يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين.

❑ **قصيدة «في موقف العشق يا قدس»**

سافرتُ فِيكِ وَلَمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ

سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبي

يُقاومُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ

نَصَبُوا الحَوَاجِزَ في طَرِيقِ العِشْقِ

واسْتَدْعُوا الحَفَرْ

حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلافَ الحُفَرْ

وَتَصَيَّدُوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تَرَاجَعَ أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ كَفَرْ
يا عِشْقَ قَلْبِي مُنْذُ مَا قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ مَا بَعْدَ الذي
لا قَبلَ قَبلَكِ حَيثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَمَا
أنتِ العَشِيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والْوَتْر
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
تَسْجنُ فَجْرِيَ الآتيَ وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللَّاتِ والعُزَّى
لِيَبْرُقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَناجِرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشَرَّعَاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيل
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ

بل يَطْويهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحملُني وَيُسلِمُني لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأنَا بِهذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ فِي لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المرَصَّعِ بِالضِّياءِ وبالسَّناء وَبِالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَم يَزَلْ يَحْلُو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَم يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافِي
وَسَيَّافِي
وَجَلَّادِي الأشِرْ
العِشْقُ أَشْرِعَتِي وَصَوْمَعَتِي
وَنَاقُوسُ الخَطَرْ
دُقِّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ
لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي
فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ
ظَهْري تَخَلَّى بَاعَنِي
هذي ضُلوعِي
تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ
وَتَذُودُ عَنْكِ الريحَ والإعْصَارَ
في لَيلٍ تَدَثَّرَ بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَوَرْ

هَذِي ضُلُوعِي تَلْطِمُ الموْجَ المُعَرْبِدَ
في بِحارِ الجُبْنِ والتَّدلِيسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ
هَذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ
حَتَّى يَنْتَصِرْ
سَافَرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْلِ آلافِ القُرُونْ
سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرُونْ
قَد كُنتُ في الأولى بحَشْدٍ مِنْ ذَرَارِي
عاهَدتُ عَهْدَ الحَنِينْ
عهدًا بلا شَكٍّ يَمُورُ ولا ظُنُونْ
عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنتِ أنتِ... وأنتِ كُنْتِ لكي نَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ الْقَيْدِ
نَفْسَ النَّفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنُونْ
فَحَمَلتُ دربي فوقَ كَتِفي

وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسُّنُونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصَنَّفٌ بَعْضَ الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ... هو النعيمُ المُنتظرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ
قَدَرِي المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابِرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصَابِرْ
لَستُ المُغَامِرَ إنَّمَا عِشْقِي على دَرْبِي يُعَلِّمُني وَيُلْهِمُني
وَينْبتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحَاصَرُ في الشعابِ وفي المَوانئ والمغَاوِرْ
عِشْقِي المُقَيَّدُ في السطورِ وفي الصُدور وفي الحَنَاجِرْ
عِشْقِي المُكَبَّلُ يُرْعِبُ السَّيَّافَ
والهَتَّافَ
والشَّبَقَ المُقَامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَوْمًا
ولا القَمَرُ المُثَابِرْ
وسُراقةُ المَخدوعُ لَنْ يُثني جِمَالِي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ

جَاءَتْكِ فَوقَ خُيولِهِمْ

جَاءَتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ

جَاءَتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ

جَاءَتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجِزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخَطَرْ

سَافَرْتُ فِيكِ ولمْ يَزَلْ يَحْلُو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ

سَفَرِي يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ

سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ

سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ

لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ

لا فَرْعَ أُمِّكِ هَابِطٌ

لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبَنْ

يا عِطْرَ كُلِّ الأَنْبِياءِ المُخْلِصِينْ

يَا زَهْرَ كُلِّ الأَولياءِ المتَّقِينْ

مَنْ قَالَ إِسْمُكِ مُمْتَهَنْ

مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ

هذا حَدِيثُ الإِفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ

لِتَشْتَعِلَ الفِتَنْ

قِدِّيسَةُ الآبَاءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ

والفَرْعِ الحَسَنْ
قِدِّيسَةُ التُّرْبِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِدِّيسَةُ الرُّؤيا الجلِيلَةِ والأَمَانِي والصُّورْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلُو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأنَا رَفِيقُ رِكَابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفي الجنوب
وفِي البَوَادِي والحَضَرْ
وَفَوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقَاصٍ وَخَالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإِعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشُّرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظِيم تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتِي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعَكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ
أوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التَّتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْرِي
وَمُهْرِي فَوْقَ سَاحِكِ لا يُبالي

بالجنودِ وبالقرودِ وبالذئاب وبالحُمُرْ

هذَا يمِيني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعَهدًا

لَنْ يُزَعْزِعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ

سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنا

ينمو على لهبِ الطهارةِ والغضبْ

ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ

ولستِ زانيَةَ العَربْ

إِني أُعِيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ

فَكُنْتِ جَوْهَرةَ الزَّمان المُرتَقَبْ

إِني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ

تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ

إني أُعِيذُكِ أن تَهُزِّي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ

لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ

هَذِي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقْربيها

وارقُبيها عَنْ كَثَبْ

فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِلِّ العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ

فإلى مَتى؟!

تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى؟!

لا تَسأليني فَالعَسى

نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابَل قَابَ قوسٍ واقتربْ

فَلْتُرضِعيهِ مِن الشرايينِ التي

لَمْ تَأكل الثَّمَرَ المُحَرَّمَ

لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ

فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ

ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطَبْ

فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ

ولم تُدَنْ للمستبدِّ أبي لَهَبْ

فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي

لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرَابِ

وَلَمْ تُلَقَّنْ مِن مُسَيْلَمَةَ الكَذِبْ

فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي

لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي

ذَبَحَ الحسينَ

وَلَمْ تَنَم في صَدْرِهَا

نَارُ الجراحِ العاصفات ولا الغَضَبْ

فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ

لِبني قُريظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا

أو أهل يَثْرِبَ أو صَباحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسأليني فالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقترِبْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هَذِي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السَّفَر[1].

---

(١) قصيدة «في موقف العشق»، لسعيد المزين (٣٠ يناير ١٩٨٦) المنشورة بمجلة «ديوان القدس» «العدد الثاني رجب ١٤٠٦هـ - مارس ١٩٨٦م» ص (٥٨ - ٦١).

١٣

فارس الإسلام.. الأمير أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص

خال رسول الله ﷺ

فارس الإسلام[١].. الأمير أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص

خال رسول الله ﷺ

بطل القادسية، وفاتح المدائن، والعراق والجزيرة، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد:

سعدُ بنُ مَالك لَيثٌ في براثِنِهِ   قَدْ قَالَ عمرُ: إِنَّه الليثُ غَادِيًا.

عن جابر قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، فأقبل سعد بن أبي وقاص، فقال النبي ﷺ: «**هذا خالي، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه**»[٢].

وهو أول من أراق دمًا في الإِسلام؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْي جملٍ؛ فشجَّه.

وهو البطل، أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله.

قال سعد رضي الله عنه : إني لأول العرب رَمَى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني على الإِسلام، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي. وكانوا وَشَوْا به إلى عمر، قالوا: لا يُحسن يصلي[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (عهد معاوية رضي الله عنه) ص (٢١٣، ٢١٤).

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٨/٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي (٣٧٥٢) عن جابر مرفوعًا، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٩٧/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٨)، ومسلم (٢٩٦٦)، وابن ماجه (١٣١)، والترمذي (٢٣٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي ببعضه في «الفضائل» (١١٤)، وأخرجه أحمد (١/ ١٧٤، ١٨١، ١٨٦)، وأبو يعلى (٨٢/٢، ٩٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٧، ١٣١٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٩٩/١/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٢/١).

قال سعد:

ألا أبلغ رسولَ اللهِ أَني ... حَمَيْتُ صَحابتِي بصدور نُبلي

أَذودُ بها عدوَّهمُ ذيادًا ... بكلِّ حزونة وبكلِّ سهلِ

فَمَا يُعتد رامٍ مِن معدٍ ... بسهْمٍ يا رسول اللَّه قَبلي[1]

وعن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص ﵁ يقول: «**ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام**»[2].

وفي مضمار الأوائل يسجل اسمه بأحرف من نور بأنه أول من أراق دمًا في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ[3].

كان أصحاب النبي ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى شعاب مكة المكرمة بعيدًا عن الأنظار فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلًا من المشركين بلحي[4] جمل فشجَّه، فكان هذا أول دم أُهريق في الإسلام[5].

❑ جهاده في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ:

عندما ابتدأ الجهاد في الإسلام، كان سعد من الذين بذلوا أقصى جهودهم في ميادين القتال، جنديًّا تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وتحت لواء أمراء بعوثه تارة،

---

(١) الإصابة (٣/٨٥)، والاستيعاب (٢/٦٠٧). والحزونة: هي الْوَعِرُ مِنَ الأرضِ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٧)، وابن ماجه (١٣٢)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٩٢).

قال الحافظ في «الفتح» (٧/٨٤): قال ذلك بحسب اطلاعه؛ والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يُخْفِي إسلامه.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/٢١٣)، والأوائل، للعسكري ص (١٤٧).

(٤) اللحم: هو العظم على الخد، وهو في الإنسان: العظم الذي تنبت عليه اللحية.

(٥) سيرة ابن هشام (١/٢٧٥)، وأسْد الغابة (٢/٢٩١)، وجوامع السيرة، لابن حزم ص (٥١).

وقائدًا لبعض السرايا تارة أخرى.

❑ في سرية عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، أول من رمى بسهم في سبيل الله:

في شوال من السنة الأولى الهجرية، عقد الرسول ﷺ القائدُ أول راية لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب في ستين من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وأمر بالمسير إلى بطن «**رابغ**»، فبلغ «**ثنية المرة**» وهي بناحية «**الجُحفة**» فالتقوا بالمشركين الذين كانوا بقيادة أبي سفيان بن حرب في مئتين من قريش[١] فلم يكن قتال بينهم، إلا أن سعدا رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي، فلم يكن قتال بينهم، إلا أن سعدًا رمى يومئذ بسهم في سبيل الله...» وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ.

❑ سرية سعد بن أبي وقاص إلى «الخَرَّار» في ذي القعدة من السنة الأولى:

عقد الرسول ﷺ راية لسعد، فخرج إلى «**الخرار**»؛ لتهديد القافلة التجارية بين مكة والشام بإمرته عشرون رجلًا من المهاجرين؛ للحاق بقافلة تحمل تجارة قريش.

قال سعد: «**كنا نكمن بالنهار ونسير بالليل حتى صبحنا «الخزار»** صبح خامسة، وكان رسول اللّٰه ﷺ قد عهد إليَّ ألا أجاوز «**الخرّاز**»، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم، وكانوا ستين»[٢].

وشارك سعد بسرية عبداللّٰه بن جحش.

وقبل نشوب معركة بدر بعث الرسول سعد بن أبي وقاص - في مهمة استطلاعية - إلى ماء بدر مع علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فأسروا غلامين لقريش. وعندما استنطقهما النبي ﷺ علم منهما أن قريشًا وراء الكثيب

---

(١) الطبري (٢/١٥٢)، وطبقات ابن سعد (٣/٥١).

(٢) الطبري (٢/١٢٠)، وطبقات ابن سعد (٢/٧)، وقد ذكر ابن هشام في «سيرته» (٢/٢٣٨) أن عدد رجال سعد ثمانية فقط.

بالعدوة القصوى، كما استنبط من استنطاقهما أن قوة قريش بين التسع مئة والألف، كما عرف منهما أن أشراف قريش جميعًا خرجوا لمنعه.

❑ في بدر سعد بن أبي وقاص يقاتل قتال المغاوير:

قاتل سعد بن أبي وقاص قتال الأبطال، وقتل حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، واشترك في قتل نبيه بن الحجاج، هو وحمزة بن عبدالمطلب، وأسر أسيرين من المشركين.

قال عبدالله بن مسعود: لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرجال(١).

❑ وفي أُحُد لله در سعد، وما أجمل ما حاز سعد من الفضائل التي لا تقوم لها الدنيا:

عن سعيد بن المسيب قال: «سمعت سعدًا يقول: جمع لي النبي ﷺ أبويْه يوم أُحُد»(٢).

وعند البخاري: قال سعد بن أبي وقاص: «**نثل لي النبي**ﷺ كنانته يوم أحد فقال: ارم فداك أبي وأمي»(٣).

ويا سعدُ لا ترفقْ بقوسك وارْمِها سِهَامًا أصابت من يد الله باريًا

وعن سعد أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه، قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «**ارم فداك أبي وأمِّي**» فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل، فأصبت جبهته، فوقع وانكشفتْ عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١/١٠٠).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٦)، ومسلم (٢٤١٢)، والترمذي (٢٨٣٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٩٥، ١٩٦)، وابن ماجه (١٣٠)، والطيالسي (٢٢٠)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢١٩٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/١٠٠).

(٣) حديث رقم (٤٠٥٥).

نواجذه[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **«ما سمعت النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - جمع أبويه لأحدٍ إلا لسعد بن مالك فإني سمعته يقول يوم أحد: يا سعد ارم فداك أبي وأمي»**[٢].

فداك أبي وأمي سعد في يوم **«تقذف المشركين فيه بألف سهم»**[٣].

❑ لله دَرُّه من رامٍ خال رسول اللَّه ﷺ:

لما رفع أبو سعيد بن أبي طلحة اللواء بعد مقتل أخويْه طلحة وأبي شيبة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم، فأصاب حنجرته فأدلع لسانه، ومات لحينه، فسقط لواء مكة من يده[٤].

وكتب محمد أحمد بشاميل تحت عنوان «دور الرماة في الدفاع عن النبي ﷺ» ما يلي: «كان لرماة من الصحابة أبلغُ الأثر في صد المشركين والدفاع عن النبي ﷺ، وكان الرسول ﷺ راميًا فقد رمى عن قوسة **«ساعة تكاثر المشركين»** حتى تقطع وتر القوس وتحطمت شظاياه من كثرة الرمي.

وكان من الرماة الذين اشتهروا بالاستماتة في الدفاع عن رسول اللَّه ﷺ في تلك

---

(١) أخرجه مسلم، والطبراني في «الكبير».

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٨٤/٧): «وفي هذا الحصر نَظَرٌ؛ لِمَا تَقَدَّمَ في ترجمة الزبير أنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - جَمَعَ له بين أبويه يوم الخندق، وَيُجْمَعُ بينهما بأن عليًا رضي الله عنه لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أحد. والله أعلم».

(٣) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ومسلم (٢٤١١)، والترمذي (٣٧٥٥)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (١١٢٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٩٢)، وأحمد (٩٢/١، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٧)، وأبو يعلى (٣٣٤/١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٤، ١٣١٤)، وابن سعد في «الطبقات» (١٠٠/١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢١٩٤).

(٤) أُحُد، لمحمد أحمد باشميل ص (١٣٨).

(٥) موسوعة الغزوات الكبرى «أُحُد»، لباشميل ص (١٠٢).

الساعة العصيبة من المعركة، والذين كان لنبالهم الحادة الصائبة أبلغُ الأثر في حماية الرسول ﷺ من أذى المشركين، أبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ....

أما سعد بن أبي وقاص - وهو أيضًا من الرماة المشهورين -، فقد ثبت مع رسول اللَّه ﷺ ساعة انهزام الناس عنه، وكان من الرماة الخلصاء الأبطال الذين ساهموا بنبالهم الحادة في إحباط المحاولات العنيدة التي قام بها المشركون (بعد الانتكاسة) للقضاء على نبي الإسلام ﷺ.

فقد وقف سعد ساعات البلاء المتلاحق، وهي الساعات الدقيقة التي تعرَّضت فيها الذات النبوية لهجمات القرشيين العارمة، وقف سعد الباسل بين يدي رسول اللَّه ﷺ يُدافع عنه، وكان له في ذلك المقام المحمود أكبر الأثر في إبعادهم عن رسول اللَّه ﷺ، فقد قذف المشركين (في تلك الساعات العصيبة) بألف سهم.

وسعد بن أبي وقاص هو الرجل الوحيد الذي قال له الرسول ﷺ: «**فداك أبي وأمي**»[١]؛ وذلك لِمَا رأى من بطولته وشجاعته واستبساله وبراعته في إصابة الهدف.

فشكر اللَّه لفارس الإسلام سعد رضي الله عنه ما قدم من مواقف وضيئة تبقى نبراسًا للسالكين.

فقد كان لدفاعه المستميت مع قسم من الصحابة عن حياة الرسول ﷺ الغالية أثرٌ على تحطيم هجوم قريش الشديد الذي كان يستهدف حياة النبي ﷺ.

❑ حرص سعد بن أبي وقاص على حياة الرسول ﷺ غاية الحرص:

عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «**كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - سَهِرَ، فلما قدِم المدينة قال: «ليت رجلًا من أصحابي صالحًا يحرسني الليلة»**، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: «**من هذا؟**» فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، فنام النبي -

---

(١) سبق الردُّ على هذا الكلام.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ»[١].

وفي رواية لمسلم: «**فقال له رسول اللَّه ﷺ** «**ما جاء بك؟**» قال: وقع في نفسي خوف على رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فجئت أحرسه، فدعا له رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ ثم نام».

☐ سعد رضي الله عنه يوصي بثلث ماله في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ:

مرض سعد بمكة المكرمة ـ بعد فتحها ـ، فخلفه رسول اللَّه فيها مريضًا حين خرج إلى «حنين»، فلما قدم من «**الجعرانة**» معتمرًا دخل على سعد يعوده، فقال سعد: «**يا رسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال:** «**لا**». فقال: فالشطر؟ قال: «**لا**». فقال: الثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أُجرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك»[٢].

وعند مسلم في رواية أخرى:

«**الثلث والثلث كثير، إن صَدَقَتك من مالك صدقة، وإن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك إن تدع أهلك بخير خير من أن تدعهم يتكففون الناس**»[٣].

وكان لسعد حينذاك مال كثير، أوصى بثلثه في سبيل الله[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد (١٤٠/٦، ١٤١)، وأبو يعلى (٢٦٨/٨، ٢٦٩)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤١١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٢٠١)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١١٣).

(٢) أخرجه مالك، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة عن سعد.

(٣) أخرجه مسلم عن سعد.

(٤) طبقات ابن سعد (١٤٤/٣).

❑ فارس الإسلام، مستجاب الدعوة:

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: سمعت سعدًا يقول: «**قال رسول الله** ﷺ: «**اللهم استجب له إذا دعاك**»»[١] يعني: سعدًا.

❑ سعد الفاتح

لما تجهز الفُرسُ لقتال العرب، قال عمر بن الخطاب: «**واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب**»، وكتب عمر إلى عماله: «**لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إليَّ، والعَجلَ العَجلَ**»[٢].

وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش، فصرفه عن ذلك أهل مشورته، فجمع عمر الناس، وقال لهم: «**إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا عليَّ برجل**»، وكان سعد يومئذ على صدقات هوازن، فلما وصل كتاب منه ـ حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه ـ قال عمر: وجدته! قالوا: مَنْ؟ قال: «**الأسدُ عاديًا: سعد بن مالك**»[٣] وقال: «**إنَّه شجاعٌ رامٍ**»[٤].

وقال عبدالرحمن بن عوف: «**الأسد في براثنه: سعد بن مالك الزهري**».

لقد كانت إمارة سعد على جيش العراق نتيجة لمشاورات طويلة أجراها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع خاصة الرجال وعامتهم، فلما قرر عمر نهائيًا أن يكون سعد قائدًا عامًّا على أخطر جيش يتجه إلى أخطر منطقة، استدعاه عمر فقدم عليه وأوصاه

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٧٥١)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٤٩٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في «موارد الظمآن» (٢٢/٥)، واللفظ له، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٩٢، ٩٣).

(٢) الطبري (٢/٦٦٠)، وابن الأثير (٢/١٧٢).

(٣) الطبري (٣/٤)، وفي مناقب عمر، لابن الجوزي: أن الذي أشار على عمر بتولية سعد هو عبدالرحمن بن عوف.

(٤) البلاذري ص (٢٥٥).

قائلًا: «يا سعد، سعد بني وهيب! لا يغرَّنك من اللَّه أن قيل: خال رسول اللَّه ﷺ وصاحبه، فإن اللَّه ﷻ لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن!

وليس بين اللَّه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين اللَّه سواء يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول اللَّه يلزم فالزمه، فإنه الأمر».

ويستدعي عمر سعدًا، ويقول له: «إنِّي قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيَّتي، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير، واستفتح به، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا، وعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك»[1].

❑ سعد يدير معركة القادسية وهو منبطح على وجهه من كثرة الدمامل التي منعته حتى من الجلوس

لك اللَّه من يوم وضيء نير، تغسل عنا بعد مرور القرون وخز عار نحسه في قلوبنا.. تشعرنا أن لنا أمجادًا تمضي بها الركبان وتعنو لها الأزمان.

فالقادسية ما يزال حديثها ... عبر تضيء بأروع الأمثال
تحكي مفاخرنا وتذكر مجدنا ... فتجيبها «اليرموك» بالمنوال
صفحات مجدٍ في الخلود سطورها ... عزَّ الرجال بها على الأنذالِ

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش، وعبَّأه للحرب، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة، وولَّى الحروب رجالًا، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها، وساقاتها، وطلائعها، ومشاتها، وفرسانها، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ، حتى يحول دون مباغتة العدوِّ لقواته.

ولم ينس سعد القضايا الإِدارية في جيشه، فعينَّ مسئولًا عن القضاء، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا، وعينَّ مسئولًا عن الوعظ والإِرشاد، وعينَّ مترجمًا

---

(١) الطبري (٣/٤، ٥).

يجيد اللغة الفارسية، كما عينَّ كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية.

ووصل جيش المسلمين القادسية، فبعث عيونه؛ ليعلموا له خبر أهل فارس، ثم أرسل بعض المفارز؛ للإغارة على المناطق المجاورة، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين: الإسلام، أو الجزية، أو السَّيف، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم.

وتهيَّأ الفريقان للقتال، وقبل أن يأذن سعد بالقتال، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس، ليحرِّضوهم على القتال، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم وعرفوا السكينة مع قراءتها[(١)].

ونادى منادي سعد في جيشه: «**أَلَا إِنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر اللهِ، يَأَيُّهَا الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد**».

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد، فأصابته بِعِرْق النَّسَا، وبحبون ودماميل منعته من الركوب، بل حتى من الجلوس، فلم يستطعْ أن يركب، ولا أن يجلس، فاعْتلى القصر وَأَكَبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس، وأسفل منه في الميدان خليفتُه خالد بن عرفطة، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[(٢)].

وأكبَّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه، فخطبهم وقال: «**إن اللَّه هو الحق، لا شريك له في الملك، وليس لقوله خُلْف؛ قال جلَّ ثناؤه:** ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم، وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون

---

(١) الطبري (٤٧/٣)، وابن الأثير (١٨١/٢، ١٨٢).
(٢) الطبري (٥٣٠/٣، ٥٣١، ٥٧٣).

منها، وتقتلون أهلها وتَجْبُونَهُم وتسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كلِّ قبيلة، وعزٌّ من وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع اللَّه لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم»، ثم قال: «إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون، فإني مكبٌّ على وَجْهي، وشخْصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي».

قال الطبري: «فَقُرِئ على الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه، وتحادثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع»[١].

لك اللَّه أيها «الليث في براثنه» تدير أشرس المعارك.. المعركة الفاصلة، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك، وباب دارك مفتوح، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًا أو ميتًا.

دماملك تنبح وتنزف، وأنت عنها في شغلٍ، فأنت من الشرفة تكبّر، وتصيح أوامرك لجنودك: «الزموا مواقفكم، لا تحرّكوا شيئًا حتى تُصَلُّوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً، فكبّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم، فإذا كبرتُ الثانية فكبروا وتهيئوا، ولتستتم عدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»».

وكبر سعد، فكبَّر الذين يلونه، وكبَّر بعض الناس بتكبير بعض، فاستعد الناس للقتال، ثم ثَنّى سعد، فأكمل الناس استعداداتهم، ثم ثلث فبرز أهل النجدة وأنشبوا

---

(١) الطبري (٣/٤٧).

القتال، ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة إشارة لبدء الزحف العام.

وحمل أصحاب الفيلة من الفرس، ففرقوا كتائب المسلمين وفرت خيولهم، ولكن مشاة المسلمين صمدوا متكبدين خسائر فادحة، وكان زخم هجوم الفرس على «**بجيلة**»، فأرسل سعد إلى بني أسد أن ذبوا عن بني جبيلة ومن حولها من الناس، فاستطاعوا تقطيع أحزمة الفيلة، فسقط عن ظهورها الذين يركبونها ويوجهونها، مما أدى إلى تراجع الفيلة.

ورأت سلمى زوجُ سعد ـ والتي كانت من قبل زوجًا للمثنى بن حارثة ـ ما حلَّ بالمسلمين في يوم «**أرماث**»، وهو اليوم الأول من أيام القادسية، فصاحت: «وامثناه! ولا مثنى للخيل اليوم»[١]، وكان سعد مريضًا بالدمامل في جسمه[٢]، فكان خليفته «**خالد بن عرفطة**» يستلم من سعد الأوامر ويشرف على تنفيذها[٣]، فلطم سعد زوجته وقال لها: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى[٤] وبجيلة؟، فقالت سلمى: «**أغيرة وجبنًا؟!**». قال: «والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني، وأنت ترين ما بي، والناس أحق ألا يعذرونني»[٥]، وقد عذرته سلمى وعذره الناس؛ لأنه كان «**غير جبان ولا ملوم**»[٦].

ولم تشرق شمس اليوم الثاني من أيام القادسية وهو يوم «**أغواث**» إلا وكان المسئولون عن الشهداء والجرحى قد نقلوهم ليلًا إلى «**العُذيب**»[٧] حيث دفنوا

---

(١) الطبري (٣/٥١)، وابن الأثير (٢/١٨٣).

(٢) الطبري (٣/٧٩).

(٣) الطبري (٣/٧٣).

(٤) يعني أسدًا وعاصم بن عمرو التميمي ومن معه.

(٥) الطبري (٣/٥١).

(٦) الطبري (٣/٥١).

(٧) العذيب: ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال.

قال اللواء محمود شيت خطاب: وهذا أروع ما يمكن أن يتخذه قائد من تدابير إدارية لدفن القتلى وتمريض الجرحى حتى بالنسبة للحروب الحديثة؛ فكيف وقد طبق ذلك سعد قبل حوالي أربعة عشر قرنًا.

الشهداء هناك، وأسلموا الجرحى للنساء يقمن عليهم[(١)].

ومضى اليوم الأول، واليوم الثاني والحرب سجال.

وفي اليوم الثالث وهو يوم «**عماس**» عادت الفيلة الفارسية إلى ساحة المعركة، فأرسل سعد إلى جماعة ممن أسلموا من فارس، فلما دخلوا عليه سألهم عن مَقَاتل الفيلة، فقالوا: المشافر والعيون، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو وقال: «**اكفياني الفيل الأبيض**» وكان بإزائهما، كما أرسل إلى جماعة من بني أسد، وقال: «**اكفياني الفيل الأجرب**»، وكانت الفيلة كلها تتبع هذين الفيلين، فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الأبيض ففقآ عينيه وقطعا مشفره، فبقي هائمًا بين الصفين، كما جرح بنو الأسد الفيلَ الأجرب فوثب إلى النهر ومن خلفه الفيلة هاربة لا تلوي على شيء[(٢)].

وزحف القتال ليلًا، وتُسمى هذه الليلة ليلة «**الهرير**»، وسُمِّيت بذلك؛ لأن الناس تركوا الكلام، وإنما يهرون هريرًا[(٣)].

وزحف القعقاع على الفُرس، فأطل سعدٌ فرأى القعقاعَ يزاحفهم، مما أثار نخوة غيره من الرجال[(٤)].

وبعث سعد طليحة الأسدي، وعمرو بن معديكرب إلى مخاضة أسفل المعسكر؛ ليقوموا عليها خشية أن يأتيه الفُرس منها، فعبرها طليحة، وضرب مؤخرة الفُرس، فارتاع أهل فارس وطلبوه فلم يدركوه، أما عمرو فأغار أسفل المخاضة، ثم رجع[(٥)].

وقدَّم الفُرس صفوفَهم، فزاحفهم الناس بغير إذنٍ من سعد، وكان أول من زاحفهم القعقاعَ، فقال سعد: «اللهم اغفرها له، وانصره، فقد أذنت له». ذلك لأن

(١) الطبري (٣/٥١).
(٢) الطبري (٣/٦٣).
(٣) ابن الأثير (٢/١٨٥)، والهرير: صوت الكلب دون النباح، وصوت القوس وغيرها.
(٤) الطبري (٣/٦٨).
(٥) ابن الأثير (٢/١٨٥).

سعدًا قدر أن الموقف الراهن يتطلب هجوم المسلمين على الفرس، فقال: «**إذا كبرت ثلاثًا فاحملوا**».

وهكذا ابتدأ الهجوم العام؛ إذ لحق الناس بعضهم بعضًا، واستقبلوا الليل استقبالا بعدما صلوا العشاء، وكان صليل الحديد هو الصوت السائد في ذلك الليل البهيم.

وبات سعد ليلة لم يبت مثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قطُّ.

وأقبل سعد على الدعاء، فلما كان عند الصبح، انتمى الناس، فاستدل بذلك على أنهم الأعلون[(١)].

واستمر القتال في اليوم الرابع حتى الظهيرة، عند ذاك بدأ الخلل في صفوف الفرس واضحًا للعيان، خاصة بعد مقتل رستم قائد الفرس العام، فانهزم قلب الفرس، وتتابعت الهزيمة بغير نظام، ووقعت خسائر عظيمة في الفرس قتلًا، وغرقًا.

ولما انكشف أمر فارس، أمر سعد بعض قادته بمطاردتهم، وأمر خالدَ بن عرفطة بسلب القتلى، ودفن الشهداء[(٢)]، وانهارت معنويات الفرس انهيارًا تامًّا؛ إذ أصاب أهل فارس يومئذ ما أصاب الناس قبلهم؛ قُتلوا حتى إنْ كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم، فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بقتل صاحبه[(٣)].

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية، فلقد صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم، وأظهروا قدرة قتالية فائقة، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المئة من قواتهم.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٨٦).
(٢) الطبري (٣/٦٩).
(٣) الطبري (٣/٧٢).

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته، وما إقامته بالقصر - مع ما به من علَّة تمنعه من مباشرة القتال - إلا إفراطًا في الشجاعة، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي: «**ولو عرَّاه الصف فواق ناقة، لأخذ برمته، فواللَّه ما أكرثه هول تلك الأيام، ولا أقلقه**».

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس؛ فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي؟ وهي تقول:

حييِّتِ عنَّا عكرم ابنة خالدٍ ... وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيَّتك عنِّي عُصْبةٌ نخْعيَّة ... حِسان الوجوهِ آمَنوا بمحمدِ
أَقاموا لكسْرَى يَضْرِبُون جنودَه ... بكلِّ رقيقِ الشفْرتينِ مهنَّدِ
إِذَا ثوَّبَ الدَّاعي أَناخُوا بِكَلْكَلٍ ... مِنَ المْوَتِ تَسْوَدُّ الغياطل مجردِ

وسمِعَ أهلُ اليمامة مجتازًا يغنِّي بهذه الأبيات:

وجدْنا الأكثرين بَني تميمٍ ... غداةَ الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالَا
هـُمْ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهرٍّ ... إلى لجبٍّ فزرتهم رعالَا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ ... كأسْدِ الغَابِ تحسبُهم جِبالَا
تَرَكْن لَهُم بقادِس عَز فخر ... وبالخيفَيْنِ أيَّامًا طِوالَا
مقطَّعةٌ أكُفُّهم وسوقٌ ... بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[1]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس، فقال: «أما بعد، فإن اللَّه نصرنا على أهلِ فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتالٍ طويلٍ، وزلزالٍ شديدٍ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم اللَّه بذلك، بل سُلِبُوه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ، وفلان

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٨٣).

وفلان، ورجالٌ من المسلمين، لا نعلمهم، اللَّه بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن - إذا جنَّ الليل - دويَّ النَّحْل، وهم آساد النَّاس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»[١].

هَلْ دَحَرْنَا في القادسيَّة جَيْشًا ... بِخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَرْ
أَمْ بِجَيْشٍ شِعَارُه دون خَوفٍ ... لا يَهَابُ الحِمامَ «اللهُ أكبرْ»
مَزَّقَ الظُّلمَ زحفُه يَتَحَدَّى ... جَحْفلَ الظُّلْمِ بالعَقيدةِ يَزْخَرْ
عَلَّمَ الفُرْسَ والعروش تهاوى ... أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[٢]

نعم:

سَلوا فخامة كِسْرَى عن كتائبنا ... وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا ... وَكُسِّرَتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[٣]

نعم يا أخي:

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ ... يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأسارى

❑ فتح البيت الأبيض والمدائن عاصمة كسرى:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى»**. رواه أحمد، ومسلم.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لَتَفْتَحَنَّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْز آل كسرى الذي في الأبيض»**.

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة، وكاتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يفعل، فكتب إليه عمر بالمسير إلى **«المدائن»** عاصمة كسرى، وتحرك الجيش المنتصر باتجاه **«المدائن»**، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في **«برس»**، وفي بابل، وفي

(١) تاريخ الطبري (٥٨٣/٣).
(٢) من قصيدة «جواب لسؤال» من ديوان «في رحاب الأقصى»، ليوسف العظم ص (٦٤).
(٣) من ديوان «لحن الخلود»، لعائض القرني ص (٨٣) «طبع هجر».

«**بهرسير**»؛ وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة لـ«**المدائن**»، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن، فلم يقدر على شيء منها؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها(١).

وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه، وموجُه متلاطِم، وزاد المدُّ فيه، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا، وفي ليلةٍ من ليالي سعدٍ، رأى رؤيا، خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة، وعبرتْ، وقد أقبلتْ من المدِّ بأمرٍ عظيم.

❑ عبور لا مثيل له في التاريخ:

فصدَّق الرؤيا، وعزمَ على عبور النهر، فجمع الجيش، وقام فيهم خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلُصُون إليه معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا؛ فيُناوِشُونَكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوْا منه، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام، وعطَّلُوا ثغورهم، وأفنْوا ذادتهم، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعًا: عزمَ اللهُ لنا، ولك على الرُّشد، فافعل»(٢).

وندب سعد الناس للعبور، ثم قال: «**من يبدأ، ويحمي لنا الفراض**(٣)**؛ لكيلا يمنعونا من العبور**».

فانتدب عصام بن عمرو التميمي، وانتدب معه ست مئة من أهل النجدات، فعبر هؤلاء المغاوير، وعبر سعد مع جيشه بعدهم؛ ففاجئوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في

---

(١) الطبري (١١١٩/٣).

(٢) الطبري (١١٩/٣)، وابن الأثير (١٩٨/٢)، وفتوح الشام، للواقدي (١٢٧/٢).

(٣) الفراض: جمع فرضة: وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى، ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر.

حسابهم.

سبحان الله!! نهر هادر لا يقل عُمق مياهه عن ستة أمتار، تخوضه الخيول سبَّاحةً، وعلى ظهرها الفرسان يقاتلون.

قال لهم سعد، وهم يخوضون؛ ليصلوا إلى شاطئ «**أسبانير**»: «قولوا: نستعين باللَّه ونتوكل عليه، حسبنا الله، ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»[١].

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر، كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض.

نجحت خطة سعد نجاحًا يُذْهَلُ له المؤرخون، نجاحًا أذهل سعدًا نفسه، وأذهل صاحبه، ورفيقه في المعركة «**سلمان الفارسي**».

«عامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا الله، ونعم الوكيل، واللهِ، لينصرن اللَّه وليه، وليُظهرن اللَّه دينه، وليهزمن اللَّه عدوَّه، إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ، أو ذنوبٌ تغلب الحسنات».

فقال له سلمان: «الإسلام جديد، ذُلِّلتْ لهم ـ واللَّه ـ البحور، كما ذُلِّلَ لهم البرُّ، أما والذي نفسي بيده، ليخرُجُنَّ منه أفواجًا، كما دخلوه أفواجًا، لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ»[٢].

فطبقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر، لو كانوا فيه، فخرجوا منه ـ كما قال سلمان ـ لم يفقدوا شيئًا، ولم يغرق منهم أحد، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة، زال عن ظهر فرسٍ له شقراء؛ قال أبو عثمان النهدي: «كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا، والغريقُ طافٍ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه، فأخذه بيده فجرَّه حتى عبر»، فقال البارقي ـ وكان من أشد الناس ـ: «عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع». وكان للقعقاع فيهم خئولة.

---

(١) الطبري (٤/٤٨).

(٢) تاريخ الرسل والملوك (٤/١١).

❑ يومُ الجراثيمِ:

روى أبو جعفر في تاريخه، أن سعدًا لمَّا أقحم الناس في دجلة، اقترنوا - أي: صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور - فكان سلمان الفارسي قرينَ سعد، إلى جانبه يُسايره في الماء، فقال سعد: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، والماء - لشدَّة جريانه - يطمو بهم، وما يزال فرس يستوي قائمًا، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً، فيستريح عليها؛ كأنه على الأرض، فلم يكن بـ«**المدائن**» أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يُدعى يوم الجراثيم.

ومن عناية اللَّه - تَعَالَى - بالجيش المجاهد، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر، إلا جرثومة يريح عليه.

وعن قيس بن أبي حازم قال: «خُضنا دجلة، وهي تطفح، فلمَّا كُنَّا في أكثرها ماءً، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه، قال المسلمون: ما تنتظرون بهذه النطفة؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس، فما غرق منهم إنسان، ولا ذهب لهم متاع»[(١)].

تموت المبادئ في مهدها ... ويبقى لنا المبدأ الخالدُ
مراكبُ أهل الهوى أُتخمتْ ... نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرَّافةٍ ... وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ ... وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم ... فنحن لنا ربُّنا الواحدُ[(٢)]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ، إلا قَدَح كانت له علاقة رثَّة فانقطعتْ، فذهب به الماء، فقال صاحبه: والله، إني لعلى جديلة، ما كان اللَّه ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر؛ فلمَّا عبر، قذفتِ الرياحُ، والأمواج قدحه، فأخذه.

---

(١) القادسية، لمحمد أحمد باشميل (٧٤٤ - ٧٤٦).

(٢) قصيدة «موقف» من ديوان «شموخ في زمن الانكسار»، لعبدالرحمن صالح العشماوي ص (٥) «طبع مكتبة الأديب بالرياض».

❑ ما تُقاتلون إلَّا الجِنَّ:

نظر جنود «**يزدجرد**» إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة، وجعلوا يردِّدون بالفارسية «**ديوان آمد**»، ويقول بعضهم لبعض: «والله، ما تقاتلون الإنس، وما تقاتلون إلا الجن».

قال أبو عثمان النهدي: «طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ، حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل، فلمَّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء».

وفزع «**يزدجرد**» ملك الفرس، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات... فدلاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل... ليفرّ من «**المدائن**» ومعه ألف طباخ، وألف فهَّاد، وألف بازيار.

إي، والله، في زنبيل!! هذه نهاية الطواغيت.

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله؛ فقد جاء في تاريخ الطبري «٤/ ٥٣»: «أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس، وفيهم فارس منهم يعترض على طريق من طرقها، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم، وهو يضرب فرسه للإقدام فيُحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف، فضرب عنقه، وأخذ ما كان عليه. ودخل سعد «**المدائن**»، وانتهى إلى إيوان كسرى، فأقبل يقرأ قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ـ ٢٨]»[١].

---

(١) الطبري (٤/١٦).

❏ الفاتح العظيم:

وجه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي، فانتصر هاشم في معركة جلولاء، وفتح القعقاع وجرير بن عبداللَّه البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين.

كما وجه عبداللَّه بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة، ففتح عبدُ اللَّه بن المعتم تكريت، وفتح ربعيُّ بن الأفكل الموصلَ.

ولمَّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن، بلغ سعدًا أن الفُرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري، فانتصر المسلمون على الفرس، وفتح ضرار ماسبذان.

ووجه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات، ففتحا هذه المنطقة.

كما وجه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق، ففتح منطقة البصرة والأهواز.

كما وجه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان، ففتح تلك المناطق.

ووجه سعدٌ عياضَ بن غنم، وسهيلَ بن عدي، وعبدَاللَّه بن عبداللَّه بن عتبان لفتح الجزيرة، ففتحوا منطقة الرقة ونصيبين وحران والرها.

فالفتوحات الإِسلامية إذن التي جرت في العراق، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية، فتحها سعدٌ بنفسه، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد، ولكنَّ فَتْحَهَا جرى بعد عزله.

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا. لقد فتح سعد العراق، وأكثر بلاد فارس، وأذربيجان، والجزيرة وبعض أرمينية، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث، وأكثر إيران بحدودها اليوم، وفتح القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإِيران،

والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحد روسيا. وفوق ذلك مَصَّرَ الكوفة و كوَّفها، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله، وأمدَّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين.

فرضي اللَّه عن سعد الفاتح العظيم.

وأخيرًا تبقى كلمة:

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال: «متواضع في خبائه، عربي في نمرته[١]، أسد في تاموره[٢]؛ يعدِل في القضية، ويقسم بالسَّوِيَّة، ويبعد في السَّرِيَّة؛ يعطف علينا عطف الأمِّ البَرَّة؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة»[٣].

❏ سعد بن أبي وقاص القائد:

ذكر ابن حجر أن أشد أصحاب رسول اللَّه ﷺ أربعة:

عمر، وعلي، والزبير، وسعد[٤]. و«كان أحد الفرسان الشجعان من قريش الذين كانوا يحرسون رسول اللَّه ﷺ في مغازيه».

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب:

«كان سعد جنديًا متميزًا، وقائدًا متميزًا.

كان جنديًا متميزًا؛ لأنه كان متفوقًا في الرمي فواقًا ظاهرًا[٥][٦]، شجاعًا مقدامًا، يتحلى بالضبط المتين، ويؤمن بالطاعة لذوي الأمر، يتحمل المشاق العسكرية، له أهداف واضحة يؤمن بها، ويعمل بكل إخلاص لتحقيقها: يقوم بواجبه بدافع من

---

(١) النمرة: هي كساء فيه خيوط بيض وسود تلبسه الأعراب.

(٢) التامور: هو عرين الأسد، وهو بيته الذي يأوي إليه.

(٣) أسد الغابة (٢/٢٩٢)، والذرة أصغر النمل.

(٤) الاستيعاب (٢/٦٠٨).

(٥) الإصابة (٣/٨٤).

(٦) في الإصابة (٣/٨٤) قصة إصابته الهدف بدقة، وفي طبقات ابن سعد (٣/١٤٢): أنه كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ.

نفسه لا بدافع من غيره، وللمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة، وتلك هي مزايا الجندي المتميز في كل زمان ومكان.

وكان قائدًا متميزًا؛ لأنه كان له قابلية ظاهرة على إعطاء القرارات الصحيحة السريعة، إذ أنه كان يتحلى بعقلية متزنة وذكاء خارق، وكان يحرص كل الحرص على الحصول على المعلومات بالدوريات والعيون واستنطاق الأسرى والاستطلاع الشخصي وباستشارة ذوي الرأي.

وكان ﷺ يبادل قواته محبة بمحبة مثلها، وثقة بثقة تساويها، وله مخيلة تحسب حساب كل شيء.

وتلك هي صفات القائد المتميز بكل زمان ومكان.

وبالإضافة إلى كل هذه المزايا، كان سعد قائدًا «**مَرِنًا**» لا يُصِرُّ على تنفيذ حَرْفِيَّةِ أوامره، ولا يحاسب رجاله إذا انتهزوا فرصة مناسبة للإقدام على عمل عسكري قبل أن يستأذنوه، ذلك لأنه ورجاله كانوا يعملون يدًا واحدة في سبيل تحقيق أهداف مشتركة، ولم يكن يخطر ببال أحدهم أن يخالف الأوامر حبًّا للظهور أو جرًّا لمغنم شخصي!

ولكنه كان لا يرضى من رجاله أي إخلال بالضبط يؤدي إلى الشغب وعرقلة أعمال الجهاد.

قال سعد: «والله لا يعود أحد يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم، إلا سُنَّتْ به سنة يُؤخذ بها بعدي»[1].

وقال ناصحًا رجلين من أعوانه بالتمسك بأهداف الضبط المتين: «إني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام، فتموت قلوبكما وأنتما حيَّان! الزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق، فما رأى الناس كأقوام أعزَّهم الله بالإسلام»[2].

(١) الطبري (٣/٤٤).

(٢) الطبري (٣/٣٠)، وهو يخاطب عمر بن معد يكرب وطليحة الأسدي.

والحق أن ضبط سعد كان متينًا للغاية، فكما كان يريد السمع والطاعة من القادة والرجال الذين كانوا بإمرته، فإنه كان يسمع ويطيع أمير المؤمنين سمعًا وطاعة خارجة من أعماق قلبه ونفسه، وقد كان سعد يخبر عمر بن الخطاب بكل شيء، ويستأذنه قبل أن يقدم على عمل أي شيء.

وكان يخبره عن موقف العدو بالتفصيل، وكان يخبره عن طبيعة الأرض التي يحل فيها، ويستأذنه قبل خوض المعارض، ويسأله الرأي في الأسرى والغنائم، وكان عمر ـ استنادًا إلى أخبار سعد التي تصله تباعًا، وبدافع من حرصه الشديد على انتصار المسلمين ـ يكاد يتدخل في تفاصيل المعركة.. في موقعها، وفي إعداد خطتها وحتى في تسمية قادة التشكيلات التعبوية من قلب وميمنة وميسرة وساقه ـ إلخ.

أما سعد فيتقبل كل ذلك برحابة صدر، وينفذ أوامر عمر حرفيًا دون تذمر ولا تردد!!

وعند مقارنة أعمال سعد العسكرية بمبادئ الحرب، يتضح لنا أنه كان يطبق مبدأ «**اختيار المقصد وإدامته**» فقد كان مقصده واضحًا في كل معركة خاضها، وكانت معاركه كلها معارك (تعرضية)، وكان يطبق مبدأ «**المباغتة**» كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، كما فعل عند عبور نهر دجلة بالخيل في معركة فتح المدائن، وكان (يحشد) قوته قبل المعركة، ولا يقدم على تنفيذ خطة حربية قبل أن يتخذ تدابير (الأمن) اللازمة، مستفيدًا من مبدأ «**التعاون**» بين صفوف قواته وأقسام جيشه من تشكيلات تعبوية وقبائل. ويبذل قصارى جهده «**لإدامة معنويات قطاعاته**»، ويؤمن لها كل متطلبات «**القضايا الإدارية**»[1].

---

(١) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢٩١ ـ ٢٩٣).

❑ سعد بن أبي وقاص وفن القيادة:

١- الاهتمام بالشئون الإدارية «اللوجستيك»

ظهر المسلمون في العذيب بصورة مباغتة، فهرب الفرس، ووجد المسلمون «رماحًا ونشابًا وأسفاطًا من جلود وغيرها، انتفع بها المسلمون»

«وأرسل سعد من مكانه - في العذيب - يطلب غنمًا أو بقرًا. وجاءه عاصم بن عمرو بثيران فقسمها سعد على الناس فأخصبوا أيامًا»

«ثم أنه بث الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا»

«وأغار المسلمون - وهم في القادسية - إلى أن جاءوا إلى صيادين قد اصطادوا سمكًا، وسار سواد بن مالك التميمي إلى النجاف والفراض إلى جنبها فاستاق ثلاث مئة دابة بين بغل وحمار وثور، فأوقروها (حملوها) سمكًا واستاقوها؛ فصبحوا العسكر، فقسم سعد السمك بين الناس، وقسم الدواب»، «وكان المسلمون يبحثون عن اللحوم.

فأما الحنطة والشعير والتمر والحبوب، فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا أزمانًا، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها؛ ومن أيام اللحم يوم الأباقر ويوم الحيتان».

وكان من نتيجة تعايش قوات المسلمين أن أخذ أهل العراق في التقرب إلى المسلمين؛ مما دعا رستم يوم قاد جيوشه لحرب المسلمين أن يطلب أهل الحيرة ويجتمع بهم، ويتهمهم بدعم المسلمين بالأموال ومساعدتهم والتعاون معهم، فدافعوا عن أنفسهم بقولهم: «ما يحوجهم - يعني: المسلمين - أن نكون عيونًا لهم؛ وقد هرب أصحابكم منهم، وخلوا لهم القرى؛ فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه؛ إن شاءوا أخذوا يمينًا أو شمالًا، ... وقد صانعناهم بالأموال عن أنفسنا؛ إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبى، وأن نحارب، وتقتل مقاتلتنا، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم؛ فكنا نحن

أعجز، ولعمري لأنتم ـ الفرس ـ أحب إلينا منهم، وأحسن عندنا بلاء، فامنعونا منهم، نَكُنْ لكم أعوانًا؛ فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيدُ من غلب»[١].

وتُظْهِرُ هذه المقولات الصورة الواضحة لاهتمام سعد بتأمين الشئون الإدارية لقوات المسلمين، كما تُظْهِرُ نتائج أسلوب تأمين الشئون الإدارية على حساب الإقليم. **ويمكن تلخيص النتائج بما يلي:**

١ـ إن اعتماد قوات المسلمين على ما يتوافر من المواد التموينية في الأقاليم قد حرر قوات المسلمين من الأعباء الإدارية، وضمن لقوات المسلمين قدرًا كافيًا من حرية العمل وحرية الحركة، وقد لجأ المغول «**التتار**» لهذا الأسلوب بعد فتوحات المسلمين بخمسة قرون، كما لجأ نابليون لهذا الأسلوب ذاته بعد ذلك باثني عشر قرنًا تقريبًا.

٢ـ كان من نتائج هذا الأسلوب خلق فاصل بين سكان البلاد وبين قوات الفرس التي عجزت عن «**حماية أهل البلاد**»، وحمل هؤلاء على التعاون مع المسلمين، والإعراض عن دعم الفرس، وخسر الفرس بذلك دعمًا قويًّا من أنصارهم.

لقد كان من الطبيعي أن يهتم سعد بالشئون الإدارية لتأمين متطلبات قواته، ولكن يظهر بوضوح أن سعدًا قد ربط بين عملية «**التأمين الإداري للقوات**»، وبين «**متطلبات الموقف الاستراتيجي**»، ويظهر ذلك من خلال تأمين مخزون ضخم من «**الحنطة، والشعير، والتمر، والحبوب ما يكفيهم لو أقاموا أزمانًا**»، ولا ريب أن سعدًا كان يهدف حرمان العدو من الموارد التموينية والحياتية، إلى جانب تأمين متطلبات القوات الإسلامية لحرب «**طويلة الأمد**».

وكان ذلك يقينًا في جملة الأسباب التي أرغمت الفرس على قبول «**المعركة الحاسمة**» دفاعًا عن مجالهم الحيوي، ودفعتهم لقبول شروط المسلمين في خوض المعركة في المكان والزمان اللذين حددهما سعد بن أبي وقاص.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٠٩).

ويُظْهر ذلك ـ أيضًا ـ أنه ما من عامل واحد، أو مبدإ واحد، كان له تأثير مستقل في حد ذاته، وإنما كانت هناك مجموعة من العوامل المتشابكة والمعقدة التي تضافرت جميعها لتحقيق النصر.

٢ـ التحريض على الجهاد:

نظم سعد قوات العرب المسلمين في القادسية، ثم أرسل القادة، والخطباء، والشعراء، من أمثال المغيرة، وحذيفة، وعاصم، وطليحة، وقيس الأسدي، وغالب، وعمرو بن معديكرب، والشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء، وعبدة بن الطبيب، وأوصاهم فقال لهم: «انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم، ويحق عليهم عند مواطن البأس؛ فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب، وخطباؤهم، وذوو رأيهم، ونجدتهم، وسادتهم؛ فسيروا في الناس فذكروهم، وحرضوهم على القتال»؛ فساروا فيهم. فقال قيس بن هبيرة الأسدي: «أيها الناس؛ احمدوا اللّٰه على ما هداكم له، واذكروا آلاء اللّٰه (نعمه)، وارغبوا إليه في عاداته؛ فإن الجنة، أو الغنيمة أمامكم، وأنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر... والفلوات التي لا تقطعها الأدلة».

وقال غالب: «أيها الناس، احمدوا اللّٰه على ما أبلاكم، وسلوه يزدْكم، وادعوه يجبْكم، يا معاشر معد، ما علتكم اليوم، وأنتم في حصونكم ـ يعني: الخيل ـ ومعكم من لا يعصيكم ـ يعني: السيوف ـ؟

اذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غدًا يبدأ عنده، وبمن بعدكم يثني»

وقال ابن الهذيل الأسدي: «يا معاشر معد، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجم، وتربدوا لهم تربد النمور ـ أي: اغضبوا ـ وادرعوا العجاج، وثقوا بالله، وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف، فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه».

وقال بسر بن أبي رهم الجهني: «احمدوا الله، وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم

اللَّه على ما هداكم له، ووحدتموه، ولا إله غيره، وكبرتموه، وآمنتم بنبيه، ورسله، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا؛ فإنها تأتي مَنْ تَهَاوَنَ بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم. انصروا اللَّه ينصركم».

وقال عاصم بن عمرو: «يا معاشر العرب، إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم (قصدتم) الأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، لا تحدثوا اليوم أمرًا تكونون به شينًا على العرب غدًا».

وقال ربيع بن البلاد السعدي: «يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل».

وقال ربعي بن عامر: «إن اللَّه قد هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الراحة، فعودوا أنفسكم الصبر، تعتادوه، ولا تعودوها الجزع؛ فتعتادوه».

٣ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر:

كان سعد بن أبي وقاص شجاعًا في مواجهة الخوف، واجهته مواقفُ كثيرةٌ هلعت لها قلوب الرجال إلا قلب سعد، فكان الرسول الأعظم يعتمده، وكان موقفه يوم أحد مشهودًا؛ حيث تمزق المسلمون، وصمد سعد فيمن صمد مع رسول الله.

وشارك سعد الرسول في غزواته ـ أكثرها ـ وكان تسمية الفاروق عمر له ـ وهو الرجل الذي عرف أنه أعرف الناس بالناس ـ وتلقيبه بالأسد في براثنه إنما هو برهان على شجاعة سعد في مواجهة الخطر.

ولقد كان سعد يوم القادسية مصابًا بالحبوب (الدمامل) في مقعده، فكان ذلك عائقًا له عن الركوب والمسير؛ حتى إنه كان يضطر إلى الرقود على صدره لمتابعة المعركة، وقد اختار رغم ذلك مقر قيادته عند آخر الصفوف، وفي قلب المعركة، وفي

مكان مرتفع يشرف منه على ميدان القتال؛ فأعطى بذلك مثلًا لقادته، وللمجاهدين في جيشه.

إن الشجاعة هي أسمى الفضائل الحربية؛ ذلك أن التعرض للخطر هو احتمال دائم في الحرب، والشجاعة عند سعد هي شجاعة شخصية عُرف بها منذ صغره، ثم استمدَّت هذه الشجاعة من العقيدة الإسلامية معينًا لها، وقد أدى اقتران وعي الشجاعة في شخص سعد، وتوافقهما معًا إلى أكمل أنواع الشجاعة، وهي الشجاعة الفكرية.

لقد كانت حروب المسلمين صعبة، تتطلب جهدًا بدنيًا كبيرًا بقدر ما تتطلب قدرة على احتمال الآلام والصعاب، وزاد من ذلك كله إصابة سعد بنوع من الأمراض المؤلمة، ورغم ذلك كله فقد استطاع المحافظة على صفاء ذهنه، ومجابهة المواقف المختلفة بردود فعل مناسبة.

ولقد كانت قيادة سعد في ظروف أقل ما يمكن أن يقال فيها: إنها غارقة في «**ضباب الشك**»، وكان لا بد من نوع من الإشراق الذهني، والشجاعة الفكرية الكافية لاستخلاص الموقف الحقيقي من وسط الشكوك.

وقد أظهرت رسائل سعد إلى أمير المؤمنين تقديره الصحيح لموقف السكان، ومعرفته الدقيقة للطبيعة الجغرافية الخاصة بميدان معركة القادسية، وذلك منذ الفترة الأولى التي وصل فيها سعد إلى القادسية.

وعلاوة على ذلك كله، فإن الحرب ـ على ما هو معروف ـ تترك مجالًا واسعًا للمصادفة، ذلك أنه ليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكانًا لهذه الظاهرة الغريبة كالحرب.

وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية التواقت في وصول جيش القعقاع بن عمرو، وهاشم بن عتبة منذ اليوم الثاني للمعركة، وما كان لذلك من أثر حاسم في سد ثغرات النظام المتمفصل الذي طبقه سعد في معركة القادسية، وقد كان من المحتمل جدًّا في مثل

تلك الظروف أن يتأخر إمداد جيش القعقاع يومين أو ثلاثة، ولكن رغم ذلك كله، فقد استطاع سعد مجابهة جميع حقائق المعركة، واتخاذ الحلول المناسبة لها، والإفادة من كل المصادفات الطارئة، وتحويلها لصالح قوات العرب المسلمين، وكانت حقائق المعركة كلها هي براهين على ما كان يتميز به سعد من ذهن متحفز باستمرار للكشف عن الحقيقة، وسط غموض الشك، ثم الشجاعة في متابعة هذه الحقيقة، والتصميم على بلوغ الهدف.

لقد كانت شجاعة سعد متميزة بعدد من الخصائص أبرزها قوة الفكر، وقوة الشخصية، والصمود، والحزم وهي مكونات قيادية ساعدته على تجاوز صعوبات مناخ الحرب، وهي الصعوبات التي تتمثل في الجهد البدني، والخطر، والشك، والمصادفة، وقد عرف تاريخ الحرب أعدادًا لا يمكن حصرها من القادة الذين تتوافر فيهم بعض الصفات لمجابهة بعض المواقف، ولكنهم قلة هم الذين يجمعون كل الصفات لمجابهة كل المواقف.

٤ـ القرارات الصحيحة:

كان أول قرار صحيح اتخذه سعد أثناء قيادته، هو اختياره لموقع القادسية من أجل المعركة الحاسمة مع الفرس؛ فقد توافرت في هذا الموقع:

١ـ عزلته عن أهل البلاد الذين لم يكن سعد ليشعر بالطمأنينة إليهم، وذلك بسبب علاقتهم القديمة مع الفرس.

٢ـ وقوع القادسية بين حاجزين جغرافيين ـ الخندق، والعتيق ـ بحيث يستطيع الاستناد إليهما لحماية قواته.

٣ـ قرب الموقع من الموارد الحياتية ـ المياه والطعام ـ مما يضمن له سهولة التأمين الإداري لقوات المسلمين.

٤ـ عدم وجود حاجز طبيعي يعوق حركة القوات إذا ما أرادت الانسحاب، وإعادة تجميعها؛ لاستئناف القتال.

٥ـ حصر الفرس عند القتال بحاجز طبيعي «**نهر الفرات**».

وقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية على صحة انتقاء الموقع، ودوره في تقرير مصير المعركة.

وكان من قرارات سعد الصحيحة توجيه المقدمة قبل كتلة القوات الرئيسية بمدة كافية حتى يضمن بذلك توافر فترة كافية لفتح القوات واشتباكها بالمعركة، ووقايتها ضد كل مباغتة محتملة، ثم دفع المقدمة مسافة كافية عند وصول القوات إلى أماكن تمركزها؛ حتى تستطيع اتخاذ تدابير الإقامة، وتنظيم المعسكر في ظروف أمن مطلقة، وكان هذا القرار هو أساس التقليد الذي سارت عليه القوات الإسلامية بعد ذلك.

وكان من قرارات سعد الصحيحة ـ أيضًا ـ اختياره الصحيح للقادة على جميع المستويات، ومن أجل تنفيذ الواجبات المختلفة، واختيار القائد المناسب للعمل المناسب، وتُظْهِرُ متابعة قصة «**القادسية**»، وما بعدها أن سعدًا كان ذا خبرة واسعة بمعرفة الرجال.

وكان من قراراته الصحيحة في ميدان المعركة إرسال قوات لحماية النقاط الضعيفة، والتوغل والالتفاف من حول القوات، ثم تحديد بداية المعركة مع موعد ظهر اليوم حيث تكون حدة الشمس قد ارتفعت عن أعين المقاتلين، وكذلك تنظيم عملية القتال الليلية «**ليلة الهرير**» التي قررت مصير المعركة الحاسمة.

ولقد كان في جملة قرارات سعد الصحيحة إشرافه هو بنفسه على المعركة، والتصميم على إدارتها، ويمكن اعتبار هذا التقليد الذي فرضته الظروف المرضية الخاصة بسعد بداية إدارة المعركة بأوامر خطية، وهو بداية العمل لانتقاء مركز قيادة يشرف على ميدان المعركة كلها، ويسمح باتخاذ القرار المناسب، والإشراف على تنفيذه.

ولم يكن قرار المطاردة ـ بعد تحول الموقف في القادسية ـ سوى نتيجة منطقية تستجيب لمتطلبات حرب الحركة، وتلبي مبادئ الحرب التي كان العرب المسلمون

يعتمدونها في حروبهم.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن الجذور الأساسية للقرارات الصحيحة تمتد في قيادة سعد إلى مجموعة من العوامل أبرزها الاستطلاع، وجمع المعلومات الدقيقة عن العدو، ثم تقدير الموقف تقديرًا سليمًا «**من خلال ضباب الشك**»؛ للوصول بعد ذلك إلى القرار الصحيح الذي يعالج الموقف، سواء كان هذا الموقف متوقعًا، أو مباغتًا، ويمثل القرار شخص القائد في جميع الظروف، وبذلك تكون كلمة «**القائد**» إنما تعني القرار الصحيح.

وليس هناك برهان أفضل من المنجزات الرائعة التي حققها سعد بن أبي وقاص للتأكيد على صحة قراراته، والتسليم بعد ذلك بكفاءته القيادية العالية التي استطاعت حشد كل المعطيات الضرورية، والإمساك بجميع العوامل المختلفة من أجل تحقيق «**غاية السلم**»، و«**هدف الحرب**».

وقد يكون من الصعب إجراء تقويم لكل منجزات القائد سعد بن أبي وقاص، ولعل القول: إنه كان قائد القادسية، هو في حد ذاته، كافيًا عن كل تقديم.

٥ـ حماية المرءوسين:

أرسل سعد قوة من المشاة ـ كالطليعة ـ ثم أرسل قوة أخرى لتنفيذ المهمة ذاتها، وعدد أفراد كل واحدة منهما مئة مقاتل، وطلب إلى قائدي القوتين عدم التوغل، وبلغ «**رستم**» تحرك القوتين المسلمتين؛ فأرسل إليهما قوة من الفرسان، وبلغ سعد أن قواته قد أوغلت فأرسل قوة ثالثة لدعمهما، وحمايتهما، وفي معركة القادسية، شعر سعد بخطورة الفيلة على قوات المسلمين فاستعلم عن طريقة لإخراجها من المعركة، وأرسل إلى القعقاع أمره «اكفياني الفيل الأبيض»، وأمرهما بضرب الفيلة في عيونها.

وعرف عن سعد أنه أرحم الناس بالناس؛ والشواهد بعد ذلك غير محدودة، وكلها تبرهن على حماية سعد لمرءوسيه، وحرصه على سلامتهم، وأمنهم، وتأمين متطلباتهم، والرجوع إليهم في الأمور التي يمكن استشارتهم بشأنها، وتمثل قضية

«**حماية المرءوسين**» في الجيوش الإسلامية ظاهرة تتصل بالعقيدة الدينية «**المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص**»، و﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقد سن الرسول القائد ﷺ السنة المثلى فيما يجب أن تكون عليه العلاقة الأبوية بين القائد ومرءوسيه، وجاء قادة الجيوش بعد ذلك، ليسيروا على النهج ذاته.

وانطلاقًا من هذا المبدإ، أبرز قادة المسلمين اهتمامهم المتعاظم بتدابير الحيطة، والأمن، وكان سعد بن أبي وقاص أول من أبرز نظامًا متكاملًا لتدابير الحيطة سواء كانت قوات المسلمين تتحرك على الطرق، وتتجه إلى المعركة، أو كانت مقيمة في معسكراتها، أو أثناء خوضها لمعاركها القتالية، ولقد جاء بناء المدن الإسلامية في العراق؛ كالكوفة، والبصرة ضمن هذا المفهوم ذاته، فقد ساءت صحة المسلمين عند توغلهم في إيران؛ فجاء بناء الكوفة بهدف وقائي، هو «ضمان المناخ الصحي للمسلمين، وقواتهم».

لقد كانت حماية المرءوسين مسئولية عامة بين قادة المسلمين كلهم، ويشتركون جميعًا في الاضطلاع بها، بداية من أمير المؤمنين، ونهاية بقادة الأعشار، ويكون من الطبيعي، والحالة هذه أن يحتمل سعد القسط الأوفى من هذه المسئولية؛ **لمجموعة من الأسباب، أبرزها:**

١ـ ممارسة سعد قيادته في إقليم بعيد، وعلى اتصال مباشر بالعدو.

٢ـ الحجم الكبير للقوات، بالنسبة لما كانت عليه جيوش المسلمين من قبل.

٣ـ الاضطلاع بواجبات القيادة في إطار مركزي، وضمن إطار وحدة القيادة.

لقد عمل أمير المؤمنين على تجهيز جيش سعد بالأطباء، والقادة المعاونين للواجبات المختلفة «الإقباض، أو تقسيم الغنائم، وقادة المقدمات، والمؤخرات، والفرسان... إلخ» ولكن ذلك كله في إطار واجبات محددة تضع المسئولية بكاملها في النهاية على عاتق القائد العام «سعد بن أبي وقاص».

وفي جميع الأحوال قد يكون من الصعب فصل عامل «**حماية المرءوسين**» في

قيادة سعد عن بقية العوامل التي تميزت بها العقيدة القتالية للمسلمين، أو عقيدتهم الدينية، كما أنه من الصعب ـ أيضًا ـ فصل هذا العامل عن بقية الصفات الشخصية التي تميز بها سعد، وفي طليعتها الفروسية، والشجاعة، والمعرفة الصحيحة للرجال.

❑ سعد بن أبي وقاص، وقواته:

كانت قيادة سعد على مسرح عمليات العراق رائعة في قدرتها، وإمكاناتها، فقادت القوات من نصر إلى نصر، ومن موقعة إلى موقعة؛ حتى أرغمت الفرس على الفرار، وكان جيش سعد هو جيش المنجزات الخالدة والمجاهدين العظماء.

قال سعد بن أبي وقاص بعد أن انتهت الحرب عن رجاله: «كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دويَّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»(١).

وعندما رأى سعد ما تجمع في الأقباض، قال: «والله، إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وايم الله ـ على فضل أهل بدر ـ لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها، ولا أسمعها من هؤلاء القوم».

وقال جابر بن عبدالله: «والله الذي لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المشكوح»(٢).

ومما ميز هذا الجيش:

١ـ الاستعداد الدائم للقتال:

أبرزت معركة القادسية ـ بصورة خاصة ـ الروح القتالية لجيش سعد، فقد اضطر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣/٥٨).

(٢) تاريخ الأمم والملوك (٤/١٨ ـ ٢٠).

هذا الجيش لخوض معاركه بصورة متصلة تقريبًا، ما يكاد القتال يهدأ مع ظلمة الليل، حتى يبدأ من جديد مع صباح اليوم التالي، إلى أن جاء اليوم الثالث، وليلة الهرير؛ حيث اتصل القتال في النهار والليل والنهار التالي، وأعقب ذلك المطاردة الحاسمة، وقد يكون من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن قوات الفرس قد أفادت من تفوقها العددي لتبديل كتائبها في كل يوم تقريبًا، في حين كان المسلمون يعملون على الانسحاب والتراجع؛ لإعادة تنظيم قواتهم واستئناف الهجوم من جديد، ولئن كان ذلك برهانًا على الروح المعنوية العالية، والكفاءة البدنية، والقدرة على تحمل الصعاب، إلا أنه برهان ـ أيضًا ـ على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، مهما كانت الظروف، ومهما كانت مصاعب القتال.

لقد كانت معركة ليلة الهرير النموذج الأعلى للبرهان على «**استعداد المجاهدين الدائم للقتال**»، ومن المعروف أن المقاتلين العرب كانوا غالبًا ما يلجئون إلى الليل لاستخدامه في تحركهم، وتنقلهم؛ حتى يضمنوا مباغتة خصومهم عند مهاجمتهم مع أول ضوء من النهار، وحدث في كثير من الأحيان أن نفذوا إغاراتهم في الليل، على نحو ما كان يفعله خالد بن الوليد في إغاراته، ولكن لم يحدث أبدًا أن ألقى جيش بكامله ثقل هجومه في معركة ليلية.

وقد يكون من المؤسف عدم توافر معلومات عن الطريقة التي كانوا يستخدمونها لإضاءة أرض المعركة، أو الطريقة التي يتعرفون بها على أهدافهم، وقد يكون ضوء القمر مساعدًا لهم في عملياتهم، ولكن مهما كانت الوسائل بالنسبة لذلك العصر، فإن حدوث المعركة الليلية على مستوى الجيش إنما هو برهان ساطع على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، حتى في أسوإ الظروف، وأصعب الأجواء.

٢ـ الروح المعنوية العالية:

حدث في يوم أغواث أن تصدى للمجاهد «**علباء بن جحش العجلي**» مقاتل من أشداء الفرس، وفرسانهم فطعن علباءُ المقاتلَ الفارسي طعنةً أصاب منه مقتلًا،

وأصاب الفارسي بضربة منه المقاتلَ علباءَ في بطنه، وسقط المقاتلان، فأما الفارسي، فمات من ساعته، وأما علباء، فانتثرت أمعاؤه؛ فلم يستطع القيام لمتابعة القتال؛ فعالج إدخال أمعائه في بطنه، فلم ينجح في ذلك، حتى مر به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا، أعني على بطني. فأدخله له. فأخذ بصفاقيه (والصفاق جلد البطن)، ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت، وهو على بعد ثلاثين ذراعًا من صف فارس، وكان يردد:

أَرْجُو بِهَا مِن رَبِّنَا ثَوَابَا قد كُنت مِمَّنْ أَحْسَنَ الضِّرَابَا[1]

وكان زهرة بن الحويَّة يرتدي يوم الهجوم على بهرسير درعًا مفصومة؛ فقيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسرد ـ أي: تم وصله؛ حتى لا تكون فيه ثغرة تسمح بمرور السهم ـ فأجاب زهرة: ولِمَ؟ قالوا: نخاف عليك منه. قال: إني لكريم على الله، أن ترك سهم فارس الجند كله، ثم أتاني من هذا الفصم، حتى يثبت فيَّ، فكان أول رجل من المسلمين أصيب يومئذ بنشابة، فثبت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم انزعوها عنه، فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دامت فيَّ، لعلي أن أصيب منهم بطعنة، أو ضربة، أو خطوة؛ فمضى نحو العدو، فضرب بسيفه «**شهربراز**» من أهل إصطخر، فقتله، وأحيط به، فقتل، وانكشفوا.

صورتان من مجموعة صور لا نهاية لها، وكلها تعبر عما تميز به جيش المجاهدين في سبيل الله من روح معنوية عالية، كانت عُدَّتَهُمْ في التغلب على عدوهم.

ورضي الله عن عمر بن الخطاب القائلِ: «إننا لم نهزم الكفار والمشركين بعددنا، وإنما هزمناهم بهذا الدين».

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٤٦).

سعد القائد، وفن الحرب

لقد استخدم العرب المسلمون مجموعة من الاستراتيجيات؛ لدعم استراتيجيتهم العليا، وضمان نجاحها، وفي طليعة هذه الاستراتيجيات «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، وقد أمكن تطبيق أساليب مختلفة لإحباط إرادة القتال عند الخصم، وإضعاف مقاومته، وإقناعه بفشل مخططاته، وقد انعكس ذلك كله على نفسية قائد الخصم ذاته، الذي أصبح مرغمًا على قيادة قواته، «وهو مقتنع مسبقًا بانتصار العرب، وفشل الفرس»، ولم يكن تعبير «أكل عمر كبدي» الذي كرره «**رستم**» قبل القادسية وأثناءها سوى تعبير عن حالة اليأس من إحراز نصر على العرب المسلمين.

ولقد تطلب الوصول إلى هذه النتيجة في الواقع جهدًا كبيرًا، وعملًا ضخمًا بدأ منذ تولى المثنى بن حارثة الشيباني حرب العراق، ثم جاء خالد بن الوليد دعمًا له، واستمرًا معًا طوال عام كامل، ويظهر ذلك من خلال حديث المثنى بن حارثة إلى المسلمين، وقد استنفرهم لحرب العراق «فأبوا إلا الشام، وأبى عمر إلا حرب العراق»؛ نظرًا لأن العراق، ووجه فارس «كان من أكره الوجوه إلى العرب، وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطان الفرس، وشوكتهم، وعزهم، وقهرهم الأمم»، فوقف المثنى ليقول لهؤلاء: «أيها الناس، ولا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السواد، وشاطرناهم - أي: قاسمناهم - أرضهم، ونلنا منهم، واجترأ مَنْ قبلنا عليهم. ولها إن شاء اللّه ما بعدها».

وهكذا فإن الصراع المستمر طوال الأعوام الثلاثة التي سبقت «**القادسية**»، وجهاد المسلمين المستمر، قد عمل على استنزاف قوة الفرس، وإظهار قوة العرب، لا سيما، وأن معاركَ المسلمين في هذه الفترة كانت - باستمرار - معاركَ ظَافِرَةً «باستثناء معركة الجسر، أو قس الناطف، أو المروحة»، وقد كان الظفر في جميعها نتيجة للتوازن الدقيق بين «**غاية السلم**»، و«**هدف الحرب**» من جهة، وللتوازن المحكم - أيضًا - بين القوى،

والوسائط الإسلامية من جهة، وبين «**الأهداف المتالية للعمليات الحربية**» من جهة ثانية.

وقد رافق ذلك كله تطور كبير في الطرائق والأساليب التي كان يلجأ إليها العرب المسلمون في تنفيذ أعمالهم القتالية، والتي جاء النظام المتمفصل لحركة القوات في المعركة تتويجًا لها.

ولا يعني ذلك بداهة وصول الفرس إلى مرحلة «الانهيار الكامل»، فقد استطاعوا أن يحشدوا في القادسية ١٢٠ ألف مقاتل ـ على أقل تقدير ـ مقابل ٢٠ ألفًا، فكان ميزان القوى ستة لواحد لصالح الفرس، وعلاوة على ذلك، فقد كان الفرس يقاتلون على حدود أرضهم؛ فكانت خطوط إمدادهم ومواصلاتهم قصيرة، مقابل خطوط الإمداد الطويلة للعرب المسلمين.

وجاء التنظيم الجديد لقوات المسلمين؛ كي يزيد من صعوبات القيادة، والسيطرة، فالعمل في «النظام المتمفصل» يتطلب درجة عالية من تنسيق التعاون بين القوات حتى تستطيع حماية مجنباتها، ومؤخراتها، وهو يتطلب ـ أيضًا ـ العمل باستمرار لإعادة تجميع القوى والوسائط، وتأمين إمداد مستمر بالقوات الاحتياطية، وهنا تدخَّل القدر ليجعل من قدوم القعقاع بن عمرو التميمي، وهاشم بن عتبة، وتدخلهما في الوقت المناسب ـ منذ اليوم الثاني للقادسية عمليًّا ـ الوسيلة الوحيدة لسد الثغرة في النظام المتمفصل، وتدخَّل القدر مرة أخرى عندما وجَّه القعقاع، وحمله على تجزئة قواته حتى تصل ميدان المعركة تباعًا، وعلى شكل موجة متصلة من الإمداد، وقد يكون الحافز للقعقاع هو دعمَ الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الأسلوب قد أفاد في الواقع لسد ثغرات النظام المتمفصل، وتأمين متطلباته «**لإعادة التنظيم، وتأمين القوة الاحتياطية**»، فكان ذلك عاملًا كبيرًا في إحراز النصر.

لقد تضافرت هذه العوامل كلها، وتلاحمت في إطار متكامل، وقاد سعد قواته في إطار هذه الظروف، وهو مؤمن بالنصر، وقد كان الفاصل بين الهزيمة المنكرة،

والانتصار الرائع معلَّقًا بخيوط دقيقة، فالسلبيات مقابلة للإيجابيات، والتداخل بينهما شديد التعقيد، فكانت كفاءة سعد هي في عمق الإيمان بقدرته من جهة، وبما تميَّز به العرب المسلمون من فضائلَ حربية من جهة أخرى.

وانعكس ذلك على القوات المتصارعة «حتى كان المسلم يشير إلى القائد الفارسي فيأتيه، وعليه السلاح التام، فيضرب عنقه، وحتى أصاب أهل فارس يومئذ بعدما انهزموا، ما أصاب الناس من قبلهم ـ من القتل ـ فيدعو المسلم الرجل منهم، فيأتيه، حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه، وكذلك في العدة»[1].

وتمثل هذه الصورة المتحركة النموذج الأعلى لما يمكن تحقيقه في مجال استراتيجية الهجوم غير المباشر، وهو «حمل الخصم على الاستسلام الكامل، مع الخضوع التام لإرادته، والتخلي عن كل إرادة للقتال».

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن هذا الموقف لم يكن عامًّا، أو شاملًا لجميع قوات الفرس؛ فقد بقيت هناك قوات للمقاومة، وبقي هناك تصميم لدى بعض من أكسبتهم خبرات الحروب تصميمًا على متابعة الحرب، ولكن أساليب العمل المتطورة التي طبقها العرب، وإبداعَهم **«في فن الحرب»**، ومعرفة سعد لخصائص قوات المسلمين، ساعدت كلها على تتويج النصر في ساحة المعركة بانتصارات تكميلية **«القضاء على جيوب المقاومة والمطاردة»**، وحولت النصر في العمليات إلى نجاح كبير على مستوى السياسة الاستراتيجية.

❑ استراتيجية الحرب التشتيتية:

يتشابك مضمون **«استراتيجية الحرب التشتيتية»** مع مضمون **«استراتيجية الهجوم غير المباشر»**، ويكون الهدف في الحالين واحدًا، وهو «تدمير القوى المعنوية للعدو»،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٦٨، ٥٦٩).

و«حرمان قيادته من اتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه في الزمن والمكان الملائمين».

وقد خاض العرب المسلمون حربهم ضد الفرس في إطار من الحرب التشتيتية، وذلك منذ بدأ المثنى بن حارثة الشيباني أعماله على مسرح العراق في السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد طبق سعد بن مالك هذه الاستراتيجية بوسائل مختلفة، كان في مقدمتها حرمان العدو من موارد معلوماته «بالقضاء على مخافره (مسالحه) المتقدمة» إلى جانب اتخاذ التدابير المختلفة لحماية قوات المسلمين ضد المباغتات المتوقعة، أو الممكنة، وكانت خفة الحركة، والمرونة، ونشر نطاق أمن كبير من العوامل التي مارست دورها لتشتيت قيادات الفرس، وحرمانها من تقدير الموقف الصحيح لحجم قوات المسلمين، وقدراتهم، وأساليبهم الجديدة.

فاستمرت هذه القيادات في تقديرها للموقف على أساس أفكارها السلفية «وهي الأفكار التي تعتبر نبال العدو مجرد «دوك»، أو نبابيت، وتعتبر سيوفهم ذات الخلق القديمة، أو القماشية المهترئة أنها لا تستطيع مجابهة سيوف الفرس القوية»، وبذلك فقد كان ظهور قوات العرب في ساحة اليرموك، وهي منظمة بأسلوب يماثل تنظيم قوات الفرس «**طلائع ـ مجنبات ـ قلب ـ مؤخرة**» من الأمور المذهلة للفرس، وعلاوة على ذلك فقد نظم سعد قواته بما يتوافق مع النظام المتمفصل لقوات العرب المسلمين، وبما يستجيب ـ أيضًا ـ لتنظيم الفرس.

وكان هذا التنظيم هو التعاون الوثيق بين قوات الصدمة «**الفرسان**»، وقوات الرمي «**المشاة**»، ويظهر ذلك من خلال المقولة التالية: «إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة، ورأى أميركم بأن تحمل الخيل، ومعها الرجالة، ذلك أن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل، لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسروا للحملة، وانتظروا التكبيرة»[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٦٠).

وبالإضافة إلى ذلك فقد نظم سعد قواته على ثلاثة أنساق، نسق الصدمة «**الفرسان**»، ثم نسق الرماة، فنسق المشاة الثقيلة «**حاملي الرماح**»، مع تركيزه قوة الصدمة على الجناحين.

ولم يدرك قادة الفرس ميزان النظام المتمفصل، وأخذوا بظاهر التنظيم الخطي، في حين كانت قدرة هذا التنظيم الضمنية هي في مرونته، وكفاءته الحركية العالية.

وطبق سعد بعد ذلك أساليب الحرب التشتيتية لمطاردة فلول الفرس بسرعة، حيث أرسل مفارز ومجموعات من الفرسان في كل اتجاه.

«لقد لقي الفرس قوات المسلمين بعدة لم ير الراءون مثلها، فلم ينتفع الفرس بذلك، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وفي الفجاج».

لقد ساعدت أساليب الحرب التشتيتية ـ على مستوى العمليات ـ في نجاح سعد لاستخدام قوة العرب المسلمين بكاملها، وهكذا كانت قوة الغرب المسلمين تشتبك في القتال كلها في حين كان تنظيم الفرس لا يسمح إلا باستخدام جزء فقط من القوة.

وقد كان لهذا التنظيم سيئته فيما تكبده المسلمون من خسائر فادحة في الأرواح «**أثناء المعركة**»، ولكنهم عوضوا عن ذلك بعد المعركة، وبعد أن تحول الموقف لمصلحتهم، فعملوا على مطاردة قوات الفرس، وتدميرها على التتابع، فكانت محصلة خسائر الفرس أكبر بكثير من محصلة خسائر المسلمين.

وبذلك كانت استراتيجية الحرب التشتيتية قبل القادسية وأثناءها وبعدها في جملة العوامل التي ضمنت للمسلمين انتصارهم الحاسم.

❑ استراتيجية الهجمات الوقائية:

إذا كانت معارك المسلمين قبل القادسية هي معارك استطلاعية، فإن معارك المسلمين بعد القادسية هجمات وقائية متقدمة ذات هدف مزدوج؛ أولها نقل المعركة إلى منطقة العدو، وحماية قاعدة المسلمين، وثانيها هو «**إجهاض هجمات العدو قبل**

البدء فيها»، وهكذا لم يمض أكثر من شهرين على القادسية، حتى أسرع سعد بقواته إلى المدائن حتى يقضي على «**مقر العدوان**» وكانت فلول الفرس قد تجمعت في بابل بقيادة الفيرزان.

وقالوا: «نقاتلهم دستًا قبل أن نفترق»، وأسرع المسلمون إليهم، فدمروا تجمعهم، وانطلق الفرس على وجوههم، ولم يكن لهم إلا الافتراق، فخرج الهرمزان متوجهًا نحو الأهواز، وخرج الفيرزان معه، حتى طلع على نهاوند وبها كنوز كسرى، وصمد النخيرجان، ومهران الرازي للمدائن.

فأقام سعد في بابل ثم انتقل إلى بهرسير «وأقام المسلمون على بهرسير شهرين، يرمونها بالمجانيق، ويدبون إليهم بالدبابات، ويقاتلونهم بكل عدة».

«وصمد الفرس وراء خنادقهم، وحرسهم، وعدة حربهم، ورموا المسلمين بالمجانيق والعرادات، فاستصنع سعد المجانيق، فنصب على أهل بهرسير عشرين منجنيقًا فشغلوهم بها»(١).

وفتح المسلمون بهرسير، ثم انتقلوا منها إلى المدائن. وبلغ سعد أن مهران قد عسكر بجلولاء وخندق عليه، وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت، وتوجه هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفًا ـ بناء على أوامر أمير المؤمنين ـ وانتصر المسلمون بعد معركة طاحنة، وأحبطوا مخطط الفرس الذين مزقتهم معركة المدائن: «افترقت الطرق بأهل أذربيجان، والباب، وأهل الجبال، وفارس، وتجمعوا فقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبدًا، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به، ولنقاتلهم، فان كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلينا عذرًا؛ فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مهران الرازي»(٢).

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦).

(٢) المرجع السابق (٤/٢٤).

وبلغ سعدا اجتماعُ أهل الموصل إلى الأنطاق وتنظيم المقاومة في تكريت، وحفر الخنادق، والتصميم على قتال العرب؛ فوجه سعد جيشًا لتدمير فلول الفرس، وفتح تكريت، وتكررت العملية في ماسبذان، وقرقيساء.

لقد كانت استراتيجية الهجمات الوقائية عند العرب محكمة بدقة، ومرتبطة بردود فعل العدو، فكان سعد ينتظر الفرس حتى تتجمع قواتهم، ولكنه لم يكن يترك لهم الوقت لإكمال استعداداتهم القتالية، أو تنظيم قواتهم للهجوم، حتى يباغتهم في مواقعهم، ويعمل على تدمير قواتهم، وكانت هذه الاستراتيجية مرتبطة باستراتيجية الحرب التشتيتية بحيث كانت قوات المسلمين تعوق كل تعاون بين جيوب المقاومة المتتالية، ثم تحشد ما يكفي من القوات لتصفية جيب المقاومة الأكثر خطورة بضربة حاسمة، حيث يتم الانتقال بعدها لتصفية الجيب التالي، وهكذا حتى يتم القضاء على جميع مقاومات العدو.

وكانت استراتيجية الهجمات الوقائية ـ على أهميتها ـ في جملة الاستراتيجيات التي استخدمها العرب في فتوحاتهم، وكانت هذه الاستراتيجيات بمجموعها متداخلة بإتقان رائع بحيث تشكل «**فسيفساء**» فن الحرب عند العرب المسلمين.

❏ سعد ومبادئ الحرب:

١ ـ المباغتة:

تكمن المباغتة في عمليات سعد بن أبي وقاص ضد الفرس، وتمتد جذورها عميقًا حتى تصل إلى الأفكار السلفية التي كان يعرفها الفرس عن العرب، ولهذا فقد كان سلوك العرب بعد الإسلام مباغتًا بمجموعه بقدر ما كان مباغتًا في كل موقف من المواقف، وكان الفرس يعالجون المواقف المستجدة انطلاقًا من نظرتهم المتفوقة على العرب، ومن مكانتهم العليا التي سمحت لهم في مرات كثيرة بتهديد الجزيرة العربية، والتوغل حتى أعماقها.

وقد أفاد المسلمون من موقف الفرس حتى أبعد الحدود لتطبيق استراتيجيتهم في

الهجوم غير المباشر وفي قيادتهم للعمليات المتتابعة ضد قوات الفرس، ولخلق حالة من «**الشك**» تساعد على فصل «**عرب العراق**» عن قوات الفرس المهيمنة عليهم ماديًّا ومعنويًّا.

ويمكن على ضوء هذه القاعدة إدراك أهمية المباغتة التي مارست دورها عندما نظم سعد قواته لمجابهة الفرس في القادسية، وكذلك ما كان من أثر لسلوك المسلمين فوق القادسية «**الصلاة، التكبير**» مما أذهل الفرس، وأضعف من روحهم المعنوية حتى قبل الاشتباك.

كان سعد يبحث عن المباغتة في ساحة العمليات «فبعث طليحة إلى مخاضة أسفل من العسكر... وعبر طليحة العتيق، فدار إلى عسكر القوم، حتى إذا وقف على ردم النهر كبر ثلاث تكبيرات، فراع أهل فارس، وتعجب المسلمون، فكفَّ بعضهم عن بعض للنظر في ذلك»

«وحدد المسلمون تعبئتهم؛ وقدموا صفًّا، وأتبعوا آخر مثله، وآخر، وآخر، حتى تمت صفوفهم ثلاثة عشر صفًّا في القلب والمجنبتين كذلك، ثم لحقت بالفرسان الكتائب»[1].

لقد كان ذلك في بداية ليلة الهرير، وكانت المباغتة هي نقطة التحول في الموقف فقد كان الصراع ينتهي في الأيام الثلاثة، «**وكلما نال المسلمون من شر نال الفرس مثله**»، حتى إذا جدَّدت المباغتة عَزْم المسلمين، انطلقوا بتنظيم جديد في قتال ليلي شرس، «كان صليل الحديد فيها كصوت القيون، وقاتل المسلمون حتى الصباح، وأُفرغ عليهم الصبر إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها... حتى إذا كان وجهُ الصبح، انتمى الناس، فاستدل بذلك على أنهم الأعلون».

واستمر سعد بعد ذلك في الحرص على «**مباغتة الفرس**» سواء عن طريق دفع

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٥٧ ـ ٥٥٩).

قوات المسلمين للظهور في كل مكان، أو عن طريق إبداع طرائق جديدة في ساحة العمليات، أو عن طريق تنظيم القوات تنظيمًا يتوافق مع متطلبات الموقف، وقد كان من المحال على سعد تجديد «**المباغتة**» بصورة مستمرة، لو لم تتوافر لقوات المسلمين القدرة الحركية العالية، ولو لم تتوافر لهم القدرة ـ أيضًا ـ على استيعاب الظروف الجديدة في القتال، والتكيف معها بما يلائمها من التنظيم.

لقد تطور مبدأ «**المباغتة**» تطورًا كبيرًا عند العرب المسلمين من خلال أعمالهم القتالية المستمرة، وكان في طليعة المبادئ التي اعتمدوها في حروبهم، ولكن كفاءة سعد تبرز من خلال قدرته على تحقيق المباغتة في ظروف صعبة كانت فيها أبعاد مسرح العمليات محددة بدقة، وكان العرب والفرس يحاولون وفي وقت واحد الإفادة من نقاط الضعف، فكان تحقيق المباغتة على إطار «**العمليات**» مع كل تدابير الحيطة التي اتخذها الفرس، إنما هو برهان على القدرة العالية في التكيف مع ظروف القتال والاستجابة بما هو مناسب لها.

٢ـ المبادأة؛ واستخدام القوة الهجومية:

لم يكن باستطاعة سعد بن مالك حشد قوات المسلمين في القادسية؛ على حدود بلاد الفرس، وإعطاء المبادأة للفرس فيعرض هذه القوات للتدمير؛ وعلى هذا فقد كان الحرص على المبادأة عند سعد متلاحمًا مع بقية المبادئ ومتوافقًا مع معطيات السياسة العليا للعرب المسلمين، وكان هدف المبادأة هو وضع الفرس باستمرار أمام مواقف جديدة؛ وتوجيههم في النهاية نحو المعركة الحاسمة؛ وإرغامهم على قبولها في المكان والزمان اللذين يختارهما سعد.

وهكذا مرت أربعة أشهر تقريبًا بين نزول سعد القادسية وبين وقوع المعركة الحاسمة فيها، ولم تكن هذه الفترة ـ فترة عطالة عن العمل؛ أو وقتًا ميتًا، وإنما كانت فترة كلها عمل مستمر وجهد متصل، ما بين اتصالات مع قادة الفرس، واتصالات مماثلة مع أهل البلاد «**من العرب**» مع توجيه التحديات المتعاظمة لاستثارة الفرس

ودفعهم إلى قبول ما كانوا يحاولون تجنبه من الاشتباك.

وقد أفاد سعد من «**عامل الزمن**» إلى أبعد الحدود من أجل إعداد الظروف المناسبة للمعركة الحاسمة، كل ذلك دون السماح للفرس بانتزاع المبادأة أو الخروج على ما كان يخططه لهم سعد.

ولم تكن الإغارات المستمرة على حدود بلاد الفرس وتوجيه التهديدات إلى قلب قواتهم سوى بعض الوسائل لحرمانهم باستمرار من المبادأة؛ وقد مارست المبادأة دورها في «تنفيذ استراتيجية الهجوم غير المباشر» إذ أدَّت الأعمال القتالية «**الصغرى**» والمتفرقة إلى إضعاف الروح المعنوية للفرس، وإشعارهم بالخطر الدائم الذي يقترب منهم دون أن يعرفوا الشكل الذي سيأخذه هذا الخطر أو مدى قوته. وعلى هذا فإن استخدام المبادأة عند سعد بن مالك لم يقتصر على قيادة العمليات الكبرى، وإنما ظهر في كل عملية من عملياتهم حتى ما كان منها على مستوى فردي، وكان في ذلك يطبق مبدأ «**الهجوم ـ الهجوم ـ ولا شيء غير الهجوم**» وذلك قبل أن ينادي به نابليون بعد ألف ومئتي سنة تقريبًا.

ولعل الظاهرة البارزة هي الاستعداد الدائم لاستخدام القوة الهجومية باستمرار؛ لمجابهة المواقف جميعها. هذا على الرغم من إدراك سعد لضعف قوته العددية أمام تفرق الفرس الساحق، وقد كان بالمستطاع تحقيق التفوق لصالح المسلمين في المعارك الصغرى؛ والوصول إلى النتائج المطلوبة في تفتيت الفرس معنويًّا، وإكساب المسلمين الثقة بأنفسهم عن طريق الانتصارات الصغرى المتتالية؛ وكان لذلك ـ دون ريب ـ أثر حاسم وقوي في تقرير النتيجة النهائية للمعركة الحاسمة؛ إذ إن الخسائر المتتالية للفرس لم تكن منفصلة أبدًا عن محصلة الخسارة النهائية التي قررتها معركة القادسية.

وبذلك أخذت الحرب «صفتها المطلقة» وتأكدت هذه الصفة المطلقة من خلال الإصرار العنيد على متابعة المطاردة؛ لتدمير جميع القوات الفارسية، وأفاد سعد من ذلك كله ـ من المبادأة، ومن استخدام القوة الهجومية؛ حتى إذا جاءت المعركة

الحاسمة؛ كان هناك حالة من التوازن والاستقرار: «تفوق مادي بالقوى والوسائط في جهة، يقابله تفوق معنوي، وتفوق في التنظيم وإدارة الحرب» وبقيت النتيجة النهائية معلقة بخيوط رفيعة ترتبط «بالفضائل الحربية للقوات وإرادتهم على تحقيق النصر بقدر ما ترتبط بلعبة القدر».

ويظهر واضحًا أن انتصارات سعد وقوات المسلمين لم تكن «مجرد ضربات في الفراغ أحكمتها مصادفات الحرب وحدها»، وإنما كانت نتيجة تخطيط دقيق محكم، وإرادة صلبة تتصل في جذورها بالإيمان العميق، وجاءت مصادفات الحرب لتمارس دورها التكميلي، وكانت المبادأة، واستخدام القوة الهجومية في جملة المبادئ التي استخدمت بكفاءة عالية، وسمحت للمصادفات بممارسة دورها[1].

❑ سعد وفن الحرب:

تولى سعد بن أبي وقاص قيادة جيش العرب المسلمين خلال أصعب مرحلة من مراحل الحرب على جبهة العراق؛ وكانت هذه الجبهة تحتل المرتبة الثانوية بعد جبهة الشام؛ وعندما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إمرة المسلمين، عين سعدًا لحرب العراق، ونقل ثقل الهجوم إلى جبهتها، لا سيما وأن الحرب على جبهة الشام قد تقررت بانتصار المسلمين في معركة اليرموك، وفتح دمشق، فبدأت الإمدادات في التوجه إلى العراق من الشام، ومن الجزيرة العربية.

وكان أمير المؤمنين يشرف بنفسه على قيادة الجيوش، ويعمل على توجيهها، ويحدد لها واجباتها، وكان سعد بن أبي وقاص يعود في أموره كلها إلى أمير المؤمنين، ويعلمه بتطورات الموقف، وينفذ تعليماته وتوصياته بدقة.

وشهدت هذه الفترة، ومن خلال هذا التعاون الوثيق، بداية التطور في العقيدة القتالية للعرب المسلمين؛ فقد تم فيها تنظيم مناطق التجمع، ومناطق الحشد، وحددت

---

(١) للتفصيل **انظر**: سعد بن أبي وقاص، لبسّام العسلي «دار النفائس».

الواجبات والأعمال التي يجب تنفيذها في كل منطقة، وأخذ جيش المسلمين في استخدام تنظيم جديد ـ عن طريق التقسيم العُشري للقوات ـ، ورافق ذلك وضوح في تدابير الأمن والحيطة، وتنظيم دقيق لأرتال المسير، وإجراءات حازمة لحماية المعسكرات. كل ذلك مع تنظيم جيد للشئون الإدارية، ومن الطبيعي والواضح أن الخليفة لم يكن يتدخل في جميع الأمور التنظيمية والعملياتية، وإنما كان يحدد الهدف والخطوط العامة المطلوب تنفيذها؛ فكان سعد بن مالك بن أبي وقاص هو «**المنظم الأول**» لجيوش العرب المسلمين.

لقد اصطدم المسلمون بجيوش الفرس، وهي جيوش لديها خبرات قتالية واسعة بحكم صراعها الدائم، وهي ـ أيضًا ـ متفوقة في ميزان القوى، وكانت تتبع تنظيمًا معينًا ودقيقًا في إدارة الحرب، وعلى هذا قد يكون من الصعب تقويم منجزات سعد بن أبي وقاص إن لم ترتبط عملية التقويم هذه بما كان يطبقه الخصم من طرائق عملياتية وما يستخدمه من أساليب تعبوية «**تكتيكية**».

كان تنظيم المعركة عند الفرس يعتمد على قوة الصدمة بالدرجة الأولى، ويظهر ذلك من خلال اقتران ٣٠ ألفًا بالسلاسل؛ لتكوين جدار تتحطم على جبهته هجمات العرب المسلمين. وكانت بقية القوات الفارسية تدعم «**جدار الصدمة**» بواسطة رماياتها الكثيفة؛ ونتيجة لهذا التنظيم القتالي الذي لا يقبل التجزئة كان باستطاعة الفرس تدمير قوات أعدائهم بضربة واحدة وبأقل ثمن ممكن، فإذا أضيف إلى ذلك التفوق الكبير في القوى والوسائط لصالح الفرس، فإن صورة الاشتباك ستظهر قائمة وغير مثيرة للتفاؤل.

ولكن سعد بن أبي وقاص أفاد من سلبيات التنظيمات الفارسية وعدم قدرتها على العمل بصورة مجزأة؛ ليبتكر الأسلوب المناسب والذي يمكن اعتباره أسلوبًا متقدمًا لأكثر من عشرة قرون.

اعتمد سعد بن أبي وقاص على النظام البديل وهو نظام «**الجيوش المتفصلة**»

وكان هذا النظام يستجيب ـ في الواقع ـ لطبيعة قوات العرب «**الخفيفة والمرنة**»، كما يتوافق مع ما تتطلبه مجابهة التنظيم الفارسي «**الثقيل والمحروم من حرية العمل**».

وبرزت ميزات هذا النظام من خلال المناورات العميقة والقوية لقوات العرب المسلمين، وهي المناورات التي وصل بها القعقاع بن عمرو في ليل الهرير إلى مؤخرة الفرس.

كما برزت من خلال حرية العمل التي كانت تسمح للمسلمين بتنظيم هجماتهم التعبوية بمرونة، ثم الانسحاب بسرعة، وإعادة التنظيم من أجل هجوم جديد.

وأخيرًا فقد برزت ميزات هذا التنظيم أيضًا من خلال المطاردة السريعة والحاسمة لقوات الفرس بعد إلحاق الهزيمة بهم، وظهرت محصلة هذا التنظيم في النهاية على شكل صورة متقدمة «**لحروب الصاعقة**».

لقد كان العمل وفقًا لهذا النظام يتطلب ميدانًا محددًا يساعد على تحقيق السيطرة والإشراف على المعركة، ويظهر أن سعد بن أبي وقاص قد وضع ذلك في اعتباره عندما نزل القادسية، وصمم على جذب خصمه إليها.

وتظهر مسيرة الأحداث والمفاوضات أن سعدًا كان مصممًا على عدم مجابهة الفرس إلا في القادسية ـ على نحو يشابه تمامًا ما فعله المسلمون في اليرموك ـ.

ولقد حال مرض سعد ـ بالدمامل ـ بينه وبين قيادته المباشرة للقوات، فأوكل إلى خالد بن عرفطة أمر إدارة المعركة نيابةً عنه، وأخذ في تبليغه أوامره بواسطة الرقاع ـ أوامر خطية ـ، وقد يكون من المؤسف عدم الحصول على هذه الأوامر، ولكن أسلوب إدارة المعركة يبرهن على أن سعدًا كان يتابع جميع المواقف الطارئة، ويدرسها، ويحللها، ويعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها، مثل أسلوب القضاء على الفيلة التي أفزعت خيول المسلمين.

لقد كان من الغريب ألا يكتشف الفرس الخطأ الكبير في تنظيمهم القتالي، وأن

يتجاهلوا نقاط ضعفه، لا سيما بعد هزيمة قواتهم على أيدي القائد الروماني بيلزير، ولكن من المحتمل أن يكون استهتار الفرس بقوة العرب، وعدم تقويمهم الصحيح لما صار عليه العرب بعد الإسلام، ثم اعتداد الفرس بتفوقهم الكبير بالقوى والوسائط هو الذي دفعهم إلى زج قواتهم في المعركة؛ وفقًا لأساليبهم التقليدية، في حين كان العرب يخوضون حروبهم بأساليب ثورية حقيقية تتميز بالتجديد والإبداع إلى أبعد الحدود.

إن كفاءة سعد بن أبي وقاص وقدرته القيادية لا تقف عند حدود التنفيذ الرائع لأوامر الخليفة، والتوفيق بين ما هو مطلوب وبين القوى والوسائط المتوافرة، كما أن قدرته التنظيمية لا تقف عند حدود وضع الأسس الجديدة لبناء الجيوش الحديثة، وإنما تتجاوز ذلك كله إلى «أسلوب التعامل مع الرجال» ومعرفة قدراتهم، واستثارة الأصالة العربية في نفوسهم، ثم جمع أكبر قدر من العوامل المختلفة التي تضمن النصر؛ وقد يكون من الصعب في كل الأحوال إرجاع النصر الخالد في القادسية إلى كفاءة القائد سعد بن أبي وقاص وحدها وتجاهل تلك الأسس والقواعد التي وضع الرسول القائد ﷺ حجر الأساس فيها وأقام بنيانها على مبادئ ثابتة حددتها العقيدة الدينية الإسلامية.

ونختم بأن هناك ثمة مجموعة من المنجزات التي يعود الفضل في إعطائها صورتها الواقعية وتطبيقها الفعلي للقائد سعد بن أبي وقاص وأبرزها:

١- تقسيم الجيش وتنظيمه تنظيمًا حديثًا على الأساس العشري، وتعيين القادة لمختلف مراتب التسلسل «**العرفاء، قادة العشرات، ثم قادة الخمسينات، وأمراء المئات، وأمراء الألوف، وهكذا**» وبذلك أخذ الجيش الإسلامي شكل التنظيمات المتقدمة، وكان سباقًا في هذا المجال على جيوش العالم القديم.

٢- تنظيم مناطق الحشد، وتحديد إجراءات الأمن وتدابير الحيطة الواجب اتخاذها في هذه المناطق.

٣ـ تنظيم أرتال المسير مع فكرة احتمال مجابهة العدو في كل مرحلة من المراحل، واختيار التشكيل الملائم الذي يسمح بالتحول من تنظيم التحرك إلى تنظيم القتال.

٤ـ تحديد الواجبات الدقيقة لعناصر الأمن، ودفعها أمام القوات مسافة تكفي لإنذار القوات الرئيسية وإتاحة الفترة اللازمة لاتخاذ تنظيم القتال.

٥ـ استخدام وسائل اقتحام الحصار؛ والتوسع فيها «**المجانيق، العرادات، الدبابة**».

٦ـ تنظيم عمليات عبور الأنهار والموانع المائية «**رائدة ـ وسائط عبور**».

٧ـ تطوير النظام المتمفصل «**النظام المرن أو السيال**» في قتال المسلمين.

وقد يكون من الصعب حصر منجزات القائد سعد كلها، ولكن من الملاحظ أن جميع هذه المنجزات تتعلق بالأمور التنظيمية والقيادة الفعلية للعمليات، وبذلك يمكن القول، دون مبالغة: إنه أول قائد منظم، وأول قائد للعمليات في جيوش المسلمين[١].

وختامًا: لا ينسى الناس فاتح العراق، وهم يروْن ما حل بالعراق.. عراقٌ ولا سعد له.. أو «**واسعداه**» واعراقاه ... ولا سعد للعراق.

سيظل اسم سعد رضي الله عنه نابهًا في كل مصادر التاريخ وعلى كل لسان، ويكفي فخر النبي به «**هذا خالي فليرني امرؤ خاله**» ـ وما أصدق قول سعد رضي الله عنه لابنه وهو على فراش الموت: «**لا تبك عليَّ، فإن اللَّه لا يعذبني أبدًا، وإني من أهل الجنة. إن اللَّه لا يدين المؤمنين ما عملوا لله**»[٢].

---

(١) سعد بن أبي وقاص، لبسَّام العسلي.

(٢) طبقات ابن سعد (١٤٧/٣).

١٤

أبو الأعور..

السابق إلى الإسلام..

مجاب الدعوة..

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه..

أحد العشرة ..

أبو الأعور.. السابق إلى الإسلام..
مجاب الدعوة..
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه..

أحد العشرة ..

❏ ما سعيدٌ يوم اليرموك إلا مثل الأسد:

عن قيس قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: «**لو رأيتني موثقي**[١] **عمر على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم**[٢]**...**»[٣].

الفارس السبَّاق «**الذي تقطر منه الفضائل، وتفوح من شذى سيرته المكارم**»[٤].

كان له أكبر الأثر في إسلام عمر بن الخطاب، وهو الفارس، الكريم، الرباني، مستجاب الدعوة، عرفته الفضائل، وعرفها منذ أن عرف معنى الحياة.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

قال الحافظ بن حجر عن الصحابة، والعشرة منهم خاصة:

وجوه أصحابه كالدُّر مشرقةٌ ... إذا رأيت امرأً عن هديهم صرفا
نالوا السيادة في دنيا وآخرة ... والسبق والفضل والتقديم والشَّرَفا
وبالرضا خُصَّ منهم عشرة زُهُرٌ ... يا ويح مَن في مُوَالاةِ لهم وقفَا
سعد سعيد زبير طلحة وأبو ... عبيدة وابن عوف قبله الخُلَفا
لا تسألَنَّ القوافي عن مآثرهم ... إن شئت فاستنطق القرآن والصُّحفَا[٥]

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: «كان مقام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي،

---

(١) أي أن عمر موثق سعيد بن زيد.
(٢) يعني: قبل أن يُسْلِم عمر.
(٣) رواه البخاري (٣٨٦٧).
(٤) فرسان حول الرسول، لأحمد خليل جمعة (٤٥٣/١) «دار الكلم الطيب ودار البشير».
(٥) ديوان ابن حجر ص (١٤، ١٥).

وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كانوا أمام رسول اللَّه ﷺ في القتال، وخلفه في الصف، وليس لأحد من المهاجرين والأنصار أن يقوم مقام أحد منهم، غاب أم شهد»[١].

جهاده مع رسول اللَّه ﷺ:

كان سعيد بن زيد من كبار الفرسان الذين أبلوا أعظم البلاء في ساحات الجلاد والجهاد والطعن والطعان.

وقبل بدر كان له مهمة استخبارية:

لما تحين رسول اللَّه ﷺ وصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيداللَّه وسعيد بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خَبَرَ العِير، فلما بلغا الحوراء، أقاما هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول اللَّه الخبر قبل رجوع طلحة وسعد إليه، فندب أصحابه، وخرج يريد العير، فتساحلت العير وأسرعت، وساروا الليل والنهار فرقًا من الطلب، وخرج طلحة وسعيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ يريدان المدينة؛ ليخبرا رسول اللَّه ﷺ خبر العِير، ولما يعلما بخروجه، فقدما المدينة في اليوم الذي لاقى رسول اللَّه ﷺ النفير من قريش ببدر، فخرجا من المدينة يعترضان رسول اللَّه ﷺ، فلقياه منصرفًا من بدر، فلم يشهد سعيد وطلحة الوقعة، فضرب لهما رسول اللَّه ﷺ بسهمهما وأجورهما في بدر، فكانا كمن شهدها[٢]، وعُدَّا في أهل بدر.

وشهد سعيد بن زيد غزاة قريظة، وكان من فرسانها الذين حاصروا اليهود خمسًا وعشرين ليلة، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي وافق حكم اللَّه من فوق سبع سماوات.

وقسم رسول اللَّه ﷺ أموال بني قريظة، وجعل للفارس ثلاثة أسهم: سهمين

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣٠١/٩).

(٢) السير الكبير (١٠٠٩/٣).

للفرس، وسهمًا لراكبه، أو للراجل، وكانت الخيل يومئذ ستًّا وثلاثين.

وبعد ذلك دعا رسول اللَّه ﷺ سعيد بن زيد، وأمره أن يذهب بسبايا من بني قريظة إلى نجد؛ ليشتري بها خيلًا وسلاحًا؛ كيما تزيد قوة المسلمين الحربية؛ ففعل سعيد، وذهب إلى نجد فابتاع بها خيلًا وسلاحًا، وعاد إلى المدينة، وقد حظي بمرضاة اللَّه ومرضاة رسوله ﷺ[١].

يُساقُ السَّبْيُ شرذمةٌ بنجدٍ وأخرى بالشآم لها أليلُ[٢]

أَصاب المسلمون بها سلاحًا وخيلًا في قوائمها الحجول[٣]

مُكرَّمة تُعَدُّ لكل يوم كريم الذكر ليس له مثيلُ

وعسى اللَّه أن يَمُنَّ على المسلمين بيوم يسوق فيه فَارِسُ المسلمين المنتظر السبايا الكافرات لبيعهن وشراء السلاح بأثمانهن مثلما فعل الفارس سعيد بن زيد رضي الله عنه.

❑ جهاده بعد رسول اللَّه ﷺ:

سعيد بن زيد قائد الفرسان يوم أجنادين:

قائد الفرسان يوم أَجْنادِين، وكان من أشد الناس، وهو الذي أشار على خالد بِبَدْءِ القتال يوم أجنادين لما رمَى الروم المسلمين بالنُّشَّاب، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلًا: «**عَلَام نستهدف لهؤلاء الأعْلاج؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شَمَسَتِ الخيل؟!**». فأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «**احملوا ـ رحمكم اللَّه ـ على اسم اللَّه**»، وحمل خالدٌ على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين.. على مْيمنتهم مرة، ثمَّ على مْيسرتهم، ثم صبروا لرَشْق نبالهم، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[٤]،

---

(١) **انظر**: تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/١٦٤).

(٢) السبايا إلى نجد بُعِثَ بها سعيد بن زيد، وإلى الشام بُعِثَ بها سعد بن عبادة. والأليل: الأنين ورفع الصوت بالصراخ عند المصيبة.

(٣) الحجول: جمع حجْل؛ وهو: البياض في رجل الفرس.

(٤) الفواق: ما بين الحلْبَتَيْنْ من الوقت، والمراد: الزمن القصير.

وانهزموا هزيمةً شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاءُوا، وأصابوا معسكرهم وما حَوى.

وعند الطبري، عن ابن إسحاق: «**فلما رأى القبقلار**[١] **ما رأى من قتال المسلمين، قال للروم: لفوا رأسي بثوْبٍ. قالوا: لِمَ؟ قال: يوم البئِيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ من هذا، فاحْتَزَّ المسلمون رأسَه، وإنه لَمُلَفَّفٌ**».

ولعل أروع بطولاته تلك التي سجلها يوم اليرموك.

❑ يوم اليرموك مثل الأسد احتاج الناس إلى بأسه:

كان سعيد رضي الله عنه من أمراء الجيش في اليرموك، حيث كان على قلب جيش المسلمين، فقد قال خالد بن الوليد لأبي عبيدة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أثناء التنظيم لمعركة اليرموك: رأيتُ أن يجلس سعيد بن زيد مجلسك هذا، ويقف من ورائه وبحذائه مئتان أو ثلاث مئة يكونون للناس ردءًا[٢].

«قال سعيد بن عمرو بن نُفيل: لمَّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك، فخرجتْ لنا الروم بعشرين ومئة ألفٍ، وأقبلوا علينا بخطًى ثقيلةٍ، كأنهم الجبال تُحركها أيدٍ خفيَّةٌ، وسار أمامهم الأساقفةُ والبطارقةُ والقسِّيسُون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات، فيردِّدُها الجيش من ورائهم، ولهم هَزِيمٌ كهزيم الرَّعد، فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه، هالتْهم كثرتُهم، وخالط قلوبَهم شيءٌ من خوْفهم؛ عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال، فقال: عبادَ الله، انصروا اللَّه ينصْركم ويثبِّتْ أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب، وَمَدْحَضَةٌ للعار، وأشرعُوا الرماح، واستتِرُوا بالتروس، والزموا الصمتَ إلا من ذكْر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله[٣].

---

(١) قائد جيش الروم.

(٢) تهذيب ابن عساكر (١٦٤/١).

(٣) **انظر**: البداية والنهاية (٨/٧).

قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عُبيدة: إني أزمعتُ[١] على أن أقضي أمري الساعة[٢]، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول اللَّه ﷺ؟ فقال أبو عُبيدة: نعم، تُقرئه مني ومن المسلمين السلامَ، وتقول له: يا رسول الله، إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا.

قال سعيد: فما إنْ سمعتُ كلامَه، ورأيتُه يمتشِقُ حُسَامَه ويمضي إلى لقاءِ أعداء الله، حتى اقتحمتُ[٣] إلى الأرض، وجثوْتُ على ركبتيَّ، وأشرعتُ رمحي، وطعنت أوَّلَ فارس أقبَل علينا، ثم وَثبتُ على العدوِّ، وقد انتزع اللَّه كلَّ ما في قلبي من الخوْف، فثار الناس في وُجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب اللَّه للمؤمنين النصر»[٤].

«قال حبيب بن سلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله درُّ سعيد! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد، لما نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيْه، حتى إذا دَنَوْا منه وثب في وجوههم مثل الليْثِ، فطعن برايته أوَّلَ رجل من القوم فقتله، وأخذ ـ واللهِ ـ يقاتل راجلًا ـ قتالَ الرجل الشجاع البَأْسِ ـ فارسًا، ويعطِفُ الناسُ إليه»[٥]، وانتصر المسلمون في هذا المشهد العظيم.

وشهد سعيد بعد ذلك حصار دمشق وفَتْحها وكان بصحبته أبو عبيدة عليها، فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة.

ذكر صلاح الدين الصفدي ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «**تحفة ذوي الألباب**» أن سعيد ابن زيد قد ولاه أبو عبيدة دمشق، وذكر ذلك في بيت من الشعر من قصيدة، فقال:

---

(١) ، (٢) أزمعتُ: عزمتُ. وأقضي أمري الساعة؛ أي: أموت في هذه الساعة.

(٣) اقتحمتُ إلى الأرض: رميتُ بنفسي بشدةٍ على الأرض.

(٤) صُور من حياة الصحابة، للدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا (١/١٥٥ ـ ١٥٨) «طبع مؤسسة الرسالة».

(٥) تاريخ ابن عساكر (١/٥٤١)، والأزدي (٢٢٦).

وقد تولاها سعيد العدوي وهو على الفضل المبين محتوي[١]

وبعد أن ولاه أبو عبيدة دمشق، نهض أبو عبيدة بمن معه للجهاد، فكتب إليه سعيد بن زيد رضي الله عنه:

«أما بعد: فإني ما كنتُ لأوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسي وعلى ما يدنيني من مرضاة الله، فإذا جاءك كتابي فابعث إلى عملك من هو أرغبُ إليه مني، فإني قادمٌ عليك وشيكًا إن شاء الله، والسلام».

أحب سعيد بن زيد الفارسُ العدويُّ أن يكون في عداد المجاهدين بن الأسنة والرماح، وأقسم باللَّه قائلًا: «والله، لمشهد شهده رجل مع رسول اللَّه ﷺ يغبرٌ فيه وجهه مع رسول اللَّه ﷺ أفضل من عمل أحدكم، ولو عُمِّر عمر نوح»[٢].

رَضِيَ اللَّهُ عن سعيد بن زيد، فقد كان بالحق قوَّالًا، ولما له بذَّالًا، ولهواه قامعًا، وقتَّالًا رغب عن الولاية، وتشتمر في الرعاية، عازمًا على السَّبْق والعبور، المفضي إلى الرفعة والحبور.. كان عن نفسه فانيًا، وفي العبودية غانيًا[٣].

* * *

---

(١) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، لصلاح الدين الصفدي (٧٧/١) «طبع وزارة الثقافة ـ دمشق».

(٢) **انظر**: حلية الأولياء (٩٥/١).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠٠/٩).